

رسائل الجاحظ

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



39141

PT25-1090

Am Boug B
1 June 45

بجته التأليف والترجمة والنشر

(C)
246

مجموع رسائل الجاحظ

وهي رسائل لم تنشر

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

نشرها

ياول كراوس محمد طه الحاجري

ALBULOO
VT123VIMU
V1A9ALL

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٣

893.7J19

56

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

مقدمة

هذه هي الطائفة الأولى من رسائل الجاحظ التي لم تنشر واعتزنا بنشرها ،
مما أبقّت عليه الأحداث المختلفة التي منيت بها آثار كاتبنا العظيم . وما زال
الجاحظ — وقد مضى عليه أحد عشر قرناً — في طليعة أدباء العربية ، وأول
المثّل التي يتطلع إليها كتابها وطلاب البيان فيها ، كما لا يزال من أصدق
المصورين للنزعات الإنسانية ، وأبرع المستشفين لخفايا النفوس وحنايا الضمائر
وحركات القلوب ، ثم هو مع هذا من أقدر الكتاب على عرض التيارات العقلية
المختلفة في عصره ، فلا جرم أخذت العناية بنشر آثاره تتجه في هذا العصر
اتجاهاً صادقاً دائماً مصمماً . وقد أردنا بنشر هذا المجموع أن نأخذ بنصيبنا من
هذه العناية ، وأن نساهم — قدر الطاقة — في إحياء ما كاد يدرس ويمحى
من هذه الآثار ، وتجديد ما كاد يطمس وينبهم من قسّمات ذلك الكتاب
وقد اخترنا أن نجلو في هذا المجموع الرسائل المفردة . وعندنا أن هذه
الرسائل — على قصر الكثير منها — أبلغ في الدلالة على صاحبها من الكتب
المطولة ، إذ كانت بطبيعتها معينة الموضوع محدودة الغرض . لا تأذن لعادة
الاستطراد أن تداخلها وتشتت عناصرها . فكل رسالة منها وحدة قائمة بذاتها ،
قد توفر الكاتب عليها ، ووجه فنه إلى غايتها ، فمضى فيها نسيطاً موفور القوة ،
لا تأخذ طبعه فترة يضعف فيها ، فيتشكف ويتصنع ، ولا يناله ملل يرهقه ويقف
به ، فيلتمس ما يبعث نشاطه ، فيغيّر سبيله ، ويحوّر منهجه .
وهذه الطائفة الأولى التي يضمها هذا الجزء تتألف من أربع رسائل :

(د)

المعاد والمعاش ، وكتمان السر وحفظ اللسان ، والجد والهزل ، والحسد والعداوة .
وكل منها يمثل ناحية من نواحي الجاحظ الفنية ، كما أنها من خير ما يعين على
تصور حياته الظاهرة والباطنة . ولسنا الآن بصدد تحليل هذه الرسائل وبيان
عناصرها ودلالاتها المختلفة ، فذلك أمر لا تتسع له هذه المقدمة ، وإنما نكتفي
هنا بالإشارة إلى هذا الوجه من أوجه خطورتها ، إلى جانب ما يجده القارئ
فيها من جمال فني خالص ، ومتاع روحي كبير

المصادر

اعتمدنا في نشر هذه الرسائل على المصادر المخطوطة الآتي ذكرها :

(٥) نسخة مكتبة داماد إبراهيم باشا رقم ٩٤٩ ، وتوجد صورتها
الفتوغرافية في مكتبة الجامعة المصرية . وهذه المخطوطة تحتوى على ٢١٩ ورقة
في حجم المئتين العادى ، وفي كل صفحة منها تقريبا ٢٣ سطراً . بخط نسخي
أشبه بخط القرن الثامن . وهى لا تحمل أى إشارة تدل على تاريخ نسخها ،
وكل ما عليها هو خاتم وقف داماد إبراهيم باشا لها ، وقد وصف فى هذا الخاتم
بأنه وزير السلطان الغازى أحمد خان (١٠١٢ - ١٠٢٦) ، وهذه هى الرسائل
التي تحتوى عليها :

(١) كتاب فضائل الأتراك (ورقة ١ وما يليها)

(٢) رسالة كتبها إلى محمد بن عبد الملك فى الأخلاق الحمودة والمذمومة

(ورقة ٢١) ، وهى الرسالة الأولى فى هذا المجموع

(٣) كتاب كتمان السر وحفظ اللسان (ورقة ٣٥) ، وهى الرسالة الثالثة فى

هذا المجموع

(٥)

(٤) رسالة المعاد والمعاش في الأدب وتديبير الناس ومعاملاتهم كتب بها إلى
أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد (ورقة ٤٧) وهي رواية ثانية مستقلة
لرسالة الأخلاق الحمودة المذمومة التي سبق ذكرها

(٥) كتاب نحر السودان على البيضان (ورقة ٦٠) ✓

(٦) رسالة في الجد والهزل إلى محمد بن عبد الملك الزيات (ورقة ٧٤) ، وهي

الرسالة الثانية في هذا المجموع

(٧) رسالة في نفي التشبيه إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد (ورقة ٨٨)

(٨) رسالة إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الايادي يخبره فيه بكتاب

الفتيا (ورقة ٩٦)

(٩) رسالة إلى أبي الفرج ابن نجاح السكاتب (ورقة ٩٩)

(١٠) رسالة فصل ما بين العداوة والحسد (ورقة ١٠١) ، وهي الرسالة الرابعة في

هذا المجموع

(١١) رسالة في ذم القواد (ورقة ١١٣)

(١٢) رسالة في النابتة إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد (ورقة ١٢٠)

(١٣) كتاب الحجاب (ورقة ١٢٦)

(١٤) كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان (ورقة ١٤٤)

(١٥) كتاب القيان (ورقة ١٥٨)

(١٦) كتاب ذم أخلاق السكاتب (ورقة ١٧١) ✓

(١٧) كتاب القول في البغال (ورقة ١٧٨)

(١٨) رسالة في الحنين إلى الأوطان (ورقة ٢١٢ إلى ٢١٩)

وفي كتاب مخطوطات الموصل للدكتور داود الجبلي (مطبعة الفرات ببغداد سنة ١٣٤٦ - ١٩٢٧ ص ٢٦٤) ذكر لمجموعة من رسائل الجاحظ كانت محفوظة في مكتبة أمين بك ابن أيوب بك الجبلي ، وهي شبيهة بمجموعة داماد التي في أيدينا ، إذ تحتوي على نفس الرسائل بنفس الترتيب . إلا أن في أولها (أى قبل كتاب فضائل الأتراك) قطعة عنوانها : « حكاية عثمان الخياط في اللصوص ووصاياهم » ، ولعلها مأخوذة من كتاب الحيوان (٢ : ١٣٣ ط الساسي) أو هي منتخبة من كتاب اللصوص للجاحظ الذي لم يعثر عليه بعد ، ولا ريب أنه كان لهذه المجموعة شأن كبير في تصحيح الرسائل الواردة في مجموعة داماد ، وقد اتجهنا إلى الدكتور داود الجبلي لسؤاله عنها فكتب إلينا بأن مكتبة الحاج أمين الجبلي قد تشتت بعد وفاة صاحبها ، وأنه افتقد هذه المجموعة ولكنه لم يهتد أخيراً إليها . ونحن نأسف أشد الأسف لعدم تمكننا من الاستفادة منها ، وإن كنا لا نزال نرجو أن يعثر عليها ويستفاد منها في تصحيح هذه الرسائل

(٢) مجموعة عنوانها : مختارات فصول الجاحظ محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني برقم ١١٢٩ ملحق (Suppl.) ، وتوجد صورتها الفتوغرافية في مكتبة الجامعة المصرية . وهذه المخطوطة تحتوي على ٢٩٩ ورقة . وهي مكتوبة بخط نسخي حديث ، وفي آخرها : « انتهاء الفصول التي اختارها عبد الله بن حسان من كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله تعالى وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة يوم الجمعة المبارك الثامن عشر من شهر صفر الخير من شهر سنة أربع وتسعين ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية على يد كاتبها الفقير عبد الله المنصوري ، اللهم اغفر له

(ز)

ولوالديه أمين أمين أمين . وقد كتبت النسخة « برسم خزانة الأمير الفاضل
موسيو كريم (A. v. Kremer) النمساوى بمحروسة مصر سنة ١٨٧٧ » كما
يقرأ على صفحتها الأولى

وهذه المجموعة تحتوى على فصول مختارة من الرسائل الآتية :

- (١) من كتاب الحاسد والحسود (ورقة ١ وما يليها)
- (٢) من كتابه فى المعلمين (ورقة ٨)
- (٣) من كتاب التربيع والتدوير (ورقة ١٩)
- (٤) من رسالته إلى الحسن بن وهب فى مدح النيذ وصفة أصحابه (ورقة ٤١)
- (٥) من كتابه فى طبقات المغنين (ورقة ٤٩)
- (٦) من كتابه فى البناء (ورقة ٥٢)
- (٧) من رسالته إلى الفتح ابن خاقان فى مناقب الترك وعامة جنود الخلافة
(ورقة ٦٢)
- (٨) من كتابه فى حجج النبوة (ورقة ٨٨)
- (٩) من كتابه فى خلق القرآن (ورقة ١٢١)
- (١٠) من كتابه فى الرد على النصارى (ورقة ١٢٩)
- (١١) من كتابه فى مقالة العثمانية (ورقة ١٦١)
- (١٢) من كتاب المسائل والجوابات فى المعرفة (ورقة ١٧٥)
- (١٣) من كتابه فى المعاد والمعاش (ورقة ١٨٥)
- (١٤) من رسالته إلى محمد بن عبد الملك فى الجد والهزل (ورقة ١٩١)
- (١٥) من كتابه فى الوكلاء (ورقة ١٩٤)

(ح)

- (١٦) من كتابه في الأوطان والبلدان (ورقة ١٩٩)
 - (١٧) من رسالته في البلاغة والايجاز (ورقة ٢١٩)
 - (١٨) من كتابه في تفضيل البطن على الظهر (ورقة ٢٢٠)
 - (١٩) في كتابه في النبل والتنبيل وذم الكبر (ورقة ٢٢٧)
 - (٢٠) من رسالته إلى أبي الفرج السكاك في المودة والخلطة (ورقة ٢٣٨)
 - (٢١) من كتابه في استحقاق الأمانة (ورقة ٢٤٠)
 - (٢٢) من رسالته في استنجاز الوعد (ورقة ٢٥٠)
 - (٢٣) من رسالته في تفضيل النطق على الصمت (ورقة ٢٥٤)
 - (٢٤) من كتابه في فضيلة الكلام (ورقة ٢٦٠)
 - (٢٥) من رسالته في مدح التجار وذم عمل السلطان (ورقة ٢٦٥)
 - (٢٦) من كتابه في الشارب والمشروب (ورقة ٢٦٨)
 - (٢٧) من كتابه في الجوابات في الإمامة (ورقة ٢٧٨)
 - (٢٨) من كتابه في مقالة الزيدية والرافضة (ورقة ٢٩١ إلى ٢٩٩)
- وتوجد من هذه المجموعة نسخة أخرى مطابقة لها في الخزانة التيمورية
بدار الكتب المصرية

(ب) كتاب المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ وهو محفوظ بمكتبة برلين
برقم ٥٠٣١ ، وهو في حجم الثمن الصغير في ١٤٣ ورقة مكتوب بخط نسخي
حديث ، وتاريخ نسخه ٤ شعبان المكرم سنة ١٠٦٠ ، واسم كاتبه الجم (؟)
محمد (محمد الجم) المقرئ (أو المصري)

وهذه المجموعة تحتوى على مختارات مختلفة من كلام الجاحظ ، ولكن
لم يشر فيها إلى عناوين الرسائل التي اختيرت منها ، ومنها ما لا يزال مجهول النسبة

(ط)

إلى ما اختيرت منه من رسائل الجاحظ . وكأن هذه المختارات لم يعن فيها بإعطاء صورة من رسائل الجاحظ ، وإنما عنيت بإعطاء بعض النماذج البليغة من كلامه ، حتى إنها تقتصر في بعض الأحيان على جمل مفردة . ومع هذا فقد كانت قيمتها كبيرة في تصحيح كثير من المواضع وفي تكملة بعض ما سقط من عبارات الجاحظ في سائر مصادرنا

ولم يكن حظ رسائل هذا المجموع واحدا في مصادرنا التي اعتمدنا عليها في نشرها فبينما توفرت للرسالة الأولى أربع مصادر لم تظهر الرسالة الأخيرة إلا بمصدر واحد ، وتوسطت الثانية والثالثة بين الطرفين

والرسالة الأولى ترد في نسخة داماد مرتين بعنوانين مختلفين ، وروایتين مختلفتين أيضا . أما الرواية الأولى فعنوانها : « الأخلاق الحمودة والأخلاق المذمومة إلى محمد بن عبد الملك » ، وقد رمزنا لهذه الرواية بالرمز د كسائر ما جاء في نسخة داماد . وأما الرواية الثانية فعنوانها : « رسالة المعاد والمعاش إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد » ، وقد أشرنا إليها بالرمز هـ

وترد سبعة فصول مختارة من هذه الرسالة في مجموعة المتحف البريطاني التي أشرنا إليها بالرمز م ، كما ترد قطعة واحدة من أولها في مخطوطة برلين التي أشرنا إليها بالرمز ب

وأما الرسالة الثانية وهي رسالة كتمان السر وحفظ اللسان فقد وردت بتمامها في د ، وتوجد قطعة صغيرة من أولها في ب

والرسالة الثالثة وهي رسالة الجد والهزل مصدرها الأصلي نسخة د ، وقد ساعدت في تصحيحها المختارات الواردة في م و ب

وأما الرسالة الرابعة فلم ترد إلا في نسخة د كما قلنا

(ى)

وبعد فهذه هى مصادرنا المباشرة التى رجعنا إليها واعتمدنا عليها فى نشر هذه الرسائل ، وقد اتخذنا من نسخة المصدر الأول لنا ، وقد تحررنا قدر ما ممكن لنا التأمل والمقارنة أن نظفر بالنص الصحيح لعبارة الجاحظ ، بالرغم مما اعتور هذه المخطوطات من تحريف وتشويه وخلط ونقص ، وبالرغم من أننا فى كثير من المواضع لم نظفر بأكثر من أصل واحد وقراءة واحدة ظاهرة الفساد ومع ذلك بقيت فى هذه الرسائل مواضع على فسادها ونقصها لم نوفق إلى تصحيحها ، ولم نجد العون على إقامة عوجها فى أصل آخر أو قراءة أخرى . ولكننا آثرنا أن تظهر هذه الرسائل على ما فيها ، مما فات طوقنا ، فذلك خير من أن تظل حبيسة مقيدة . وما يزال أملنا كبيراً فى أن يُتاح لنا من الوسائل ما يمهّد لنا السبيل إلى تصحيحها ، أو أن تجد من نقد الناقدين ما عسى أن يحل هذه المواضع المغشاة فيها

وأخيراً بقيت لنا كلمة صغيرة فى المنهج الذى أخذنا أنفسنا به فى نشر هذه الرسائل فسيجد القارئ فى هذه النشرة شيئاً لم يألفه ، وهو خلو الصفحات من الأرقام الكثيرة التى تشير إلى القراءات المختلفة ، وهى كثيراً ما تشتت خاطره فى متابعة القراءة فكتفينا بالإشارة إلى الأسطر مع وضع نجمة صغيرة هكذا * قبل الكلمات التى يعلق فى الهامش عليها . وكذلك اقتصدنا فى عبارات التعليق معرضين عن الكلمات الكثيرة التى تعتبر نوعاً من الفضول التى ترد كثيراً فى النشرات العربية ، فوضعنا الرمز المشير إلى المخطوطة بعد الكلمة المشار إليها . فإذا وجدت — مثلاً — فى هامش الصفحة الثانية العبارة الآتية : « (٢) والعالم والجاهل » كان معنى هذا أن العبارة المذكورة هى قراءة نسخة م فى مقابل

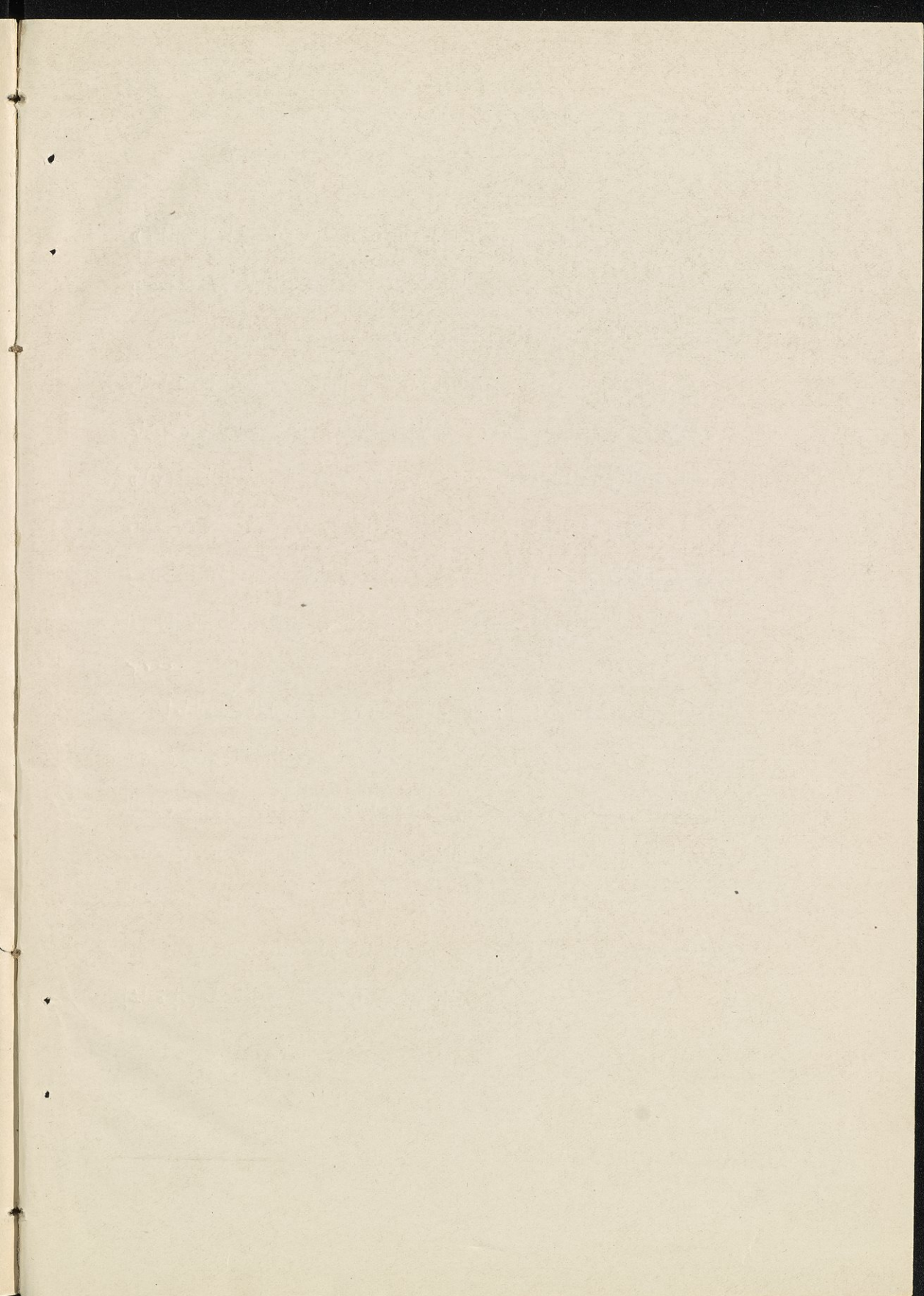
(ك)

« والعلمون والجاهلون » الواردة في السطر الثاني من تلك الصفحة والمشار إليها بنجمة ، وهي قراءة نسخة الأصل ٢٠ وهكذا .

وكذلك اصطلاحنا على استعمال نوعين من الإشارات دلالة على النقص والزيادة وهما قوسان مربعان [] علامة على النقص ، وقوسان مثلثان < > علامة على الزيادة . فإذا وجدت — مثلا — في هامش الصفحة الثانية الإشارة : « (٧) [كلها] م » كان معنى هذا أن الكلمة « كلها » الواردة في السطر السابع والمعلم عليها بنجمة ، وهي قراءة نسخة الأصل ٢٠ ، محذوفة في نسخة م . وإذا وجدت ، بعد هذا التعليق التعليق الآتي : « < تسكد > م ب » فعنى ذلك أن كلمة « تسكد » ناقصة في الأصل ٢٠ وأنها مأخوذة من الروایتين الآخرين م ، ب

أما العبارة الواردة في ص ٦١ : « (١٠) م : [] ٢٠ » فمعناها أن الكلمة « نعم » وضعت في المتن عن نسخة م وإن كانت محذوفة في نسخة ٢٠ . وكذلك العبارة الواردة في ص ٦٣ : « (١٠) < ... > ب : سهمك في صدك ٢٠ » معناها أن الكلمات الواردة في المتن في السطر العاشر بين هاتين العلامتين مأخوذة من نسخة ب ، ناقصة في نسخة ٢٠

وكذلك استعملنا هاتين العلامتين « < > » في ص ٥٠ : ١٢ ، مثلا ، إشارة إلى ما سقط في الأصل واقترحنا إضافته



رسالة المعاد والمعاش

في الأدب وتدير الناس ومُعاملاتهم

كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد

٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- حَفِظَكَ اللَّهُ وَأَبْقَاكَ وَأَمْتَعَ بِكَ . (*) إِنْ جَمَاعَاتِ أَهْلِ الْحِكْمَةِ قَالُوا : وَاجِبٌ
 ٦ عَلَى كُلِّ حَكِيمٍ أَنْ يُحَسِّنَ الْإِرْتِيَادَ لِمَوْضِعِ الْبُغْيَةِ وَأَنْ يَتَبَيَّنَ أَسْبَابُ الْأُمُورِ
 وَيَمَهَّدَ لِعَوَاقِبِهَا . فَإِنَّمَا حَمَدَتِ الْعُلَمَاءُ بِحُسْنِ التَّثَبُّتِ فِي أَوَائِلِ الْأُمُورِ * وَاسْتَشْفَافِهِمْ
 بِعَقُولِهِمْ مَا تَجِبَى بِهِ الْعَوَاقِبُ ، فَيَعْلَمُونَ عِنْدَ اسْتِقْبَالِهَا مَا تَوَوَّلَ بِهِ الْحَالَاتُ فِي
 ٩ اسْتِدْبَارِهَا ، وَبِقُدْرِ تَقَاوُثِهِمْ فِي ذَلِكَ تَسْتَبِينَ فُضَائِلُهُمْ . فَأَمَّا مَعْرِفَةُ الْأُمُورِ

(١-٣) رسالة المعاد . . . أبي دؤاد (وتدبر !) ، وكذلك مخطوطة الموصل
 (< و > في الأدب) : رسالة إلى محمد بن عبد الملك في الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة
 من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ عفى الله عنه (ورقة ٢١ في عنوان الرسالة) ، رسالة
 أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك في الأخلاق المحمودة والمذمومة (ورقة ٢١ *) ، من صدر كتابه في المعاد والمعاش م ، (لا عنوان في ب) . راجع إرشاد
 الأريب لياقوت ج ٦ ، ص ٧٧ : ٢ : « كتاب المعاد والمعاش » — (٥) الحمد لله رب
 العالمين وصلى الله على محمد وعلى جميع المرسلين ، أما بعد فإن جماعات (٥) ، أما بعد فإن جماعات
 م — (٦) وأن يبين (٥) — (٧) واستشرفهم

عند تكشفها وما يظهر من خفياتها ، فذلك أمرٌ يعتدل فيه الفاضل
والمفضول * والعالمون والجاهلون

٣ (*) وإني عرفتك — أكرمك الله — في أيام الحداثة وحيث سلطان
الله * المخلوق للأعراض أغلب على نظرائك وسكر الشباب والحداثة المتحيفين
للدين والمروءة * مستول على لذاتك ، فأختبرت أنت وهم ببسطة المقدرة وحميا
٦ الحداثة * وطول الحداثة ، مع ما تقدمتهم فيه من الوسامة في الصورة والجمال في
الهيئة . وهذه * كلها أسباب * < تكاد > توجب الانقياد للهوى * ولجج من
المهلك لا يسلم منها إلا المنقطع القرين في حمة الفطرة وكمال العقل . فاستعبدتهم
٩ الشهوات حتى أعطوها أزيمة أديانهم وسلطوها على مروءاتهم وأباحوها
أعراضهم ، فآلت بأكثرهم الحال إلى ذل العدم وفقد عز الغنى في
العاجل مع الندامة الطويلة والحسرة في الآجل

١٢ وخرجت نسيج وحدك * أوحدياً في عصرك ، حكمت وكيل الله
عندك — وهو عقلك — على هواك وألقيت إليه أزيمة أمرك ، فسلك بك
* طريق السلامة وأسلمك إلى العاقبة المحمودة ، وبلغ بك من نيل اللذات أكثر *
١٥ مما بلغوا * ونال بك من الشهوات أكثر مما نالوا * وصرفك من صنوف

(١) فذاك — (٢) والعالم والجاهل م — (٣) [وإني] قد عرفتك ب —
[أكرمك الله] ب — (٤) المخلوق للأعراض د — (٥) استولى ب — (٦) وفضل
الحداثة م — (٧) [كلها] م — < تكاد > م ب — (٧-٨) وتلجج في المهلك
< و > لا يسلم م ، ولجج المهلك < التي > لا يسلم ب — (١٠) فآلت بهم ب —
(١١) [والحسرة] في الآجل د — (١٢) أوحدياً في نفسك د م — (١٤) طريق
م ب : طرق د ، سبيل د — اللذات < إلى أكرمها و > أكثر ب —
(١٥) [ونال...نالوا] ب — (١٥) صنوف التمتع د ، صنوف الشهوات ب

النِّعَمِ فِي أَكْثَرِ مَا تَصَرَّفُوا ، وَرَبَّطَ عَلَيْكَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الَّتِي خَوَّلَكَ مَا أَطْلَقَهُ مِنْ
أَيْدِيهِمْ * إِيْشَارُ اللَّهِ وَتَسْلِيْطُهُمُ الْهَوَى عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، * نَخَاضَ بِكَ تِلْكَ
الْجُجَجِ وَاسْتَنْقَذَكَ مِنْ تِلْكَ الْمَعَاطِبِ ، فَأَخْرَجَكَ سَلِيمَ الدِّينِ وَافِرَ الْمَرْوَةِ نَقَى ٣
الْعَرَضِ * كَثِيرِ الْبِرِّ آمِنَ الْجِدَّةِ . وَذَلِكَ سَبِيلُ مَنْ كَانَ مَيْلُهُ إِلَى اللَّهِ أَكْثَرَ
مِنْ مَيْلِهِ إِلَى هَوَاهُ

٦ وَلَمْ أَزَلْ فِي أَحْوَالِكَ تِلْكَ كُلِّهَا بِفَضِيلَتِكَ عَارِفًا وَلَكَ نِعَمُ اللَّهِ عِنْدَكَ غَابِطًا ،
أَرَى ظَوَاهِرَ أُمُورِكَ * الْحَمُودَةِ * فَتَدْعُونِي إِلَى الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْكَ وَأَسْأَلُ عَنْ بَوَاطِنِ
أَحْوَالِكَ فَتَزِيدُنِي رَغْبَةً فِي الْإِتِّصَالِ بِكَ ، أُرْتِيَادًا مَنِّ لِمَوْضِعِ الْخَيْرَةِ فِي الْأُخُوَّةِ ،
وَالْتِمَاسًا لِلْإِصَابَةِ * الْإِصْطِفَاءِ فِي الْمُدَّةِ وَتَخَيَّرًا لِمُسْتَوْدَعِ الرِّجَاءِ فِي النَّائِبَةِ . فَلَمَّا ٩
مَحَضَّتْكَ الْخَبْرَةُ وَكَشَفَتْكَ الْإِبْتِلَاءُ عَنِ الْحَمْدَةِ وَقَضَّتْ لَكَ التَّجَارِبُ
بِالتَّقْدِيمَةِ وَشَهِدَتْ لَكَ قُلُوبُ الْعَامَّةِ بِالْقَبُولِ وَالْحُبَّةِ وَقَطَعَ اللَّهُ عِذْرَ كُلِّ مَنْ
كَانَ يَطْلُبُ الْإِتِّصَالَ بِكَ ، * طَلَبْتُ الْوَسِيلَةَ إِلَيْكَ وَالْإِتِّصَالَ بِحَبْلِكَ ، فَمَتَّ ١٢
بِحُرْمَةِ الْأَدَبِ وَذِمَامِ كَرَمِكَ . * وَكَانَ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عِنْدِي أَنْ جَعَلَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ
— حَفِظَهُ اللَّهُ — وَسَمِعَتِي إِلَيْكَ ، فَوَجَدْتُ الْمَطْلَبَ سَهْلًا * وَالْمَرَادَ مَحْمُودًا ، وَأَفْضَيْتُ
إِلَى مَا يَجُوزُ الْأَمْنِيَّةَ * وَيَفُوتُ الْأَمَلَ . فَوَصَلْتَ إِخَائِي بِمُودَتِكَ وَخَلَطْتَنِي ١٥

(١) تصرفوا < فيه > (٢) إيشار الهوى ، < من > إيشار اللهوم —
[على أنفسهم] م ب — نخاض بهم < سبل > تلك ، نخاض بهم تلك ب —
(٤) كثير البر آمن الجدة ، صححنا : كثير البر من الجدة م ، كثير الثراء من الجدة د ، كثير
الثراء من الحال ب ، كثير الثراء د — (٦) فلم أزل م ، فلم أزل < أبقاك الله >
ب — بنعمة ب — (٧) المحموده < فيك > د — تدعوني د م — (٨) < و >
ارتيدا د — (٩) الاصطفاء : المصطفى ب — وكشف الابتلاء م — (١٠) وقضت
لناب — (١١) [كل] ب — (١٢) طلبنا الوسيلة لك ب — (١٣) فكان ب —
أبا فلان ب — (١٤) [حفظه الله] د م — والمرام ب — (١٥) بفوت الأمل د —
إخائي : رجائي د

- بنفسك وأَسْمَتْنِي* فِي مَرَايِ ذَوِي الْخَاصَّةِ بِكَ ، تَفْضُلًا لَا مَجَازَةً* وَتَطَوُّلًا
لَا مِكَافَأَةً . فَأَمِنْتُ الْخُطُوبَ وَأَعْتَلَيْتُ عَلَى الزَّمَانِ ، وَأَتَّخَذْتُكَ لِلْأَحْدَاثِ عُدَّةً ،
وَمِنْ نَوَائِبِ الدَّهْرِ حِصْنًا مَنِيعًا . فَلَمَّا حُزْتُ الْمُوَاسِسَةَ ، وَتَقَلَّبْتُ مِنْ فَضْلِكَ فِي ٣
صُنُوفِ النِّعْمَةِ ، وَزَادَ بَصَرِي مِنْ مَوَاهِبِكَ* فِي السَّرُورِ وَالْحَبَرَةِ ، أُرِدْتُ خِبْرَةَ
الْمُشَاهَدَةِ فَبَلَوْتُ* أَخْلَاقَكَ ، وَأُمْتَحَنْتُ شَيْئَكَ ، وَعَجَمْتُ مَذَاهِبَكَ عَلَى حِينِ ٦
غَفْلَاتِكَ وَفِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي يَقِلُّ فِيهَا تَحْفُظُكَ ،* أُرَاعِي حَرَكَاتِكَ وَأُرَاقِبُ
مَخَارِجَ أَمْرِكَ* وَنَهْيِكَ ، فَأَرَى* < مِنْ > اسْتِصْغَارَكَ لِعَظِيمِ النِّعْمَةِ الَّتِي تُنْعِمُ
بِهَا وَأُسْتِكْثَارَكَ لِقَلِيلِ الشُّكْرِ مِنْ شَاكِرِيكَ ،* < مَا > أَعْرِفُ ٩
< بِهِ > — * بِمَا قَدْ بَلَوْتُ مِنْ غَيْرِكَ وَمَا قَدْ شَهِدْتُ* لِي بِهِ التَّجَارِبُ — أَنْ
ذَلِكَ مِنْكَ طَبِيعٌ غَيْرُ تَكْلُفٍ . هَيْهَاتَ مَا يَكَادُ ذُو التَّكْلُفِ أَنْ يَخْفَى* عَلَى
الْعُبَاةِ فَكَيْفَ عَلَى مِثْلِي مِنَ الْمُتَصَفِّحِينَ* . فَرَادَتْني الْمُوَاسِسَةُ فَيْكَ رَغْبَةً وَطَوَّلُ ١٢
الْعِشْرَةَ لَكَ مُحِبَّةً ، وَأُمْتِحَانِي أَفَاعِيلَكَ لَكَ تَفْضِيلًا وَبِطَاعَتِكَ دَيْنُونَةً* . وَكَانَ تَمَامُ
شُكْرِي لِرَبِّي وَلِيَّ كُلِّ نِعْمَةٍ وَالْمُبْتَدِئُ بِكُلِّ إِحْسَانٍ ، الشُّكْرُ لَكَ وَالْقِيَامُ
بِمِكَافَأَتِكَ بِمَا أَمَكُنْ مِنْ قَوْلٍ* وَفِعْلٍ . لِأَنَّ* اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَظَّمَ الشُّكْرَ لَهُ ١٥
بِالشُّكْرِ* لِذِي النِّعْمَةِ مِنْ خَلْقِهِ ، وَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُمَا إِلَّا مَعًا ، لِأَنَّ أَحَدَهُمَا دَلِيلٌ

(١) فِي دَوَاعِي الْخَاصَّةِ بِكَ ب — (٢-١) وَتَكَرَّمَا — (٤) وَزَادَ تَصَرُّفِي
فِي مَوَاهِبِكَ م — فِي مَذَاهِبِكَ ب — (٥) [أَخْلَاقَكَ] د — (٦-٧) أُرَاقِبُ حَرَكَاتِكَ
وَأُرَاعِي مَخَارِجَ أَمْرِكَ ب — (٧) < مِنْ > ب : [د د م — النِّعْمَةُ د —
(٨-٩) < مَا > أَعْرِفُ < بِهِ > ب : أَعْرِفُ د م — بِمَا : م أ — (٩) [لِي] د —
(١٠) مِنْكَ عَنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ ب — (١٠-١١) عَلَى أَهْلِ الْغُبَاوَةِ م — (١٢-١٣) وَكَانَ
< مِنْ > تَمَامُ لَدُنِّي < أَنْ سَأَلْتَ اللَّهَ > وَلِيَّ كُلِّ نِعْمَةٍ وَالْمُبْتَدِئُ بِكُلِّ إِحْسَانٍ < الْعَوْنُ
عَلَى > الشُّكْرِ لَكَ د — (١٤) وَعَمِلَ د — اللَّهُ سَبَّحَانَهُ ب — (١٥) لَذَوِي النِّعْمِ ب

على الآخر * وموصول به . فمن ضييع شكر ذى نعمة من الخلق فأمر الله
 ضييع * وبشهادته استخف . * ولقد جاء بذلك الخبر عن الطاهر * الصادق صلى
 الله عليه وسلم فقال : * من لم يشكر للناس لم يشكر الله . ولعمري إن ذلك ٣
 لموجود في الفطرة قائم في العقل ، أن من كفر نعم الخلق كان لنعم الله
 أكفر . لأن الخلق يُعطى بعضهم بعضاً بالكلفة والمشقة وثقل العطية على
 القلوب ، والله يُعطى * بلا كلفة . وهذه العلة جمعت بين الشكر له والشكر ٦
 لنوى النعم من خلقه

فأما وجبت على الحجة * لشكرك * وقطع عذري في مكافأتك ، اعترفتُ
 بالتقصير عن تقضى ذلك . إلا أني بسطت لسانى بتقريظك ونشر محاسنك ، ٩
 موصول * ذلك عندي لأذان السامعين بالاعتراف بالعجز عن إحصائها . وقد
 روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أودع عرفاً فليشكره ،
 فإن لم يمكنه فليشكره ، فإذا نشره فقد شكره وإذا كتمه فقد كفره » (*) ١٢
 ثم قد رأيت أن قد بقي على أمر من الأمور يمكنني فيه برّك * هو عندي
 عتيّد وأنت عنه غير مستغنٍ والمنفعة لك فيه عظيمة عاجلة وآجلة ،
 * إن شاء الله ١٥

(**) ولم أزل — أبقاك الله — بالموضع الذى قد علمت من جمع الكتب

(١) [و] موصول ب — (٢) وبشاهده — [و] لقد ب — (٣-٢) الصادق عليه السلام
 و — فقال < صلى الله عليه وسلم > ، [فقال] ب — من لم يشكر الناس لم يشكر الله
 ب — (٦) بلا كلفة < ولا مشقة > و — (٨) [على] ب — لشكرك ب : بشكرك و ،
 في شكرك و — وقطع ذكرى ب — (١٠) ذلك عندي لأذان السامعين ب : ذلك عندي
 عند السامعين و ، ذلك منى عند السامعين و — (١١) عن النبي ... وسلم ب — (١٣) ثم
 [قد] رأيت و — < و > هو عندي و — (١٥) [إن شاء الله] و

وِدِرَاسَتِهَا وَالنَّظَرِ فِيهَا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ طُولَ دِرَاسَتِهَا إِنَّمَا هُوَ تَصْفُحُ عَقُولِ
 الْعَالَمِينَ وَالْعِلْمُ بِأَخْلَاقِ النَّبِيِّينَ وَذَوِي الْحِكْمَةِ مِنَ الْمَاضِينَ وَالْبَاقِينَ ، مِنْ جَمِيعِ
 ٣ الْأُمَمِ وَكُتِبَ أَهْلَ الْمَلَلِ . فَرَأَيْتُ أَنْ أَجْمَعَ لَكَ كِتَابًا مِنَ الْأَدَبِ جَامِعًا لِعِلْمِ
 كَثِيرٍ مِنَ الْعَادِ وَالْمَعَاشِ ، أَصِفُ لَكَ فِيهِ عِلَلِ الْأَشْيَاءِ وَأُخْبِرُكَ بِأَسْبَابِهَا وَمَا
 اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ مُحَاسِنُ الْأُمَمِ . وَعِلْمْتُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ مَا أَبْرَثَكَ بِهِ وَأَرْجَحِ
 ٦ مَا أَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْكَ . وَكَانَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ اللَّهُ قَسَمَ لَكَ مِنْ
 الْعَقْلِ وَالْفَهْمِ وَرَكَّبَ فِيكَ مِنَ الطَّبَعِ الْكَرِيمِ . وَقَدْ أَجْمَعَتِ الْحِكْمَةُ أَنَّ الْعَقْلَ
 الْمَطْبُوعَ وَالسَّكْرَ الْغَرِيزِيَّ لَا يَبْلُغَانِ غَايَةَ الْكَمَالِ إِلَّا بِمَعَاوَنَةِ الْعَقْلِ الْمَكْتَسَبِ ،
 ٩ وَمَثَلُوا ذَلِكَ بِالنَّارِ وَالْحَطَبِ وَالْمَصْبَاحِ وَالذَّهْنِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْعَقْلَ الْغَرِيزِيَّ
 آتَى وَالْمَكْتَسَبَ مَادَّةً ، وَإِنَّمَا الْأَدَبُ عَقْلٌ غَيْرُكَ تَزِيدُهُ فِي عَقْلِكَ

وَرَأَيْتُ كَثِيرًا مِنْ وَاضِعِي الْأَدَابِ قَبْلِي قَدْ عَهَدُوا إِلَى الْغَابِرِينَ بَعْدَهُمْ فِي
 ١٢ الْأَدَابِ عَهْدًا قَارَبُوا فِيهَا الْحَقَّ وَأَحْسَنُوا فِيهَا الدَّلَالََةَ . إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ أَكْثَرَ
 مَا رَسَمُوا مِنْ ذَلِكَ فِرْعَوًا لَمْ يَبَيِّنُوا عِلْمَهَا وَصِفَاتِ حَسَنَتِ لَمْ يَكْشِفُوا أَسْبَابَهَا وَأُمُورًا
 مَحْمُودَةً لَمْ يَدُلُّوا عَلَى أَصُولِهَا . فَإِنْ كَانَ مَا فَعَلُوا مِنْ ذَلِكَ رَوَايَاتٍ رَوَّوْهَا عَنْ
 ١٥ أَسْلَافِهِمْ وَوَرِثَاتٍ وَرِثَوْهَا عَنْ أَكْبَرِهِمْ ، فَقَدْ قَامُوا بِإِدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَلَمْ يَبْلُغُوا
 فَضِيلَةَ مَنْ يَسْتَنْبِطُ . وَإِنْ كَانُوا تَرَكُوا الدَّلَالََةَ عَلَى أَعْيَانِ الْأُمُورِ الَّتِي بِمَعْرِفَةِ

(٢) النَّبِيِّينَ > صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ < م — (٤) مِنْ < أَمْرٍ > الْعَادِمِ —

(٥) مَا أَبْرَكَ بِهِ > : مَا أَتْرَكَ بِهِ م ، مَا أَسْرَكَ بِهِ > — (٧) مِنَ الْفَهْمِ وَالْعَقْلِ > —

> عَلَى < أَنَّ الْعَقْلَ م — (١١) إِلَى الْغَابِرِ > — (١٢) قَارَبُوا [فِيهَا] > —

(١٤) مَا فَعَلُوهُ [مِنْ ذَلِكَ] > — (١٤-١٥) [رَوَايَاتٍ رَوَّوْهَا عَنْ أَسْلَافِهِمْ وَ] وَرِثَاتٍ

> — (١٦) اسْتَنْبَطَ > — عَلَى عِلَلِ الْأُمُورِ > م — الَّتِي بِمَعْرِفَةِ م : الَّتِي فِي مَعْرِفَةِ

> ، اللَّاتِي عَلَى مَعْرِفَةِ >

عَلَيْهَا يُوصَلُ إِلَى مَبَاشَرَةِ الْيَقِينِ فِيهَا وَيُنْتَهَى إِلَى غَايَةِ الْإِسْتِبْصَارِ مِنْهَا ، فَلَمْ
يَعْدُوا فِي ذَلِكَ مَنْزِلَةَ الضَّنِّ بِهَا . * وَلَنْ تَجِدَ وَصَايَا أَنْبِيَاءِ اللَّهِ * أَبْدَأُ إِلَّا مَبِينَةً
الْأَسْبَابِ مَكْشُوفَةَ الْعِلَلِ مَضْرُوبَةً مَعَهَا الْأَمْثَالُ (*)

فَأَلَفْتُ لَكَ كِتَابِي هَذَا إِلَيْكَ ، وَأَنَا وَاصِفٌ لَكَ فِيهِ الطَّبَائِعَ * الَّتِي رُكِبَ
عَلَيْهَا الْخَلْقُ وَفُطِرَتْ عَلَيْهَا * الْبَرَايَا كُلُّهُمْ ، فَهَمَّ * مُتَسَاوُونَ فِيهَا وَإِلَى وَجُودِهَا
فِي أَنْفُسِهِمْ مُضْطَرُّونَ وَفِي الْمَعْرِفَةِ بِمَا يَقُولُ عَنْهَا مُتَّفِقُونَ . ثُمَّ مُبَيِّنٌ لَكَ كَيْفَ
تَفْتَرِقُ بِهِمُ الْحَالَاتُ وَتَتَفَاوَتْ بِهِمُ الْمَنَازِلُ ، وَمَا الْعِلَلُ الَّتِي يُوجِبُ بَعْضُهَا
بَعْضًا وَمَا الشَّيْءُ الَّذِي يَكُونُ سَبَبًا لِغَيْرِهِ مَتَى كَانَ الْأَوَّلُ كَانَ مَا بَعْدَهُ ، وَمَا
السَّبَبُ الَّذِي لَا يَكُونُ الثَّانِي فِيهِ إِلَّا بِالْأَوَّلِ وَرَبَّمَا كَانَ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَكُنِ الثَّانِي ،
* وَفَرَقَ مَا بَيْنَ الطَّبَعِ الْأَوَّلِ وَبَيْنَ الْاِكْتِسَابِ وَالْعَادَةِ * الَّتِي تُصِيرُ طَبْعًا ثَانِيًا ،
وَلَمْ يَخْتَلَفْ ذَلِكَ وَكَيْفَ دَوَاعِي قُلُوبِ النَّاسِ وَمَا مِنْهَا يَمْتَنِعُونَ مِنْهُ وَمَا مِنْهَا
لَا يَمْتَنِعُونَ مِنْهُ وَمَا أَسْبَابُ نَوَازِعِ شَهَوَاتِهِمْ ، وَمَا الشَّيْءُ الَّذِي يُحْتَالُ * لِقُلُوبِهِمْ
بِهِ حَتَّى تُسْتَمَالَ وَحَتَّى تُؤْنَسَ بَعْدَ الْوَحْشَةِ وَتُسَكَّنَ بَعْدَ الْفَرَارِ ، وَكَيْفَ يُتَأَقَّى
لِيُنْقِضَ مَا فِيهِمْ مِنَ الطَّبَائِعِ الْمَذْمُومَةِ حَتَّى تُصَرَّفَ إِلَى الشِّيمِ الْحَمُودَةِ . وَرَاسِمٌ
لَكَ فِي ذَاكَ أَصُولًا وَمُبَيِّنٌ لَكَ مَعَ كُلِّ أَصْلٍ مِنْهَا عِلَّتُهُ وَسَبَبُهُ

وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ فِي كَثِيرٍ * مِنَ الْحَقِّ مُشْتَبِهَاتٍ لَا تُسْتَبَانُ إِلَّا بَعْدَ * النِّظَرِ
وَالْتَأَمُّلِ . وَهَنَّاكَ * يَحْتَئِلُ الشَّيْطَانُ أَهْلَ الْغَفْلَةِ ، * وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَجِدُ سَبِيلًا إِلَى

(٢) وَلَنْ تَجِدُوا — [أبدأ] — (٤) اللَّائِي رَكِبَ — (٥) الْبَرَايَا كُلُّهَا
— فِيهَا مُسْتَوُونَ — (٧) تَفَرَّقَ — (١٠) وَفَرَقَ مَا بَيْنَ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي وَمَا بَيْنَ
الْاِكْتِسَابِ وَالْعَادَةِ — (١٢) لِقُلُوبِهِمْ بِهِ ، صَحَّحْنَا : لِقُلُوبِهِمْ لَهُ — ، فِيهِ لِقُلُوبِهِمْ —
(١٦) مِنَ الْخَلْقِ — (١٦-١٧) النَّظَرُ [وَالْتَأَمُّلُ] — (١٧) يَخِيلُ الشَّيْطَانُ —
وَذَلِكَ —

اختداعهم عن الأمر الظاهر. (*) فلم أدع من تلك المواضع الخفية موضعاً إلا أقت لك بإزاء كل شبهة دليلاً ومع كل خفي من الحق حجة ظاهرة ، تستنبط بها غوامض البرهان وتستبين بها دقائص الصواب وتستشف بها سرائر القلوب ، فتأتي ما تأتي عن بينة وتدع ما تدع عن خبرة ، ولا يكون بك وحشة إلى معرفة كثير مما يغيبُ عنك إذا عرفت العلل والأسباب ، حتى كأنك مشاهدٌ لضمير كل امرئ ، لمعرفتك بطبعه وما ركب عليه (*) وعوارض الأمور الداخلة عليه . ثم غير راضٍ لك بالأصول حتى أنقصي لك ما بلغه علمي من الفروع . ثم لا أرسم لك من ذلك < إلا > الأمر المعقول في كل طبيعة والموجود في فطرة البرايا كلها . فإن أحسنت ذلك وأقمته على حدوده ونزلته منازلَه ، كان عمرك — وإن قصرت أيامه — طويلاً وفارقت ما لا بد لك من فراقه محموداً ، إن شاء الله

وأعلم أن الآداب إنما هي آلات تصلح أن تستعمل في الدين وتُستعمل في الدنيا ، وإنما وُضعت الآداب على أصول الطبائع ، وإنما أصول أمور التدبير في الدين والدنيا واحدة . فما فسدت فيه المعاملة في الدين فسدت فيه المعاملة في الدنيا ، وكل أمر لم يصح في معاملات الدنيا لم يصح في الدين

وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحكم هاهنا الحكم هناك . ولولا ذلك ما قامت مملكة ولا ثبتت

(١) الأمور الظاهرة — ولن أدع م — (٢) لك < بها > بازاء م — كل شبهة < منها > م ، كل شبهة < منه > م — تستنبط لها م ، يستنبط به م — (٣) دقائق م — وتستشف بها م : وتستشف لها م ، ويستق بها م — (٧) الداخلة فيه م — (٨) [إلا] م — المعقول : لعلها المعقود — (١٠) وانزلته على منزله م — (١١) من مفارقتها م — (١٣) أمر التدبير م — (١٤) فيه [المعاملة] في الدنيا م

دولة ولا استقامت سياسة . ولذلك قال الله عز وجل وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ
 أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا . قال ابن عباس في تفسيرها : مَنْ كَانَ
 ٣ ليس له من العقل ما يعرف به كيف دُبِّرَت أمور الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل
 إلى الدين ، فإنما ينتقل بذلك العقل ، فيقدر جهله في الدنيا يكون جهله بالآخرة
 أكثر ، لأن هذه شاهدة وتلك غيب ، فإذا جهل ما شاهد فهو بما غاب
 عنه أجهل

٦

فأول ما أوصيك به ونفسي تقوى الله ، فإنه جماع كل خير وسبب كل
 نجاة ولقاح كل رشد ، هي أحرز حِرْز وأقوى معين وأمنع جُنَّة ، هي الجامعة
 ٩ * محبة قلوب العباد * والمستقبلة بك محبة من لا تجرى عليهم نِعَمُكَ . فأجعلها
 * عدتك وسلاحك وأجعل أمر الله ونهيه نصب عينيك

وأحذر نفسك الله والاعتزاز به والإدھان في أمره والاستهانة * بعزائمه
 والأمن ليكره . فقد رأيت آثاره في أهل ولايته وعداوته ، كيف جعلهم
 ١٢ للماضين عبرة وللغابرين مثلاً

وأعلم أن خلقه كلهم بريته ، لا * وصلة بينه وبين أحد منهم إلا بالطاعة .
 فأولاهم به أكثرهم تزيّداً في طاعته ، وما خالف هذا فإنه أمانى وغرور . * وقد
 ١٥ مكن الله لك من أسباب المقدرة ومهد لك في تمكين الغنى والبسطة ما لم

(١) قال الله جل ذكره و — (٥) فان جهل و — (٩) قلوب محبة و — والمستقبلة
 بك قلوب من و — نعمتك و — (١٠) عونك و — (١١) [الله و] الاعتزاز به و ، [به]
 و — بعزمته و — (١٢) أثره و — (١٤) وصيله و — (١٥) فقد و —
 (١٦) من و

تُنَحِّلُهُ بِحِيلَةٍ * ولم تُلَقِّنْهُ بِقُوَّةٍ ، لولا فضله وطوله . ولكنه مكنك ليلوا
 خبرك ويختبر شكرك ويحصي سعيك ويكتب أثرك ، ثم يوفيك
 أجرَكَ ويأخذك بما اجتاحت يدك ، أو يعفو فأهل العفو هو . والله ابتلاء ان
 ٣ في خلقه — والابتلاء هو الاختبار — ابتلاء بنعمة وابتلاء بمصيبة . وبقدر
 عظمها يجب التكليف من الله عليها . فبقدر ما خولك من النعمة يستأديك
 الشكر . ولو تقوى الله على خلقه لعذبهم . ولذلك قال وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ
 ٦ بما كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ . ولكنه قبل التوبة وأقال
 العثرة وجعل بالحسنة أضعافها

٩ وأعلم أن الحكم في الآخرة هو الحكم في الدنيا ، ميزان قسط وحكم
 عدل . وقد قال الله تعالى فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ
 خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . وهذا مثل
 ١٢ ضربه الله لأن الناس يعلمون أن لو وضع في إحدى كفتي الميزان شيء ولم يك
 في الأخرى قليل ولا كثير ، لم يكن للوزن معنى يُعقل . وذلك أن أحداً من
 الخلق لا يخلو من هفوة أو زلة أو غفلة ، فأخبر أن من كانت حسناته الراجعة
 ١٥ على سيئاته ، مع الندم على السيئات ، كان على سبيل النجاة وطريق الفوز
 بالإفلاح ، ومن مالت سيئاته بحسناته كان العطب والعذاب أولى به . وكذلك
 حكمه في الدنيا ، لأنه قد تولى أولياء من خلقه وشهد لهم بالعدالة . وقد
 ١٨ عاتبهم في بعض الأمور لغلبة الصلاح في أفعالهم وإن هفوا وتبرأ من آخرين

(١) تنله د — ولم يلقنه د ، ولا بلفه د — (٣) يداك د — (٥) [من الله] د —

(٦) قال < جل ذكره > د — (١٢) يكن د — (١٧) [قد] د

وعاداهم لغلبة الجور* على أفاعيلهم وإن أحسنوا في بعض الأمور . وكذلك
جَرَتْ مُعَامَلَاتُ* الخلق بينهم ، يعدّون العادل* بالغالب من فعله وربما أساء
ويفسّقون الفاسق وربما أحسن . وإنما الأمور بعواقبها وإنما يُقضى على كل*
امرئ* بما شا كل أحواله

فهذه الأمور قائمة في العقول جَرَتْ عليها المعاملة واستقامت بها
السياسة لا اختلاف بين الأمة فيها . فلا تَغِينَنَّ حَظَّكَ من دينك . وإن
استطعت أن تبلغ من الطاعة غايتها فَلِنَفْسِكَ تمهد ، وإلا فأجهد أن يكون
أغلب* أفعالك عليك الطاعة مع الندامة عند الإساءة ويكونَ مِيلُكَ* عند
الإساءة إلى الله أكثر ، والله يوفّقك

اعلم أن الله جلّ ثناؤه خلقَ خلقَه ثم طبعهم على حبّ اجترار المنافع
ودفع المضار* وبُغضٍ ما كان بخلاف ذلك . هذا فيهم طبعٌ مركّبٌ وجيّدٌ
مفطورة ، لا خلاف بين الخلق فيه موجودٌ في الأنس والحيوان ، لم يدع غيره
مدع من الأولين والآخرين . وبقدر زيادة ذلك ونقصانه تزيد الحجة والبغضاء
* < > كزيادته تميل الطبيعة* معها كميل كفتي الميزان * قل ذلك
أو أكثر

١٥

وهاتان جملتان داخلٌ فيهما جميعُ محابّ العباد ومكارههم . والنفس في
طبعها حبّ الراحة والدعة والازدياد والعلوّ والعزّ والغلبة والاستطراف

(١) [في أفعالهم ... لغلبة الجور] د — أفعالهم و — (٢) الناس و —
(٢-٤) [بالغالب ... كل امرئ] و — (٦) تعتبر د — فان و — (٨) أفاعيلك
[عليك] د — ميلك [عند الإساءة] و — (١٠) < و > اعلم و — [حب] اجترار و —
(١١) ونقض من كان د — خلاف و — (١٤) < ... > : سقط في د كما يظهر —
معه و — كثر ذلك أو قل و — (١٦) وهاتان جملتان د

* والتنوقِ وجميع ما تستلذ الحواسُ من المناظر الحسنة والروائح العَبيقة
* والطعوم الطيبة والأصوات المَونقة والملابس اللذيذة ومما كراهته في
طباعهم أصداد ما وصفت لك وخلافه ٣

فهذه الحلالُ التي يجمعها خلَّتْ غرائزُ في الفِطر وكوامِنُ في الطبع ،
جِبلةٌ ثابتة وشِيمة مخلوقة . * على أنها في بعض أكثر منها في بعض ، ولا يعلم
* قدر القلة فيه والكثرة إلا الذي دبرهم . فلما كانت هذه طبائعهم أنشأ لهم ٦
من الأرض أرزاقهم وجعل في ذلك ملاذاً لجميع حواسهم ، فتعلقت به قلوبهم
وتطلعت إليه أنفسهم . فلو تركهم وأصل الطبيعة — مع ما مكن لهم من الأرزاق
المستهانة في طبائعهم — صاروا إلى طاعة الهوى وذهب التعاطف والتباض . ٩
وإذا ذهباً كان ذلك سبباً للفساد وانقطاع التناسل وفناء الدنيا وأهلها .
لأن طبع النفس لا يسلس بعطية قليل ولا كثير مما حوته ، حتى تعوض أكثر
مما تُعطى إما عاجلاً وإما آجلاً مما تستلذه حواسها ١٢

فَعَلِمَ اللهُ أنهم لا يتعاطفون ولا يتواصلون * ولا ينتقدون إلا بالتأديب ، وأن
التأديب ليس إلا بالأمر والنهي ، * وأن الأمر والنهي غير ناجعين فيهم
إلا بالترغيب والترهيب اللذين في * طبائعهم . فدعاهم بالترغيب إلى جنّته وجعلها ١٥
عِوضاً مما تركوا في جنب طاعته ، وزجرهم بالترهيب بالنار على معصيته
وخوفهم بعقابها على ترك أمره . ولو تركهم جل ثناؤه * والطبع الأول جَرَوْا على

(١) التنوق ، صححنا : التلون ٢ و — (٢) والطعم ذو الطيبة ٣ — كراهيته في
طباعها ٤ — (٤) فهذه الحلال التي < وصفت لك > تجمعها ٥ — (٥) إلا أنها ٥ —
(٦) [قدر] القلة [فيه] والكثرة ٥ — (٧) [به] ٢ — (١٣) [ولا ينتقدون] ٥ —
(١٤) [وأن الأمر والنهي] ٢ — [فيهم] ٥ — (١٥) طبائعهم ٥ — (١٦) طاعتهم ٢ —
(١٧) والطباع ٢

سَنَنْ الْفِطْرَةَ * وعادة الشيمة ، ثم أقام الرغبة والرغبة على حدود العدل وموازن النصفة ، وعدلهم تعديلاً متفقاً فقال فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

٣

ثم أخبر الله تبارك وتعالى أنه غير داخل في تدبيره الخلل ولا جائز عنده المحابة ، ليعمل كل عامل على ثقة مما وعده وأوعده . فتعلقت قلوب العباد بالرغبة والرغبة ، فأطرد التدبير واستقامت السياسة ، لموافقها ما في الفطرة وأخذها بمجامع المصلحة

ثم جعل أكثر طاعته فيما تستقل النفوس وأكثر معصيته فيما تلذ . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَالنَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » ، * يخبر أن الطريق إلى الجنة احتمال المكاره والطريق إلى النار اتباع الشهوات . * فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلا بما وصفت لك من الرغبة والرغبة ، فأعجز الناس رأياً وأخطأهم تدبيراً وأجهلهم بموارد الأمور ومصادرها من أمل أو ظن أو رجا أن أحداً من الخلق — فوقه أو دونه — يصلح له ضميره أو يصح له بخلاف ما دبرهم الله عليه فيما بينه وبينهم . فالرغبة والرغبة أصلاً كل تدبير وعليهما مدار كل سياسة عظمت أو صغرت . فأجعلهما مثالك الذي يحتذى عليه ورؤيتك الذي يستند إليه

(١) وعادات — (٤) [الله] — جائزة — (١٠-١١) [يخبر . . . الشهوات]

٢ — (١١) فإذا — (١٢) [لك] — (١٤) أو دونه > أو من يظن أن < يصلح

٢ ، أو دونه يصلح له ضميره بخلاف — (١٥) أصل لكل و

- (*) وأعلم أنك* إن أهملت ما وصفت لك ، عرضت تدبيرك للاختلاط .
 وإن* آثرت الهوينا واتسكت على الكفاية في الأمر الذي لا يجوز فيه
 ٣ إلا نظرك ، وزجيت أمورك على رأى مدخول وأصل غير محكم ، رجع ذلك
 عليك بما لو* حُكِّم فيك عدوك كان ذلك غاية أمنيته وشفاء غيظه
 وأعلم أن إجراءات الأمور مجاريها واستعمالك الأشياء على وجوهها ،
 ٦ يجمع لك ألفة القلوب ويعامل كل من عاملك بمودة* أخذاً وإعطاءً ، وهو
 على ثقة من* بصرك* بمواضع الإنصاف وعلمك بموارد الأمور (*)
 وأعلم أن آثرتك على غير النصيحة والشفقة والحرمة والكفاية* توجب
 ٩ المبالغة وقلة الثقة من آثرته أو آثرت عليه . فأعرف لأهل البلاء ممن
 جرت بينك وبينه مودة أو حرمة — ممن فوقك أو دونك أو نظراءك —
 أقدارهم ومنازلهم ، ثم لتسكن أمورك معهم على قدر البلاء والاستحقاق .
 ١٢ * ولا تؤثر في ذلك أحداً بهوى ، فإن الأثرة على الهوى توجب السخطة وتوجب
 استصغار عظيم النعمة* ويمحق بها الإفضال* وتفسد بها الطائفتان من
 * آثرت ومن آثرت عليه

(١) اعلم م — إذا أهملت م — (٢) آثرت الهوينا على الكفاية التي لا يجوز
 فيها س — على الكفاية في الأمر م — (٣) وركبت أمورك س ، وزجيت أمرك م —
 (٤) حكم < به > فيك س — (٦) أخذاً وإعطاءً ، صححنا : أو أخذاً وإعطاءً س ، وأخذ
 وإعطاءً م ، في أخذ أو إعطاء س — (٧) نصرك س — بمواقع س — (٨) توجب < لك >
 س — (٩) لأهل البلد س — (١١) ثم لم تسكن أمورك معهم بقدر س — (١٢) ولا تؤثر
 في ذلك أحداً بهوى ، صححنا : ولا تؤثر في ذلك أخذ الهوى س ، ولا تؤثر أحداً في ذلك
 بهوى س — (١٣) ويمحق س — وتفسد عليها س — (١٤) آثرته س

أَمَا مَنْ * آثَرَتْ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تُؤْثِرْهُ بِاسْتِحْقَاقِ بَلْ لِهَوًى فَهُوَ مُتَرَقِّبٌ أَنْ
يَنْتَقِلَ هَوَاكَ إِلَى غَيْرِهِ * فَتَحُولُ أَثَرُكَ حَيْثُ مَالَ هَوَاكَ . فَهُوَ مَدْخُولُ الْقَلْبِ
فِي مَوَدَّتِكَ غَيْرُ آمِنٍ لِتَغْيِيرِكَ

٣

وَأَمَّا مَنْ آثَرَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ الْإِسْتِحْقَاقِ مِنْهُ ، فَقَدْ جَعَلَتْ لَهُ السَّبِيلَ إِلَى الطَّعْنِ
عَلَيْكَ وَأَعْطَيْتَهُ الْحُجَّةَ عَلَى نَفْسِكَ . فَكُلُّ مَنْ يَعْمَلُ عَلَى غَيْرِ ثِقَةٍ * عَادَ
مَا أَرَادَ بِهِ النَّفْعَ ضَرَرًا * وَالْإِصْلَاحَ فُسَادًا . وَرَبَّمَا آثَرَ الرَّجُلُ الْمَرْءَ مِنْ إِخْوَانِهِ ٦
بِالْعَطِيَّةِ السَّنِيَّةِ * عَلَى بِلَاءِ أَبْلَاهُ ، فَيُعْظَمُ * قَدْرُهُ عِنْدَهُ ، حَتَّى لَعَلَّهُ تَطْيِبُ نَفْسُهُ بِبَذْلِ
* مَالِهِ وَدَمِهِ دُونَهُ . * فَإِنْ أُعْطِيَ مَنْ أَبْلَى كِبَالَتِهِ وَكَانَتْ لَهُ مِثْلُ * دَالَّتِهِ أَكْثَرَ
مِمَّا أُعْطَاهُ ، انْتَقَلَ * كُلُّ مُجْحُودٍ مِنْ ذَلِكَ مَذْمُومًا وَكُلُّ مُسْتَحْسِنٍ قَبِيحًا . ٩
* وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ فِي الْعُقُوبَةِ يَجْرِيانِ مَجْرَى رَاحِدًا . * فَاجْعَلِ الْعَدْلَ وَالنَّصِفَةَ فِي
النُّوَابِ وَالْعُقَابِ * حَكَمًا بَيْنَكَ وَبَيْنَ إِخْوَانِكَ ، فَمَنْ قَدِّمْتَ مِنْهُمْ فَقَدِّمَهُ
* بِالْإِسْتِحْقَاقِ وَبَصْحَةِ النِّيَّةِ فِي مَوَدَّتِهِ وَخُلُوصِ * نَصِيحَتِهِ مِمَّا قَدْ بَلُوتَ مِنْ ١٢
أَخْلَاقِهِ وَشِيَمِهِ وَعَلِمْتَ بِتَجَرُّبَتِكَ لَهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ صَلَاحَهُ مُوَصُولٌ بِصَلَاحِكَ
وَعَطْبُهُ كَأَنَّ * مَعَ عَطْبِكَ . فَفَوِّضِ الْأَمْرَ إِلَيْهِ وَأَشْرِكْهُ فِي خَوَاصِّ * أُمُورِكَ
وَخَفِيْ أَسْرَارِكَ . ثُمَّ أَعْرِفْ لَهُ قَدْرَهُ فِي مَجْلِسِكَ * وَمُحَاورَتِكَ * وَمُعَامَلَتِكَ ، فِي ١٥
كُلِّ حَالَاتِكَ وَمُزَاولَاتِكَ ، فِي خَلَوَاتِكَ مَعَهُ * وَبِحَضْرَةِ جُلُوسَاتِكَ . فَإِنَّ ذَلِكَ

(١) آثَرَتْهُ — (٢) فَتَحُولُ — (٥) حَالٌ مَا أَرَادَ — (٦) وَالْإِصْلَاحَ <فِيهِ>

فُسَادًا — (٧) بِلَاءُ — فَيُعْظَمُ قَدْرُهُ — (٨) مَالُهُ وَنَفْسُهُ — فَاِنْ <مِنْ>

أُعْطِيَ — دَالَّتُهُ — (٩) كُلُّ مَذْمُومٍ مِنْ ذَلِكَ مُجْحُودٌ — مُسْتَحْسِنًا —

(١٠) وَكَذَلِكَ ذَلِكَ — وَاجْعَلِ — (١١) حَاكِمًا — (١٢) عَلَى الْإِسْتِحْقَاقِ

بِصَحَّةٍ — نَصِيحَتِهِ <لَكَ> مَنْ قَدْ بَلُوتَ فِي أَخْلَاقِهِ — (١٤) أَمْرِكَ —

(١٥) وَمُحَادَثَتِكَ — (١٥-١٦) [وَمُعَامَلَتِكَ . . . مَعَهُ] د

زيادةً في نيته وداعيةً لمن دونه إلى التقرب إليك بمثل نصيحته . (*) فإن
 ابتليت في بعض الأوقات بمن يتقرب بحرمة ويمت بدالة ، يطلب المكافأة
 ٣ بأكثر مما يستوجب ، فدعك الكرم والحياء إلى تفضيله على من هو أحق
 منه ، إما خوفاً من لسانه أو مُداراةً لغيره ، فلا تدع الاعتذار إلى من
 فوقه من أهل البلاء والنصيحة وإظهار ما أردت من ذلك لهم . فإن أهل
 ٦ خاصتك والمؤمنين على أسرارك ، هم شركاؤك في العيش ، فلا تستهين
 بشيء من أمورهم . فإن الرجل قد يترك الشيء من ذلك أتكلاً على حسن
 رأى أخيه ، فلا يزال ذلك يجرح في القلب وينمو ، حتى يولد ضغناً ويحول
 ٩ عداوة . فتحفظ من هذا الباب واحمل إخوانك عليه بجهدك

وستجد فيمن يتصل بك من يغلبه إفراط الحرص وحمياً الشره . ولين
 جانبك له ، على أن ينقم العافية ويطلب الحقوق بمنازل من ليس مثله
 ١٢ ولا له مثل دالته ، فتلقاه لما تصنع به مستقلاً ولمعروفك مستصغراً . وصالح
 من كانت هذه حاله بخلاف ما فسد عليه أمره . فاعرف طرائقهم وشيمهم ،
 وداو كل من لا بد لك من معاشرته بالدواء الذي هو أنجع فيه : إن لنا فليناً ،
 ١٥ وإن شدة فشدة . فقد قيل في المثل :

مَنْ لَا يُؤَدِّبُهُ الْجَمِيلُ فِي عُقُوبَتِهِ صَلَاحُهُ (*)

(١) زائد في نيتك وداع - (٢) بليت - يضرب - (٣) [والحياء] -
 [هو] - (٤) تخوفاً - من < هو > فوقه م - (٦) فلا تستهين ،
 لا تستهين م - (٨) كذلك م - وينى - (١٠) من يتصل بك ممن د ، من
 يتصل بك ممن م - من يعطيه - (١١) اللحاق - من ليس < هو > مثله -
 (١٢) تصنع [به] مستقلاً

- وقال بعض الحكماء : ليس بحكيم من لم يُعَاشِرَ مَنْ لا يَجِدُ مِنْ مُعَاشِرَتِهِ
بَدَأًا بِالْعَدْلِ وَالنِّصْفَةِ ، حتى يجعل الله له من أمره فرجًا ومخرجًا
- ٣ فأحفظ هذه الأبواب التي يوجب بعضها بعضًا . وقد ضمنت لك أوائلها
كونَ أو آخرها ، فاعرفها واقتبسها ، وأعلم أنه متى كان الأول منها وجب
ما بعده لا بُدَّ منه . فأحذر المقدمات التي يعقبها المكروه ، وأحرص على توطيد
الأمور التي على أثرها السلامة ، * وألقح في البدئ أمورًا * نتاجها العافية . فمن
الأمور التي يوجب بعضها بعضًا : المنفعة توجب المحبة والمضرة توجب
البغضاء والمضادة توجب العداوة ، وخلاف الهوى يوجب الاستئصال * ومتابعته
توجب الألفة ، والصدق يوجب الثقة والكذب يورث * التهمة والأمانة
توجب الطمأنينة ، والعدل يوجب اجتماع القلوب والجور يوجب الفرقة ،
وحسن الخلق يوجب المودة وسوء الخلق يوجب المباعدة ، والانبساط
يوجب المؤانسة والانتقاص يوجب الوحشة ، * والكبر يورث
١٢ المقت والتواضع يوجب المقة ، * والجود بالقصد يوجب الحمد والبخل يوجب
المذمة ، والتواني يوجب التضييع والجِدُّ يوجب رخاء الأعمال ، والهويينا
تورث الحسرة والخزم يورث السُرور ، والتغير يورث الندامة والحذر
١٥ يوجب العذر وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة ، والاستهانة توجب
التباعى والتباعى مقدمة الشر وسبب البوار

(١) وقد قال د — (٢-١) من لا بدله من معاشرته د — (٢) له [من أمره]
فرجاً [ومخرجاً] د — (٣) واحفظ د — [لك] د — (٤) فاعرفها [واقتبسها]
(٦) والصح في بدئ الأمور التي د — نتاجها د — (٨) والمتابعة د — (٩) التهمة د —
(١١) التباعد د — (١٢) موضع أكلة في د — وكأنها « والتكبر » — يوجب د —
(١٣) والجود والفضل يوجبان د — (١٤) [الأعمال] د — (١٥) يورث د —
(١٦) [إصابة التدبير توجب بقاء النعمة] د — (١٧) مقدمات د

ولكل شيء من هذه إفراط وتقصير . وإنما تصح نتائجها إذا أقيمت على حدودها . وبقدر ما يدخل من الخلل فيها يدخل فيما يتولد منها ، لا بد منه ولا مزحل عنه ، عليه عادة الخلق وبه جرت طبائعهم ، وتماثل المنفعة بها إصابة مواضعها . فالإفراط في الجود يوجب التبذير ، والإفراط في التواضع يورث المذلة ، والإفراط في الكبر يدعو إلى مقت الخاصة ، والإفراط في المؤانسة يدعو خلطاء السوء ، والإفراط في الانقباض يوحش إذا النصيحة ، وآفة الأمانة ائتمان الخانة ، وآفة الصدق تصديق الكذبة ، والإفراط في الحذر يدعو إلى أن لا يوثق بأحد وذلك ما لا سبيل إليه ، والإفراط في المضرة مبعثة على حربك ، والإفراط في جر المنفعة غنا لمن أفرطت في نفعه عنك .

وأحذر كل الحذر أن يخذلك الشيطان عن الحزم ، فيمثل لك التواني في صورة التوكل ويسلبك الحذر ويورثك الهوينا بإحالتك على الأقدار . فإن الله إنما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم للقضاء بعد الإعذار . بذلك أنزل كتابه وأمضى سنته ، فقال خذوا حذركم ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة . وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « إعلوها وتوكل » . وسئل ما الحزم ؟ قال الحذر . فتحفظ من هذا الباب وأحكم معرفته إن شاء الله تعالى

(١) من هذا — (٤) النعمة — موضعها — (٥) يوجب — يدعو العقب — (٦) والإفراط في — الحذر يدعو إلى أن لا يثق بأحد — الانقباض — (٧) ذوى النصيحة — الاثمان — (٨) يدعو [إلى] ألا يثق — (٩) [والإفراط في المضرة ... حربك] — (١١) يخذلك — الحرص — (١٣) فإن الله — وجل — (١٥) [وآله] —

وأعلم أن أكثر الأمور إنما هو على العادة وما تضرى عليه النفوس ،
ولذلك قالت الحكماء : العادة أملك بالأدب . فرُضْ نفسك على كل أمرٍ
محمود العاقبة وضرّها بكلّ ما لا يُدْمُ من الأخلاق ، يَصِرْ ذلك ٣
طبعًا وينسب إليك منه أكثر مما أنت عليه

وأعلم أن الذى يُوجب لك اسم الجود القيام بواجب الحقوق عند
النوائب مع بعض التفضل على الراغبين ، وإذا وجب لك اسم الجود زال ٦
عنك اسم البخل

وأعلم أن تسمير المال آلة للمكارم وعون على الدين ومُتَأَلَّفٌ للإخوان ،
وأن من قد فقد المال قلّت الرغبة إليه والرهبة منه ، ومن لم يكن بموضع ٩
رغبة ولا رهبة استهان الناس به . فأجهد الجهد كله ألا تزال القلوب معلقة
منك برغبة أو رهبة في دين أو دنيا

وأعلم أن السرف لا بقاء معه لكثير ولا تسمير معه لقليل ولا تصلح ١٢
عليه دنيا ولا دين . وتأدّب بما أدّب الله نبيه فقال ولا تجعل يدك مغلولة
إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا . وقالت الحكماء :
القصْدُ أبقي للجِسام . فداوم حالك وبقاء النعمة عليك بتقدير أمورك على قدر ١٥
الزمان بقدر الإمكان . فقد قال الشاعر

من سابق الدهر كتباً كَبُوءَ لم يستقلها من خطى الدهر

(١) هي ٥ — (٣) ورضها ٥ — الاخلاص بصير ٥ — (٤) طبعا ٥ — (٩) و[أن]
من [قد] فقد ٥ — (١٠) بقدره ٥ — (١١) ورهبة ٥ — (١٣) وتأديب الله فيه ما أدب
به نبيه صلى الله عليه وسلم ٥ — (١٥) أمرك ٥ — (١٦) وبقدر ٥

- فَأَخْطُ مَعَ الدَّهْرِ إِذَا مَا خَطَا وَأَجِرَ مَعَ الدَّهْرِ كَمَا يَجْرَى
وَأَعْلَمُ أَنَّ الصَّمْتَ فِي مَوْضِعِهِ رَبَّمَا كَانَ أَنْفَعُ مِنَ الْإِبْلَاحِ بِالْمَنْطِقِ
٣ فِي مَوْضِعِهِ وَعِنْدَ إِصَابَةِ فُرْصَتِهِ ، وَذَلِكَ صَمْتُكَ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تَصْمُتْ
عَنْهُ عِيًّا وَلَا رَهْبَةً . فَلْيَزِدْكَ فِي الصَّمْتِ رَغْبَةً مَا تَرَى مِنْ كَثْرَةِ فُضَاحِ
الْمُتَكَلِّمِينَ فِي غَيْرِ الْفُرْصِ وَهَذَرِ مَنْ أَطْلَقَ لِسَانَهُ بِغَيْرِ حَاجَةٍ
٦ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْجَبْنَ جُبْنَانِ وَالشَّجَاعَةَ شَجَاعَتَانِ ، وَلَيْسَ تَكُونُ الشَّجَاعَةُ
وَالْجَبْنَ إِلَّا فِي كُلِّ أَمْرٍ لَا يُدْرَى مَا عَاقِبَتُهُ يُخَاطَرُ فِيهِ بِالْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ .
فَإِذَا أَرَدْتَ الْحَزْمَ فِي ذَلِكَ فَلَا تَشْجَعَنَّ نَفْسُكَ عَلَى أَمْرٍ أَبَدًا إِلَّا وَالَّذِي تَرْجُو
٩ مِنْ نَفْعِهِ فِي الْعَاقِبَةِ أَعْظَمُ مِمَّا تَبْذُلُ فِيهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، ثُمَّ يَكُونُ الرَّجَاءُ فِي
ذَلِكَ أَغْلَبَ عَلَيْكَ مِنَ الْخَوْفِ . وَهَاهُنَا مَوْضِعٌ يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى النَّظَرِ : فَإِنْ كَانَ
ذَلِكَ أَمْرًا وَاجِبًا فِي الدِّينِ أَوْ خَوْفًا لِعَارٍ تُسَبُّ بِهِ الْأَعْقَابُ فَأَنْتَ مَعذُورٌ
١٢ بِالْمُخَاطَرَةِ فِيهِ بِنَفْسِكَ وَمَالِكَ . وَإِنْ كَانَ أَمْرًا تَعْظُمُ مَنَفَعَتُهُ لِلدُّنْيَا إِلَّا أَنَّكَ
لَا تَنَالُهُ إِلَّا بِالْخِطَارِ بِمُهْجَةِ نَفْسِكَ أَوْ بِتَعْرِيزِ كُلِّ مَالِكَ لِلتَّلَفِ ، فَالْإِقْدَامُ
عَلَى مِثْلِ هَذَا لَيْسَ بِشَجَاعَةٍ وَلَكِنْ حِمَاقَةٌ بَيِّنَةٌ عِنْدَ جَمِيعِ الْحُكَمَاءِ . وَقَدْ قَالَتْ
١٥ عُلَمَاءُ أَوَائِلِ النَّاسِ : لَا تُرْسِلِ السَّاقَ إِلَّا مُمَسَّكًا سَاقًا . وَقَالُوا : لَا تُخْرِجِ الْأَمْرَ
كُلَّهُ مِنْ يَدِكَ وَخُذْ بِأَحَدِ جَانِبَيْهِ . ثُمَّ الشَّجَاعَةُ وَالْجَبْنَ فِي ذَلِكَ بِقَدْرِ الْحَالَاتِ
وَالْأَوْقَاتِ

- ١٨ وَأَعْلَمُ أَنَّ أَصْلَ مَا أَنْتَ مُسْتَظْهَرٌ بِهِ عَلَى عَدُوِّكَ ثَلَاثُ خِلَالٍ : أَشْرَفُهَا أَنْ

(١) عَلَى مَا خَطَا — (٣) فِي < غَيْرِ > مَوْضِعِهِ — (٤) [كَثْرَةُ] —
(٥) حَاجَتُهُ — (٦) وَلَيْسَتْ الشَّجَاعَةُ — (٩) مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ — (١٠-٩) الرَّجَاءُ
أَعْظَمُ ذَلِكَ — (١٢) فِي الْمَخَاطَرَةِ — أَمْرٌ — (١٥) عُلَمَاءُ الْأَوَائِلِ — مُمْسِكٌ —

تأخذ عليه بالفضل وتبتدئه بالحُسن ، فتكون عليه رَحمةٌ ولنفسك نازراً ،
 فإن كثرة الأعداء تنغيصُ للسرور . وقد قال الله تبارك وتعالى أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ
 أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . فإن كان عدوك ٣
 ممن لا يصلح على ذلك ، فحُصِّنْ عنه أسرارَكَ وعمِّ عليه آثارَ تدبيرك ولا
 يطلعن على شيء من مكائيدك له بقول ولا فعل ، فإخذ حذرَه ويعرف
 مواضع عوارك . فإن تحصين الأسرار أخذٌ بأزمة التدبير ٦ وإكثار الوعيد
 للأعداء فشلٌ ، ولكن داجِ عدوك ما دأجاك وأحصِ معايبه ما لاحاك .
 وقال الشاعر :

كلُّ يُداجي على البغضاء صاحبه زَكِنتُ منهم على مثل الذي زَكِنُوا ٩
 وأعلم أن أعظم أعوانك عليه الحججُ ثم الفرصة . ثم لا تُظهرن عليه
 حُجةً ولا تهتبل منه غيرةً ولا تطلبن له عثرةً ولا تهتكن له سِتراً ، إلا
 عند الفرصة في ذلك كله وفي المواضع التي يجب لك فيها العذرُ ويعظم فيها ١٢
 ضرره . هذا إن كان الغفوة عنه شراً له . وإن كان ممن يُظهر لك
 العداوة ويكشف لك قناع الحاربة وكان ممن أعياك استصلاحه بالحلم
 والأناة ، فلتكن في أمره بينَ حالين : استبطان الحذر منه والاستعداد ١٥
 له ، وإظهار الاستهانة به . ولست مستظهِراً عليه بمثل طهارتك من
 الأُدناس وبراءتك من المعايب . فلتكن هذه سيرتك في أعدائك

(٤) [آثار] د — (٥) مكائيدك د — (٦) والاكثار من الوعيد للأعداء د —

(٧-٩) [ما لاحاك . . . زكِنُوا] د — (١٠) [ثم الفرصة] د — (١١) [إلا]

د — (١٥) استظهار د

وَأَعْلَمُ أَنَّ إِشَاعَةَ الْأَسْرَارِ فَسَادٌ فِي كُلِّ وَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ * مِنَ الْعَدُوِّ
وَالصَّدِيقِ . وَقَدْ رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ « اسْتَعِينُوا عَلَى
الْحَوَائِجِ بِسِتْرِهَا ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مُحْسُودٌ » ٣

* وَإِذَا أَفْشَيْتَ سِرَّكَ فِجَاءَتِ الْأُمُورُ عَلَى غَيْرِ مَا تُقَدَّرُ كَانَ ذَلِكَ مِنْكَ
فَضْلًا مِنْ قَوْلِكَ عَلَى فَعْلِكَ * . وَقَدْ قِيلَ فِي الْأَمْثَالِ : مَنْ أَفْشَى سِرَّهُ كَثُرَ
* التَّائِمَرُونَ عَلَيْهِ . * فَلَا تَضَعْ سِرَّكَ إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَضُرُّهُ * نَشْرُهُ كَمَا يَضُرُّكَ وَيَنْفَعُهُ
* سِتْرُهُ بِحَسَبِ مَا يَنْفَعُكَ ٦

وَأَعْلَمُ أَنَّكَ تَسْتَصْحِبُ مِنَ النَّاسِ أَجْنَاسًا مُتَفَرِّقَةً حَالَاتُهُمْ مُتَفَاوِتَةٌ
٩ مَنَازِلُهُمْ ، * وَكُلُّهُمْ بِكَ إِلَيْهِ حَاجَةٌ وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَسُدُّ عَنْكَ كَثِيرًا مِنَ الْمَنَافِعِ
لَا تَقُومُ بِهِ مَنْ فَوْقَهَا ، وَلَعَلَّهُمْ يَجْتَمِعُونَ عَلَى نَصِيحَتِكَ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكَ . فَمِنْهُمْ
مَنْ تَرِيدُ مِنْهُ الرَّأْيَ وَالْمَشُورَةَ * وَمِنْهُمْ مَنْ تَرِيدُ لِلْحِفْظِ وَالْأَمَانَةِ * وَمِنْهُمْ مَنْ
١٢ تَرِيدُ لِلشَّدَّةِ وَالْغَلْظَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَرِيدُ لِلْمِهْنَةِ ، وَكُلُّ يَسُدُّ مَسَدَّهُ عَلَى حِيَالِهِ .
وَقَدْ قِيلَ فِي الْحِكْمَةِ : إِنَّ الْخِلَالََ تَنْفَعُ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ السَّيْفُ . وَلَا تُخْلِنُ
أَحَدًا مِنْهُمْ — عَظُمَ قَدْرُهُ أَوْ صَغُرَتْ مَنَزِلَتُهُ — مِنْ عِنَايَتِكَ وَتَعَهُّدِكَ ، بِالْجُزْءِ
١٥ * عَلَى الْحَسَنَةِ وَالْمَعَانِبَةِ عِنْدَ الْعَثَرَةِ ، لِيَعْلَمُوا أَنََّّهُمْ مِنْكَ بِمَرَأًى وَمُسَمْعٍ . ثُمَّ
لَا تَجُوزُنَّ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ حَدًّا وَلَا تُدْخِلْهُ فِيمَا لَا يَصْلُحُ لَهُ ، يَسْتَقِمُّ لَكَ
حَالُهُ * وَيَتَّسِقُ لَكَ أَمْرُهُ

(١) وَالْعَدُوُّ — (٤-٥) [وَإِذَا أَفْشَيْتَ . . . عَلَى فَعْلِكَ] د — (٥) فِي
< مِثْلَ مَنْ > الْأَمْثَالُ د — (٦) التَّائِمَرُونَ د — وَلَا د — [نَشْرُهُ] د — (٧) نَشْرُهُ
د — (٨) أَصْنَافًا د — (٩) [و] كَلِّهِمْ د — (١١) [وَمِنْهُمْ . . . وَالْأَمَانَةُ] د —
(١٤) [مِنْهُمْ] د — (١٥) عِنْدَ د — (١٧) يَتَّفَقُ د

وأعلم أن سيمر بك في معاملات الناس حالات تحتاج فيها إلى مُدارة
 أصناف الناس وطبقاتهم ، يبلغ بك غاية الفضيلة فيها وكال العقل والأدب
 منها ، أن تسالم أهلها وتملك نفسك عن هواها وتكف عن جماعها ، ^٣ بأمر
 لا يُخرجك في دينك ولا عريضك ولا بدنك ، بل يفيدك عن الحلم وهيبة
 الوقار . وهي أمور مختلفة تجمعها حال واحدة : منها أن تأتي محفلاً فيه جمع
 من الناس ، فتجلس منه دون الموضع الذي تستحقه ، حتى يكون أهله الذين
 يرفعونك فتظهر جلالتك وعظم قدرك . ومنها أن يفيض القوم في حديث
 عندك منه مثل ما عندهم أو أفضل ، فيتنافسون في إظهار ما عندهم . فإن
 نافستهم كنت واحداً منهم ، وإن أمسكت اقتصوك ذلك ، فصرت كأنك
 ممتن عليهم بحديثك ، وأنصتوا لك ما لم ينصتوا لغيرك . ومنها أن يتماهى
 جلساؤك ، والمراه نتائج اللجاجة وثمره أصلها الحمية ، فإن ضبطت نفسك كان
 تحاكمهم إليك ومعوهم عليك ^{١٢}

وأعلم أن طبع النفوس — إذ كان على حب العلو والغلبة — أن
 في تركيبها بغض من استطال عليها . فاستدع محبة العامة بالتواضع ومودة
 الأخلاء بالموانسة والاستشارة والثقة والطمأنينة ^{١٥}

وأعلم أن الذي تعامل به صديقك هو ضد ما تعامل به عدوك ، فالصديق
 وجه معاملته المسالة والعدو وجه معاملته المدارة والمواربة ، والمسالة والمدارة

(١) أنه — مع معاملات — (٢) اختلاف — (٣) لعل الصواب : وتكف
 من — (٣-٤) بالأمر الذي لا — (٤) عن — (٥) جماعة — (٦) [الذين]
 — (١٠) تمارى — (١٣) إذ كان ، صحنا : إن كان — ، إذا كان —
 (١٧) [والمواربة] — [والمسالة والمدارة] —

هما ضِدَّانِ يَتَنَافِيَانِ * يُفْسِدُ هَذَا مَا أَصْلَحَ هَذَا * ، وكلما نقصتَ من أحدِ البابينِ زَادَ في صاحبه ، إنَّ قَلِيلٌ قَلِيلٌ وإنَّ كَثِيرٌ كَثِيرٌ . فلا تَسْلَمْ بِالْمَوَارِبَةِ صَدَاقَةٌ * وَلَا تَنْظُرْ بِالْعَدُوِّ مَعَ الْإِسْتِسْلَامِ إِلَيْهِ . فَضَعِ الثِّقَةَ مَوْضِعَهَا وَأَقِمِ الْحَذَرَ مُقَامَهُ وَأَسْرِعْ إِلَى التَّفَهُّمِ بِالثِّقَةِ * وَلَا تَبَادِرْ إِلَى التَّصَدِيقِ وَلَا سِيَّاهُ بِالْحَالِ مِنَ الْأُمُورِ

وَأَعْلَمْ أَنَّ كُلَّ عِلْمٍ بِغَائِبٍ — كَأَنَّ مَا كَانَ — إِنَّمَا يُصَابُ مِنْ وَجْهِهِ ثَلَاثَةٌ لَا رَابِعَ لَهَا ، وَلَا سَبِيلَ لَكَ وَلَا لغيرِكَ إِلَى غَايَةِ الْإِحَاطَاتِ لَا سِتْثَارَ اللَّهِ بِهَا . وَلَنْ تَهْنَأَ بَعِيشٍ مَعَ شِدَّةِ التَّحَرُّزِ وَلَنْ يَتَسَّقَ لَكَ أَمْرٌ مَعَ التَّضْيِيعِ . فَأَعْرِفْ أَقْدَارَ ذَلِكَ

فَمَا غَابَ عَنْكَ مِمَّا قَدْ رَأَى غَيْرُكَ * مِمَّا يُدْرِكُ بِالْعِيَانِ ، فَسَبِيلُ الْعِلْمِ بِهِ الْأَخْبَارُ الْمُتَوَاتِرَةُ الَّتِي يَحْمِلُهَا الْوَلِيُّ وَالْعَدُوُّ وَالصَّالِحُ وَالطَّالِحُ الْمُسْتَفِيزَةُ فِي النَّاسِ ، فَتِلْكَ لَا كُفْلَةَ عَلَى سَامِعِهَا مِنَ الْعِلْمِ بِتَّصَدِيقِهَا . فَهَذَا الْوَجْهُ يُسْتَوَى فِيهِ الْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ

وَقَدْ يَجِيءُ خَبْرٌ أَخْصَصَ مِنْ هَذَا ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِالسُّؤَالِ عَنْهُ وَالْمُفَاجَأَةِ لِأَهْلِهِ . كَقَوْمٍ نَقَلُوا خَبْرًا ، وَمِثْلُكَ يَحِيطُ عَلَيْهِ أَنَّ مِثْلَهُمْ فِي تَفَاوُتِ أَحْوَالِهِمْ وَتَبَاعُدِهِمْ مِنَ التَّعَارُفِ لَا يُمْكِنُ فِي مِثْلِهِ التَّوَاطُّؤُ ، وَإِنْ جَهِلَ ذَلِكَ أَكْثَرُ النَّاسِ . وَفِي مِثْلِ هَذَا الْخَبَرِ يَمْتَنَعُ الْكَذِبُ وَلَا يَتَهَيَّأُ الْإِتِّفَاقُ فِيهِ عَلَى الْبَاطِلِ

(١) صلاح هذا ما أفسد هذا — وكلما نقص من أحدهما — (٢) بالمداورة —
 (٣) فلا — (٤) مكانه — ولا تبادرن — (٦) [بغائب] — (٧) غايات —
 (١٠) [مما يدرك] — (١٤) أصح — (١٥) فعلوا خيرا — وعلمك يحيط —
 (١٦) لا يكون — (١٧) يشنع —

وقد يحىء خبرٌ أخصُّ من هذا يحمله الرجلُ والرجلان ممن يجوز
أن يصدقَ ويجوز أن يكذب . فصدقُ هذا الخبر في قلبك إنما هو بحسنِ
الظنِّ بالمخبرِ والثقةِ بعدالته . ولن يقومَ هذا الخبر من قلبك ولا قلبَ غيرك ٣
مقامَ الخبرين الأولين . ولو كان ذلك كذلك بطلَ التصنُّع بالدين واستوى
الظاهرُ والباطنُ من العالمين

ولما أن كان موجوداً في العقول أنه قد يُفتشُ بعضُ الأمناء عن ٦
خيانةٍ وبعضُ الصادقين عن كذبٍ ، وأنَّ مثلَ الخبرين الأولين لم يتعقب
الناسُ في مثلهما كذباً قط ، عُلِمَ أنَّ الخبرَ إذا جاء من مثلهما جاء بحجىء
اليقين ، وأنَّ ما عُلِمَ من خبر الواحد فإنما هو بحسنِ الظنِّ والائتمان . هذه ٩
الأخبارُ عن الأمور التي تدركها الأبصارُ

فأما العلمُ بما غابَ ممَّا لا يدركه أحدٌ بعيانٍ ، مثلُ سرائرِ القلوب وما
أشبهها ، فإنما يدركُ علمُها بآثارِ أفعالِها وبالغالبِ من أمورِها على غير ١٢
إحاطةٍ كإحاطة الله بها

وأوَّلُ العلمِ بكلِّ غائبِ الظنون . والظنونُ إنما تقعُ في القلوبِ بالدلائل ،
فكلُّما زاد الدليلُ قوَى الظنِّ حتَّى ينتهى إلى غايةٍ تزولُ معها الشُّكوكُ عن ١٥
القلوبِ ، وذلك لِكَثْرَةِ الدلائلِ ولترادفها

(١) < لا > يجوز ٥ - (٣) [الخبر] ٥ - (٤) الأولين < أبداً > ٥ -

(٧) أو مثل ٥ - (٨) على ٥ - محيىء ٥ - على اليقين ٥ - (٩) بهذه ٥ -

(١٢) وبالغالب ٥ - (١٤) وأوائل ٥ - (١٦) [ولترادفها . . . الغائبة] ٥

فهذا غاية علم العباد بالأمور الغائبة* . (*) فمن عَرَفَ ما طُبِعَ عليه الخلقُ وجرت به عاداتهم وعَرَفَ أسبابَ اتِّصالِهِم واتِّصالِهِ بِهِمْ وتَقَيَّ عِلَلُ ذلك ، كان خَلِيقًا — إن لم يُحِطْ بعِلْمِ ما في قُلُوبِهِمْ — أن يقعَ مِنَ الإِحاطَةِ قَرِيبًا

(**) وأَعْلَمُ أَنَّ المَقادِيرَ رَجَبًا جَرَتْ بِخِلَافِ ما يُقَدَّرُ الحُكَماءُ ، فَنالَ بِها الجاهِلُ في نَفْسِهِ الخِطْلُ في تَدْيِيرِهِ ، ما لا يَنالُ الحازِمُ الأَرِيبُ الحَذِرُ . فلا يَدْعُوكَ ما تَرى مِنَ ذلكَ إلى التَّضْييعِ والاتِّكالِ على مِثْلِ تلكِ الحالِ ، فَإِنَّ الحُكَماءَ قَدِ أَجْمَعَتْ أَنَّ مَنْ أَخَذَ بِالْحَزَمِ وَقَدَّمَ الحَذَرَ ، نَجَّاتِ المَقادِيرُ بِخِلَافِ ما قَدَّرَ ، كانَ عِنْدَهُم أَحمَدُ رَأْيًا وَأَوْجَبَ عُذْرًا مِمَّنْ عَمِلَ بِالتَّفْرِيطِ ، وَإِنْ اتَّفَقَتْ لَهُ الأُمُورُ على ما أَرادَ . وَلَعَمْرِي ما يَكادُ ذلكَ يَجِيءُ إِلَّا في أَقَلِّ الأُمُورِ . وما كَثُرَ نَجَى السَّلاماتِ إِلَّا لِمَنْ أَتَى الأُمُورَ مِنْ وَجْهِها . وَإِنَّمَا الأَشْياءُ بِعَوامِئِها

فَلا تَكُونَنَّ بِشَيْءٍ مِمَّا في يَدِكَ أَشَدَّ ضِنًّا ولا عَلَيْهِ أَشَدَّ حَدَبًا مِنْكَ بِالْأَخِ الَّذِي قَدِ بَلَوْتَهُ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ، فَعَرَفْتَ مَذاهِبَهُ وخَبِرْتَ شَيْمَهُ وصَحَّ لَكَ غَيْبُهُ وَسَلِمَتْ لَكَ نَاحِيَّتُهُ . فَإِنَّمَا هُوَ شَقِيقُ رُوحِكَ وَبابُ

(٢) عليه و — (٣) على ذاك و — (٤-٣) قريبا من الإحاطة و — (٥) [بها] و — (٩) خلاف م — (١٠-١٢) [ولعمري ... بعوامئها] م — (١٠) يجيء ذلك و — (١١) [وما كثر ... الأمور] و — (١٣) يدرك و — (١٤) بالسراء م — [فعرفت مذهبها] و — واختبرت و — (١٥) شق و

(*) ص ٢٦ ، ١ — ٢٧ ، ١١ [فمن عرف ... والله يوفقك] : انتقل في و إلى

ما يلي « والمواظبة عليه » ٣٦ ، ٢

(**) واعلم ... المهذب (ص ٢٧ س ٧) رواية م ٦

- الروح إلى حياتك ومُسْتَمْدُ رأيك * وتَوَأْمُ عقلك . ولستَ منتفعًا بعيشٍ
مع الوحدة ولا بدَّ من * مؤانسةٍ . وكثرة الاستبدال تهجمُ بصاحبه على
المكرهه . * فإذا صفا لك أخٌ فكنْ به أشدَّ ضيقًا منك بنفائس أموالك ، ثمَّ ٣
لا يزهدنك فيه أن ترى منه خلقًا أو خلقين تكررهما ، فإن نفسك التي هي
أخصُّ النفوس بك لا تعطيك المقادة في كلِّ ما تريد ، فكيف بنفس
غيرك . وبحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره ، وقد قالت الحكماء : ٦
مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كَلَمَةً ، وَأَيُّ الرِّجَالِ الْمَهْدَب . ثمَّ * لا يمنعك ذلك من الاستكثار
مِنَ * الأصدقاء ، فإنهم جُنْدٌ مُعَدُّون لك ينشرون محاسنك ويحاجون
عنك . ولا يحملنك استطرافُ * صديقٍ ثانٍ على * ملالة الصديق الأول ، فإنَّ ٩
ذلك سبيلُ أهل الجهالة ، مع ما فيها من الدناءة * وسوء * التدبير وزهد * الأصدقاء
جميعًا في إخائك ، والله * يوفِّقك
- وستجدُ في الناس مَنْ قد جرَّبته الرجالُ قبلك ومحَضَه اختبارهم لك . ١٢
فمن كان معروفًا بالوفاء في أوقات الشدة وحالات الضرورة فنانس فيه وأسبقُ
إليه ، فإن اعتقاده أنفسُ * العقدة . ومَنْ بلاءه غيرُك فكشِفَ عن كُفْرِ
النعمة والعدر عند الشدة ، فقد حذرك نفسه وإن آنسك ، وكما غدرَ بغيرك ١٥
يغدر بك . فإنَّ مَنْ شيمته الوفاء يفي للصديق والعدو ، ومَنْ طبيعته الغدرُ
لا يدوم ، وإنما يميلُ مع الرُّجحان ، * يذِلُّ عند الحاجة ويشمخُ مع
الاستغناء . فأحذر ذلك أشدَّ الحذر ١٨

(١) يوم غفلتك و — (٢) المؤانسة م — (٣) فان م — (٧) لا يمنعك و —
(٨) الصديق و — (٩) الصديق على و — (١٠) سوء و : تفنن و — النذير و —
الصديقين و — (١١) موفِّقك و — (١٤) العقد و — (١٧) لا يفي لأحد و — [ينزل]
في وقت الحاجة و

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْحُكَمَاءَ لَمْ تَذُمَّ شَيْئًا ذَمًّا أَرْبَعَ خِلَالَ : الْكَذِبِ ، فَإِنَّهُ جَمَاعُ
 كُلِّ شَرٍّ . وَقَدْ قَالُوا : لَمْ يَكْذِبْ أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا لِصِغَرِ قَدْرِ نَفْسِهِ عِنْدَهُ .
 ٣ وَالغَضَبِ ، فَإِنَّهُ لَوْمْ وَسُوءُ مَقْدُورَةٍ . وَذَلِكَ أَنَّ الْغَضَبَ ثَمَرَةٌ خِلَافِ مَا تَهْوَى
 النَّفْسُ ، فَإِنْ جَاءَ الْإِنْسَانَ خِلَافُ مَا يَهْوَى يَمُنُّ فَوْقَهُ أَغْضَى وَسَمَّى ذَلِكَ
 حُزْنًا ، وَإِنْ جَاءَهُ ذَلِكَ يَمُنُّ دُونَهُ حَمَلَهُ لَوْمُ النَّفْسِ وَسُوءِ الطَّبَاعِ عَلَى الْإِسْطَالَةِ
 ٦ بِالْغَضَبِ وَالْمَقْدُورَةِ بِالْبَسْطَةِ . وَالْجَزَعَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَا ارْتِجَاعَ لَهَا ، فَإِنَّهُمْ
 لَمْ يَجْعَلُوا لِصَاحِبِ الْجَزَعِ فِي مِثْلِ هَذَا عُذْرًا ، لِمَا يَتَعَجَّلُ مِنْ غَمِّ الْجَزَعِ ،
 مَعَ عِلْمِهِ بِفَوْتِ الْجَزُوعِ عَلَيْهِ . وَزَعَمُوا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ إِفْرَاطِ الشَّرِّ ، وَأَنَّ
 ٩ أَصْلَ الشَّرِّ وَالْحَسَدِ وَاحِدٌ وَإِنْ افْتَرَقَ فِرْعَاؤُهُمَا . وَذَمُّوا الْحَسَدَ كَذَمُّهُمْ
 الْجَزَعَ ، لِمَا يَتَعَجَّلُ صَاحِبُهُ مِنْ ثِقَلِ الْإِعْتِمَادِ وَكُلْفَةِ مُقَاسَاةِ الْإِهْتِمَامِ ، مِنْ
 غَيْرِ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ فِي ذَاكَ شَيْءٌ . فَالْحَسَدُ أَغْتِيَامٌ وَالْغَدْرُ لَوْمٌ . وَقَالَ بَعْضُ
 ١٢ الْحُكَمَاءَ : الْحَسَدُ خُلُقٌ دَنِيٌّ ، وَمِنْ دَنَاءَتِهِ أَنَّهُ يَبْدَأُ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبُ . وَزَعَمُوا
 أَنَّهُ لَمْ يَغْدِرْ غَادِرٌ قَطُّ إِلَّا لِصِغَرِ هِمَّتِهِ عَنِ الْوَفَاءِ وَخَوَلِ قَدْرِهِ عَنْ احْتِمَالِ
 الْمَكَارِهِ فِي جَنْبِ نَيْلِ الْمَكَارِمِ

١٥ وَبِقَدْرِ مَا ذَمَّتْ الْحُكَمَاءُ هَذِهِ الْأَخْلَاقَ الْأَرْبَعَةَ فَكَذَلِكَ حَمَدَتْ أَضْدَادَهَا
 مِنَ الْأَخْلَاقِ ، فَأَكْثَرَتْ فِي تَفْضِيلِهَا الْأَقْوَابِلَ وَضَرَبَتْ فِيهَا الْأَمْثَالَ ،
 وَزَعَمَتْ أَنَّهَا أَصْلٌ لِكُلِّ كَرَمٍ وَجَمَاعٌ لِكُلِّ خَيْرٍ ، وَأَنَّ بِهَا تُنَالُ جِسَامُ
 ١٨ الْأُمُورِ فِي الدُّنْيَا وَالْدِّينِ . فَأُجْعِلْ هَذِهِ الْأَخْلَاقَ إِمَامًا لَكَ وَمَثَلًا بَيْنَ

(١) < قَطُّ > — (٦) بِالْبَطْشِ ، الْعِبَارَةُ غَيْرُ مُسْتَقِيمَةٍ وَلَمَّا صَوَّبَهَا : « وَالْمَقْدُورَةُ
 وَالْبَسْطَةُ عَلَى الْبَطْشِ » — (٧) [مِثْل] — (٩) الْفَرَسُ — (١٠) [ثِقَل] —
 (١٥) مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الثَّلَاثَةِ — (١٦) الْأَوَائِلُ — (١٨) فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا

عينيك وَرُضَ عليها نَفْسَكَ وَحَكَّمَهَا في أَمْرِكَ ، تَفَرُّ بِالرَّاحَةِ في
العاجل والكرامة في الآجل

- والصَّبْرُ صَبْرَانِ ، فَأَعْلَاهُمَا أَنْ تَصْبِرَ عَلَى مَا تَرْجُو فِيهِ الْغَنَمَ في العاقبة . ٣
وَالْحِلْمُ حِلْمَانِ ، فَأَشْرَفُهُمَا حِلْمُكَ عَمَّنْ هُوَ دُونَكَ . وَالصِّدْقُ صِدْقَانِ ، أَعْظَمُهُمَا
صِدْقُكَ فيما يَضُرُّكَ . وَالْوَفَاءُ وَفَاءَانِ ، أَأَسْنَاهُمَا وَفَاؤُكَ لِمَنْ لَا تَرْجُوهُ وَلَا
تَخَافُهُ . فَإِنَّ مَنْ عُرِفَ بِالصِّدْقِ صَارَ النَّاسُ لَهُ أَتْبَاعًا ، وَمَنْ نُسِبَ إِلَى الْحِلْمِ ٦
أَلْبَسَ ثَوْبَ الْوَقَارِ وَالْهِيمَةِ وَأُبْهَتِ الْجَلَالَةَ ، وَمَنْ عُرِفَ بِالْوَفَاءِ اسْتَنْمَتَ إِلَى
الثِّقَةِ بِهِ الْجَمَاعَاتُ* ، وَمَنْ اسْتَعَزَّ بِالصَّبْرِ نَالَ جِسْمِيَّاتِ الْأُمُورِ . وَلَعَمْرِي
مَا غَلِطَتِ الْحِكْمَاءُ حِينَ سَمَّيْنَاهَا أَرْكَانَ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا . فَالْصِّدْقُ وَالْوَفَاءُ ٩
تَوَأْمَانُ وَالصَّبْرُ وَالْحِلْمُ تَوَأْمَانُ ، فَبَيْنَهُمَا تَمَامُ كُلِّ دِينٍ وَصَلَاحُ كُلِّ دُنْيَا ،
وَأُضْدَادُهُنَّ سَبَبُ كُلِّ فُرْقَةٍ وَأَصْلُ كُلِّ فُسَادٍ

- وَأَحْذَرُ خَصْلَةٍ رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ اسْتَهَانُوا بِهَا وَضَيَّعُوا النَّظَرَ فِيهَا ، مَعَ اسْتِمَالِهَا ١٢
عَلَى الْفُسَادِ وَقَدْ حِيَهَا الْبَغْضَاءُ فِي الْقُلُوبِ وَالْعَدَاوَةُ بَيْنَ الْأَوْدَاءِ : الْمُفَاخَرَةُ
بِالْأَنْسَابِ . فَإِنَّهُ لَمْ يَغْلُطْ فِيهَا عَاقِلٌ قَطُّ ، مَعَ اجْتِمَاعِ الْإِنْسِ جَمِيعًا عَلَى
الصُّورَةِ وَإِقْرَارِهِمْ جَمِيعًا بِتَفَرُّقِ الْأُمُورِ الْمَحْمُودَةِ* < وَالْمَذْمُومَةِ > ، مِنْ الْجَمَالِ ١٥
وَالدَّمَامَةِ وَاللُّؤْمِ وَالْكَرَمِ وَالْجُبْنِ وَالشَّجَاعَةِ فِي كُلِّ حِينٍ ، وَانْتَقَالِهَا
مِنْ أُمَّةٍ إِلَى أُمَّةٍ ، وَوُجُودِ كُلِّ مَحْمُودٍ وَمَذْمُومٍ فِي أَهْلِ كُلِّ جَنْسٍ مِنَ الْآدَمِيِّينَ .

(٢) العاجل < والآجل > — (٣) في كل ما ترجو — (٤) فأعظمهما —

(٥) أشنأهما — (٦-٨) استقامت بالثقة به الجماعة — (٨) استعان —

(٩) غلطت < فيها > — (١٠) توأم — (مرتين) — (١٠) منهن —

(١٤) الألسن — (١٥) < والمذمومة > ، أضفنا : [] —

وهذا غيرُ مدفوعٍ عند الجميع . فلا تجعلُ له من عقلك نصيباً ولا من لسانك حظاً ، *تسلمَ بذلك على الناس أجمعين مع السلامة في الدين

٣ (*) وأعلم أنك موسومٌ بسما من قارنت ومنسوبٌ إليك أفاعيلُ من صاحبت ، فتحرّز من دُخلاء السوء ومجالسة أهل الريب . وقد جرّت لك في ذلك الأمثال وسطّرت لك فيه الأقاويل ، فقالوا : المرء حيث يجعل نفسه . وقالوا : يُظنُّ بالمرء ما يُظنُّ بقرينه . وقالوا : المرء بشكله والمرء بأليفه . ولن تقدّر على التحرّز من جماعة الناس ، ولكن أقلّ الموانسة إلا بأهل البراءة من كل دنسٍ

٩ وأعلم أن المرء بقدر ما يسبقُ إليه يُعرف وبالمستفيض من أفعاله يوصف ، وإن كان بين ذلك كثيرٌ من خلافه ألغاه الناس وحكموا عليه بالغالب من أمره . فأجهد أن يكون أغلبُ الأشياء على أفاعيلك ما تحمده العوامُ ولا تذهمه الجماعات ، فإن ذلك يُعقّي على كل خللٍ إن كان . فبادر ألسنة الناس فأشغلها بمجاسنك فإنهم إلى كل شيء سراع . وأستظهر على من دونك بالتفضل وعلى نظرائك بالإيناف وعلى من فوقك بالإجلال ، تأخذ بوثائق الأمور وأزمة التدبير

١٥ وأعلم أن كثرة العتاب سببٌ للقطيعة واطراحه كله دليلٌ على قلة

- (١) تجعل د — (٢) فتسلم د — (٤) السوء < وأظهر > بجانب د —
 (٥) [لك] م — (٦) ما ظن د — بشكليه د — (٧) جماعات د ، [جماعة] م —
 (١٠) أفعاله د — (١١) عليك أفاعيلك كلما د ، على أفعالك ما م — (١٣) شر م —
 (١٤) [وعلى نظرائك] د — < كل > من م

الاكثرات *بأمر الصديق ، فكُنْ فيه بين أمرين : عاتبه فيما تشتركان في
نفعه وضرره وذلك في الهنات ، وتجاف له عن بعض غفلاته تسلم لك
ناحيته . وبحسب ذلك فكُنْ في زيارته ، فإن الإلحاح في الزيارة يذهب
٣ بالبهاء وربما أورت الملالة ، وطول المجران يعقب الجفوة ويحل عقدة
الإخاء ويجعله صاحبه مدرجة للقطيعة . وقد قال الشاعر :

٦ إذا ما شئت أن تسلي حبيباً فأكثر دونه عدد الليالي
فما يسلي حبيبك مثل ناي ولا يبلي جديك كابتدال

وأقصد في مزاحك ، فإن الإفراط فيه يذهب بالبهاء ويجرئ عليك
أهل الدناءة ، وإن التقصير فيه يقبض عنك المؤانسين . فإن مزحت فلا
٩ تمزح بالذي يسوء معاشرتك

وأنا أوصيك بخلق قل من رأيت يتخلق به ، وذلك أن محمله شديد ومزقه
صعب ، وبحسب ذلك يورث الشرف وحيد الذكر : ألا يحدث لك انحطاط
١٢ من حطت الدنيا من إخوانك استهانة به ولا لحقه إضاعة ولما كنت
تعلم من قدره استصغاراً ، بل إن زده قليلاً كان أشرف لك وأعطف
للقلوب عليك . ولا يحدث لك ارتفاع من رفعت الدنيا منهم تذلاً وإثارة له
١٥ على نظرائه في الحفظ والإكرام ، بل لو انقبضت عنه كان مادحك أكثر من
دامك وكان هو أولى بالتعطف عليك . إلا أن يكون مسلطاً تخاف شذاته

(١) إلا من — (٢) الهينات — (٤) الملل و — (٥) درجة —
(٧) فما يسلي . . . كابتدال :

وزر غبا إذا أحببت خلا فتحظى بالوداد مع اتصال و
(٨) واقصد و — (٩) عنه و — (١٠) إلا بالذي يسر و — (١٣) [به] و —
(١٤) تعرف و — [قليلاً] و — [لك] و — (١٧) شذاه و

وَمَعْرِتِهِ وَتَرْجُو عِنْدَهُ جَرَّ مَنْفَعَةٍ لَصَدِيقٍ أَوْ دَفَعَ مَضَرَّةً عَنْهُ أَوْ كَبَتًا
لَعْدُوٍّ وَإِزَالَ هَوَانٍ بِهِ . فَإِنَّ السُّلْطَانَ وَخِيَلَاءَهُ وَزُهوَهُ يُحْتَمَلُ فِيهِ مَا لَا يَجُوزُ
فِي غَيْرِهِ وَيُعْذَرُ فِيهِ مَا لَا يُعْذَرُ فِي سِوَاهِ ٣

وَأَعْلَمُ أَنَّ نَشْرَ مُحَاسِنِكَ لَا يَلِيقُ بِكَ وَلَا يُقْبَلُ فِيكَ ، إِلَّا إِذَا كَانَ
الْقَوْلُ لَهَا عَلَى السُّنَنِ أَهْلِ الْمُرُوءَاتِ وَذَوِي الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ ، وَمَنْ يَنْجَعُ قَوْلُهُ
فِي الْقُلُوبِ ، مِمَّنْ يُسْتَنَامُ إِلَى قَوْلِهِ وَيُصَدَّقُ خَبَرُهُ ، وَمِمَّنْ إِنْ قَالَ صَدَقَ أَوْ
مَدَحَ اقْتَصَدَ ، يَثْنِي بِقَدْرِ الْبَلَاءِ ، فَإِنَّ إِسْرَافَ الثَّنَاءِ عَلَى قَدْرِ النِّعْمَةِ يُولِّدُ فِي
الْقُلُوبِ التَّكْذِيبَ وَيَدُلُّ عَلَى طَلَبِ الزَّيَادِ . فَأَمَّا ثَنَاءُ الْمَادِحِينَ لَكَ فِي
وَجْهِكَ ، فَإِنَّمَا تِلْكَ أَسْوَاقُ أَقَامُوهَا لِلْأَرْبَاحِ وَسَاهُلُوكَ فِي الْمُبَايَعَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ
فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ كُفْلَةٌ ، لِكِسَادِ أَقَاوِيلِهِمْ عِنْدَ النَّاسِ . أُولَئِكَ الصَّادُونَ عَنِ
طُرُقِ الْمَكَارِمِ وَالْمُتَبَيِّطُونَ عَنِ ابْتِنَاءِ الْمَعَالِي . فَارْتَدَّ لِنِعْمِكَ مَغْرَسًا تَنْمُو فِيهِ
فِرْعَوْهَا وَتَرْكُومُ ثَمَرُهَا ، لَا تَذْهَبُ نَفَقَتُكَ ضَيَاعًا ، إِنَّمَا لِعَاجِلٍ تَقْدِمُهُ أَوْ
لِأَجَلٍ ثَنَاءً تَنْتَفِعُ بِهِ ١٢

وَلَنْ تَعْدَمَ أَنْ يَفْجَأَكَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِكَ حَقُوقٌ تَبْهَظُكَ وَأَحْوَالٌ
تَقْدَحُكَ وَأُمُورٌ كُلُّهَا تَتَقَسَّمُ عِنَايَتَكَ وَفِي التَّثَبُّتِ فِي مِثْلِهَا تُعْرِفُ
فَضِيلَتَكَ . فَلَا تَسْتَقْبِلْهَا بِالتَّضَجُّعِ وَتَغْيِينِ الرَّأْيِ ، وَأَبْدَأْ مِنْهَا بِأَعْظَمِهَا
مَنْفَعَةً وَأَشَدَّهَا خَوْفَ ضَرَرٍ ، وَكُلِّ مَا أَعْجَزَكَ إِلَى الْكُفَاةِ وَأَعْتَذِرْ مِنْ
تَقْصِيرٍ إِنْ كَانَ ، فَإِنَّ الْاعْتِذَارَ يَكْسِرُ حُمَّى اللَّامَةِ وَيُرَدِّعُ شِدَاةَ الشَّرِّ .
ثُمَّ تَلَافَ بَعْدَ انْكِسَارِ ذَلِكَ عَنْكَ مَا فَاتَكَ ١٨

(٤-١٣) [واعلم ... تنتفع به] د — (٨) التزايد ، صححنا : الزايد د —

فأثناء د — (١٤) وأشغال د — (١٥) عليك د — (١٦) ولا د — وتغير د —

قابض د — (١٨) فإن العذر يكسر حميا د — (١٩) الانكساف د — [عنك ما فاتك] د —

- وأجهد الجهد كله أن تكون مخارجُ الحقوق اللازمة لك من عندك سهلةً
موصولةً لأصحابها ببشرِك وطلاقة وجهك ، فقد زعمت الحكماء أن القليل مع
طلاقة الوجه أوقع بقلوب ذوى المروءات من الكثير مع العبوس والانتباض . ٣
وقد قال بعض الحكماء غاية الأحرار أن يلقوا ما يحبون ويحرموا أحب إليهم
من أن يلقوا ما يكرهون ويعطوا . وما أبعدوا من الحق
ولا يدعونك كُفْرُ كافرٍ لبعضِ نعيمك ممن آثرَ هواه على دينه ومروءته
أوغدر غادر تصنع لك وختلك عن مالك ، أن تزهد في الإنعام وتُسيء
بثقاتك الظنون . فإن هذا موضعٌ يجد الشيطان في مثله النريفة إلى استفساد
الطبائع وتعطيل المكارم
وأعلم أن استصغارك نعيمك يكبرها عند ذوى العقول وسترك لها نشر
لها عندهم . فأنشرها بسترها وكبرها باستصغارها
وأعلم أن من الفعل أفاعيل وإن عظمت منافعها ومنافع أضدادها فلا يثارها
فضيلة على كل حال . فأجعل صمتك أكثر من كلامك ، فإنه أدل على
حكمتك . وأجعل عفوَك أكثر من عقوبتك ، فإن ذلك أدل على كرمك .
ولا تفرطن فيه كل الإفراط حتى تطرح الكلام في موضعه والتأديب في أوانه
وأعلم أن لكل امرئ سيداً من عمله ساهلته فيه نفسه وسلس له
فيه هواه . فتحفظ ذلك من نفسك وتقاضها الزيادة فيه ورؤضا على تكميره
والمواظبة عليه (*)

(٢) لأصحابك ذ — (٤-٥) [وقد قال ... ويعطوا] ذ — (٥) [وما أبعدوا]
من الحق] ذ — (٧) أو عذره ذ — (٩) الصنائع ذ — (١٠) يكثرها ذ
(١١) وكثرها ذ — (١٢) الأفاعيل أفاعيل ذ — فلا يثار لها ذ

(*) يتلو في ذ الفصل المشار إليه في تعلية ص ٢٦

وَأَحْذَرِ الْحَذَرَ كُلَّهُ الْاِغْتِرَارَ بِأُمُورِ ثَلَاثَةٍ ، فَإِنَّ مَنْ عَطَبَ بِهَا
 كَثِيرٌ وَتَلَا فِيهَا صَعْبٌ شَدِيدٌ : أَحَدُهَا أَنْ لَا تُؤَلِّيَ جِسَامَ نَصْرُفِكَ * وَتَقْلُدَ مُهِمَّ
 ٣ أُمُورِكَ وَوَنَائِقَ تَدْبِيرِكَ * إِلَّا أَمْرًا صَلَاحُهُ مُوَصُولٌ بِصَلَاحِكَ * وَبَقَاءُ النِّعْمَةِ
 عَلَيْكَ هُوَ بَقَاءُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ . * وَأَنْ لَا تَأْنِسَ أَوْ تَغْتَرَّ بِمَنْ تَعْلَمُ أَنَّ بِصَلَاحِكَ
 فُسَادَهُ وَبَارْتِفَاعِكَ انْخِطَاطَهُ وَبِسَلَامَتِكَ عَطَبَهُ ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ هَكَذَا فَأَنْتَ
 ٦ مَالِكُ مَوْتِهِ ، فَبِحَسَبِ ذَلِكَ فليَكُنْ عِنْدَكَ . * وَأَنْ تَجْعَلَ مَالَكَ كُلَّهُ فِي عَقْدَةٍ
 وَاحِدَةٍ أَوْ حِيَرٍ وَاحِدٍ * أَوْ وَجْهٍ مُنْفَرِدٍ إِنْ اجْتِاحْتَهُ جَائِحَةٌ أَوْ نَابَتْهُ
 نَائِبَةٌ بِتَمَيُّتٍ حَسِيرًا . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : فَرَّقُوا الْمَنِيَّةَ وَأَطْلُبُوا الْأَرْبَاحَ
 ٩ بِكُلِّ شَعْبٍ

* وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الَّتِي ذَمَّتْهَا الْحُكَمَاءُ خَلْقٌ إِلَّا وَقَدْ يَنْفَعُ فِي
 بَعْضِ الْحَالَاتِ * وَيُرَدُّ بِهِ شِكْلُهُ * وَيُقَامُ بِإِزَاءِ مِثْلِهِ وَيَدَافَعُ بِهِ نَظِيرُهُ .
 ١٢ * إِنَّكَ سَتُمْنَى بِصُحْبَةِ السُّلْطَانِ الْحَازِمِ الْعَادِلِ وَبِصُحْبَةِ السُّلْطَانِ الْأَخْرَقِ
 الْجَهْلِيِّ الْعَشُومِ ، فَالْحَازِمُ الْعَادِلُ يَسُوسُهُ لِكَ الْأَدَبِ وَالنَّصِيحِ وَالْأَخْرَقُ يُسُوسُهُ
 لِكَ الْحِيلَةِ وَالرِّفْقِ . الْعَادِلُ يَعْضُدُّكَ مِنْهُ ثَلَاثٌ وَتَصْبِرُ نَفْسُهُ لِكَ عَلَى ثَلَاثٍ ،
 ١٥ فَالْوَأْتِي يَعْضُدُّكَ : تَسْلِيْطُ الْعَدْلِ وَإِنْفَازُ الْحُكُومَةِ — وَفِي ذَلِكَ صَلَاحُ الرِّعْيَةِ —
 وَإِثَابَةُ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ إِثَابَتُهُمْ تَحْصِينُ الْبَيْضَةِ وَالسُّبُلِ ، وَالْعَفْوُ مَا بُلِّغَ بِهِ
 الْاِسْتِصْلَاحُ * وَاكْتَفَى بِهِ مِنْ * الْبَسْطِ . وَالْوَأْتِي تَصْبِرُ نَفْسُهُ لِكَ عَلَيْهِنَ الْهَوَى

(٢) [لا] د — تقليد د — (٣) الى من د — (٣-٤) وبقاء النعمة عليه هو بقاء
 النعمة عليك د — (٤) وان تأنس د — (٦) وان تجعل ، صححنا : أو أن تجعل د د —
 (٧) أو [وجه منفرد] <و> ان د — (١٠) واعلموا د — (١١) ويرديه شكله
 ويقاوم د — (١٢-١٥ من ٣٥ ، ٢) [انك ستمنى ... النصحاء] د — (١٧) لعل الصواب :
 البطش ؟

* < > إلى ما وافق الرأي وأمضى الرأي إلا بعد التثبت حتى تعاونه عليه النصحاء

- ولكني أوصيك برياضة نفسك حتى تُدللها على الأمور الحمودة ، فإن ٣
 * كل أمر ممدوح هو مما تستنقل النفوس ، وما تسرُّ به وتنقلب إليه الأخلاق
 المذمومة . فإن أهملتها وإياها غلبت عليك لأنها فيها طبيعة مركبة وجبلة
 مفطورة . فلتكن المساهلة في أخلاقك أغلب عليك من المعاصرة والحلم أولى ٦
 بك من العجلة والصبر الحاكم عليك دون الجزع والعفو أسبق إليك من
 المجازاة بالذنوب والمكافأة بالسوء ، وكذلك سائر الأخلاق الحمودة والمذمومة
 فلتكن محموداتها غالبية على أفعالك مُحكمة في أمورك . فإنك إن ضبطت ٩
 ذلك وقومت عليك نفسك عشت رخي البال قليل الهم كثير
 الصديق قليل العدو سليم الدين نقي العرض محمود الفعّال جميل
 الأحداث في حياتك وبعد وفاتك ، وكنت بموضع الرجاء أن يصل الله لك ١٢
 السلامة الآجلة بالنعمة العاجلة *

أسأل الله المبتدئ بكلّ نعمة والمولّي لكل إحسان أن يُصلي على محمد
 خيره من خلقه وصفوته من بريته ، وأن يتمّ عليك نعمته ويسفّع لك ١٥

(١) < > : سقط في الأصل — (٣) ولكن —
 (٤) كان امرئ — هو ما — [وما تسر... المذمومة] — (٥) عليك لا فيها
 طبيعة [مركبة] — (٦-٩) [وكذلك سائر... في أمورك] — (١٠) [ذلك...
 عليك] — الهموم — (١١) [سليم... الفعّال] — (١٢) ترجو —
 (١٣) الكرامة — العاجلة > إن شاء الله عز وجل — (١٥) يتم —

ما خَوَّلَكَ من * نعمته بالنعمة التي يُؤْمَنُ معها الزوالُ في جِواره ومُرافقةُ أنبيائه ،
 * والسلام عليك ورحمةُ الله (*)

(١) نعمه ٥ — (٢) صلى الله عليهم أجمعين ٥

(*) تمت الرسالة في الأخلاق الحمودة والمذمومة بعون الله ومنه والله الموفق للصواب والحمد لله أولا وآخرا وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه يتلو هذه الرسالة إن شاء الله تعالى « كتاب كتمان السر وحفظ اللسان » من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضا والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته ٥ ، تمت الرسالة في كتمان السر وحفظ اللسان (!) من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله والله المحمود على ذلك كثيرا برحمته ٥

كتاب كتمان السر وحفظ اللسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣

أما بعد ، فَإِنِّي تَصَفَّحْتُ أَخْلَاقَكَ وَتَدَبَّرْتُ أَعْرَافَكَ وَتَأَمَّلْتُ شِيَمَكَ ،
وَوَزَنْتُكَ فَعَرَفْتُ مِقْدَارَكَ وَقَوَّمتُكَ فَعَلِمْتُ قِيَمَتَكَ ، فَوَجَدْتُكَ قَدْ نَاهَزْتَ
الْكَامِلَ وَأَوْفَيْتَ عَلَى التَّمَامِ وَتَوَقَّلتَ فِي دَرَجِ الْفَضَائِلِ ، وَكِدْتَ تَكُونُ
مُنْقَطِعَ الْقَرِينِ وَقَارِبَتَ أَنْ تُلْفَى عَدِيمَ النَّظِيرِ ، لَا يَطْمَعُ فَاضِلٌ أَنْ
يَفُوتَكَ وَلَا يَأْنِفُ شَرِيفٌ أَنْ يُقَصِّرَ دُونَكَ وَلَا يَخْشَعُ عَالَمٌ أَنْ يَأْخُذَ عَنْكَ .
وَوَجَدْتُكَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ تَضْيِيعٍ وَإِهْمَالٍ لِأَمْرَيْنِ هُمَا الْقُطْبُ الَّذِي
عَلَيْهِ مَدَارُ الْفَضَائِلِ ، فَكُنْتَ أَحَقَّ بِالْعَدْلِ وَأَقْنَى بِالتَّأْنِيبِ ، مِمَّنْ لَمْ يَسْبِقْ
شَأْوُكَ وَلَمْ يَتَسَنَّمْ رُبَّتَكَ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مَلُومًا عَلَى تَضْيِيعِ الْقَلِيلِ مَنْ قَدْ أَضَاعَ
الْكَثِيرَ وَلَا يَهْتَمُّ بِإِصْلَاحِ يَوْمِهِ وَتَقْوِيمِ سَاعَتِهِ مَنْ قَدْ اسْتَحْوَذَ الْفَسَادُ عَلَى
دَهْرِهِ وَلَا يُحَاسِبُ عَلَى الزَّلَّةِ الْوَاحِدَةِ مَنْ لَا يَبْعُدُ مِنْهُ الزَّلَلُ وَالْعِثَارُ وَلَا
يُنْكَرُ الْمُنْكَرُ عَلَى مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرُوفِ ، لِأَنَّ الْمُنْكَرَ إِذَا كَثُرَ صَارَ
مَعْرُوفًا ، وَإِذَا صَارَ الْمُنْكَرُ مَعْرُوفًا صَارَ الْمَعْرُوفُ مُنْكَرًا . وَكَيْفَ يُعْجَبُ بِمَنْ
أَمْرُهُ كُلُّهُ عَجَبٌ . وَإِنَّمَا الْإِنْكَارُ وَالتَّعَجُّبُ بِمَنْ خَرَجَ عَنْ مَجْرَى
الْعَادَةِ وَفَارَقَ السُّنَّةَ وَالسَّجِيَّةَ ، كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ : خَالِفْ تُذَكَّرْ ، وَقِيلَ :

الكاملُ مَنْ عُدَّتْ سَقَطَاتُهُ ، وَقِيلَ : مَنْ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ وَمَنْ كَانَ
يَوْمُهُ خَيْرًا مِنْ غَدِهِ فَهُوَ مَفْتُونٌ وَمَنْ كَانَ غَدُهُ خَيْرًا مِنْ يَوْمِهِ فَذَلِكَ السَّعِيدُ
المغبوط . وفي هذا المعنى قال الشاعر :

رَأَيْتُكَ أَمْسَ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرُ مَنْكَ أَمْسٍ
وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الضَّعْفَ خَيْرًا كَذَاكَ تَزِيدُ سَادَةَ عَبْدٍ شَمْسٍ
وقال آخرُ في مَعْنٍ :

أَنْتَ أَمْرٌ هُمُكَ الْمَعَالَى وَدَلُّهُ مَعْرُوفُكَ الرَّبِيعُ
وَأَنْتَ مِنْ وَائِلٍ صَمِيمٍ كَالْقَلْبِ تَحْيَى بِهِ الضُّلُوعُ
فِي كُلِّ عَامٍ تَزِيدُ خَيْرًا يُشْمِعُهُ عَنْكَ مَنْ يُشْمِعُ

وَالْأَمْرَانِ الْإِذَانِ نَقِمْتُهُمَا عَلَيْكَ : وَضَعُ الْقَوْلِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَإِضَاعَةُ السِّرِّ
بِإِذَاعَتِهِ . وَلَيْسَ الْخَطَرُ فِيمَا أَسْوَمُكَ وَأُحَاوِلُ حَمَلَكَ عَلَيْهِ بِسَهْلٍ وَلَا يَسِيرٍ . وَكَيْفَ
وَأَنَا لَا أَعْرِفُ فِي دَهْرِي — عَلَى كَثِيرٍ عَدَدِ أَهْلِهِ — رَجُلًا وَاحِدًا مِمَّنْ يَنْتَحِلُ
الْخَاصَّةَ وَيُنْسَبُ إِلَى الْعِلْيَةِ وَيَطْلُبُ الرِّيَاسَةَ وَيَخْطُبُ السِّيَادَةَ وَيَتَحَلَّى
بِالْأَدَبِ وَيُدِيمُ الشَّخَانَةَ وَالزَّمَانَةَ وَالْحِلْمَ وَالنَّفْخَامَةَ ، أَرْضَى ضَبْطَهُ
لِلْسَانِهِ وَأَحْمَدُ حَيَاطَتِهِ لِسِرِّهِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَصْعَبُ مِنْ مُسْكَائِدَةِ
الطَّبَائِعِ وَمُعَالَبَةِ الْأَهْوَاءِ ، فَإِنَّ الدَّوْلَةَ لَمْ تَزَلْ لِلْهَوَى عَلَى الرَّأْيِ طَوْلَ الدَّهْرِ ،
وَالْهَوَى هُوَ الدَّاعِيَةُ إِلَى إِذَاعَةِ السِّرِّ وَإِطْلَاقِ اللِّسَانِ بِفَضْلِ الْقَوْلِ . وَإِنَّمَا
سُمِّيَ الْعَقْلُ عَقْلًا وَحِجْرًا — قَالَ اللَّهُ تَعَالَى هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِيذِي حِجْرٍ —
لَأَنَّهُ يَزُمُّ اللِّسَانَ وَيَخْطُمُهُ وَيَشْكُلُهُ وَيَزِينُهُ وَيَقِيدُ الْفَضْلَ وَيَعْقِلُهُ عَنْ أَنْ

- يَمْضِي فَرْطًا فِي سَبِيلِ الْجَهْلِ وَالْخَطَا وَالْمُضَرَّةِ ، كَمَا يُعْقِلُ الْبَعِيرُ وَيُحْجِرُ عَلَى الْيَتِيمِ . وَإِنَّمَا اللِّسَانُ تَرْجُمَانُ لِلْقَلْبِ وَالْقَلْبُ خِزَانَةُ مُسْتَحْفَظَةٌ لِلْخَوَاطِرِ وَالْأَسْرَارِ وَكُلُّ مَا يَعْهَدُ ذَلِكَ عَنْ الْحَوَاسِّ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَمَا تَوَلَّاهُ الشَّهَوَاتُ ٣ وَالْأَهْوَاءُ وَتَنْتَجِعُ الْحِكْمَةُ وَالْعِلْمُ . وَمِنْ شَأْنِ الصَّدْرِ — عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ وَعَاءٌ لِلْأَجْرَامِ ، وَإِنَّمَا يَعْبَى بِقُدْرَةِ اللَّهِ لَا يَعْرِفُ الْعِبَادُ كَيْفَ هِيَ — أَنْ يَضِيقَ بِمَا فِيهِ وَيَسْتَقْتِلُ مَا حَمَلَ مِنْهُ ، فَيَسْتَرْيِحَ إِلَى نَيْدِهِ وَيَلْذَّ بِإِقْدَارِهِ عَلَى اللِّسَانِ ، ٦ ثُمَّ لَا يَكَادُ أَنْ يَشْفِيَهُ أَنْ يُحَاطَبَ بِهِ نَفْسُهُ فِي خَلَوَاتِهِ حَتَّى يُفْضَى بِهِ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ لَا يَرَعَاهُ وَلَا يَحُوطُهُ ، كُلُّ ذَلِكَ مَا دَامَ الْهَوَى مُسْتَوَلِيًّا عَلَى اللِّسَانِ وَاسْتَعْمَلَ فَضُولَ النَّظَرِ فَدَعَتْ إِلَى فَضُولِ الْقَوْلِ ٩
- فَإِذَا قَهَرَ الرَّأْيُ الْهَوَى فَاسْتَوَلَى عَلَى اللِّسَانِ مَنَعَهُ مِنْ تِلْكَ الْعَادَةِ وَرَدَّهُ عَنْ تِلْكَ الدَّرَجَةِ وَجَشَّمَهُ مَوُونَةَ الصَّبْرِ عَلَى سِتْرِ الْحِلْمِ وَالْحِكْمَةِ . وَلَا شَيْءٌ أَعْجَبُ مِنْ أَنَّ الْمُنَظِقَ إِحْدَى مَوَاهِبِ اللَّهِ الْعِظَامِ وَنِعْمَةِ الْجِسَامِ ، وَإِنْ صَاحِبُهَا ١٢ مَسْئُولٌ عَنْهَا وَمَحَاسَبٌ عَلَى مَا خُوِّلَ مِنْهَا ، أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ اسْتِعْمَالَهَا فِي ذِكْرِهِ وَطَاعَتِهِ وَالْقِيَامِ بِقِسْطِهِ وَحُجَّتِهِ وَوَضْعِهَا مَوَاضِعَ النِّفْعِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْإِنْفَاقِ مِنْهَا بِالْمَعْرُوفِ لَفْظَةً لَفْظَةً وَصَرَفَهَا عَنْ أَضْدَادِهَا . فَلَمْ ١٥ يَرْضَ الْإِنْسَانُ أَنْ عَطَّلَهَا عَمَّا خُلِقَتْ لَهُ مِمَّا يَنْفَعُهُ حَتَّى اسْتَعْمَلَهَا فِي ضِدِّ ذَلِكَ مِمَّا يَضُرُّهُ ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْإِثْمَانِ اللَّذَانِ اجْتَمَعَا عَلَى صَاحِبِ الْمَالِ الَّذِي كَنَزَهُ وَمَنَعَهُ مِنْ حَقِّهِ ، فَوَجَبَ عَلَيْهِ إِثْمُ الْمَنَعِ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَصْرِفْهُ فِي مَعْصِيَةٍ ، ١٨ ثُمَّ صَرَفَهُ فِي أَبْوَابِ الْبَاطِلِ وَالْفِسْقِ ، فَوَجَبَ عَلَيْهِ إِثْمُ الْإِنْفَاقِ مِنْهَا . وَهَذِهِ غَايَةُ الْعَبْنِ وَالْخُسْرَانِ ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا

فَاللِّسَانُ أَدَاةٌ مُسْتَعْمَلَةٌ لَا حَمْدَ لَهُ وَلَا ذَمَّ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا الْحَمْدُ
 لِلْحِلْمِ وَاللَّوْمُ عَلَى الْجَهْلِ ، فَالْحِلْمُ هُوَ الْأَسْمُ الْجَامِعُ لِكُلِّ فَضْلٍ وَهُوَ سُلْطَانُ
 ٣ الْعَقْلِ الْقَامِعُ لِلْهَوَى . فَلَيْسَ قَمْعُ الْغَضَبِ وَتَسْكِينُ قُوَّةِ الشَّرِّ وَإِسْقَاطُ
 طَائِرِ الْخُرْقِ بِأَحَقَّ بِهَذَا الْأَسْمِ وَلَا أَوْلَى بِهَذَا الرَّسْمِ * مِنْ قَعْرِ فَرْطِ
 الرِّضَا وَغَلْبَةِ الشَّهَوَاتِ وَالْمَنْعِ مِنْ سُوءِ الْفَرَحِ وَالتَّبَطُّرِ وَمِنْ سُوءِ الْجَزَعِ
 ٦ وَالْهَلَعِ وَسُرْعَةِ الْحَمْدِ وَالذَّمِّ وَسُوءِ الطَّبْعِ وَالْجَشَعِ وَسُوءِ مُنَاهَزَةِ
 الْفُرْصَةِ * وَفَرْطِ الْحِرْصِ عَلَى الطَّلِبَةِ وَشِدَّةِ الْحَنِينِ وَالرِّقَّةِ وَكَثْرَةِ الشُّكْوَى
 وَالْأَسَفِ وَقَرَبِ وَقْتِ الرِّضَا مِنْ وَقْتِ السَّخَطِ وَوَقْتِ السَّخَطِ مِنْ وَقْتِ
 ٩ الرِّضَا وَمِنْ اتِّفَاقِ حَرَكَاتِ اللِّسَانِ وَالتَّبَدُّلِ عَلَى غَيْرِ وَزْنٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَقْدِيرٍ
 مَوْصُوفٍ وَفِي غَيْرِ نَفْعٍ وَلَا جَدَى

وَأَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ الصَّمْتَ سَرْمَدًا أَبَدًا أَسْهَلُ مَرَامًا — عَلَى مَا فِيهِ مِنْ
 ١٢ الْمُشَقَّةِ — مِنْ إِطْلَاقِ اللِّسَانِ بِالتَّقْوَلِ عَلَى جِهَةِ التَّحْصِيلِ وَالتَّمْيِيزِ وَالتَّقْصِدِ
 لِلصَّوَابِ ، لِمَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ مِنْ عِلَّةٍ مُجَاذِبَةِ الطَّبَاعِ وَلِأَنَّ مِنْ طَبْعِ
 الْإِنْسَانِ مَحَبَّةَ الْإِخْبَارِ وَالْأَسْتِخْبَارِ . وَبِهَذِهِ الْجِبِلَّةِ الَّتِي جُبِلَ عَلَيْهَا
 ١٥ النَّاسُ نُقِلَتْ الْأَخْبَارُ عَنِ الْمَاضِينَ إِلَى الْبَاقِينَ < وَ > عَنِ الْغَائِبِ إِلَى
 الشَّاهِدِ ، وَأَحَبُّ النَّاسِ أَنْ يُنْقَلَ عَنْهُمْ وَنَقَشُوا خَوَاطِرَهُمْ فِي الصُّخُورِ وَأَحْتَالُوا
 لِتَنْشِيرِ كَلَامِهِمْ بِصُنُوفِ الْحِيلِ . وَبِذَلِكَ ثَبَّتَتْ حِجَّةُ اللَّهِ عَلَى مَنْ لَمْ يُشَاهِدْ
 ١٨ مَخَارِجَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَمْ يَحْضُرْ آيَاتِ الرَّسُولِ . وَقَامَ مَجْمَعُ الْأَخْبَارِ عَنْ غَيْرِ تَشَاعُرٍ
 وَلَا تَوَاطُءٍ مَقَامِ الْعِيَانِ ، وَعُرِفَتْ الْبُلْدَانُ وَالْأَقْطَارُ وَالْأُمَمُ وَالتَّجَارَاتُ وَالتَّدْبِيرَاتُ

والعلامات ، وصار ما ينقله الناسُ بعضهم عن بعضٍ ذريعةً إلى قبول الأخبار
 عن الرُّسلِ وسُلماً إلى التصديقِ وعَوْناً على الرِّضا بالتقليد . ولولا حلاوة
 الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحلَّت هذا المحلّ . ٣
 ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ حبَّبها إليهم لهذا السبب ، كما جعلَ عشقَ النساءِ داعيةً
 للجماع ولذَّةَ الجماع سبيلاً للنَّسلِ والرِّقَّةَ على الولدِ عَوْناً على التَّربيةِ
 والحضَّانة وبهما كان النَّشوء والنِّماء ، وحُبُّ الطَّعام والشراب سبباً ٦
 للغذاء والغذاء سبباً للبقاء وعمارة الدُّنيا

ففسَّر على الإنسان الكتمانُ لإيثارِ هذه الشهوة والانتقياد لهذه
 الطبيعة ، وكانت مزاولَةُ الجبالِ الراسياتِ عن قواعدها أسهلَ من مجاذبةِ
 الطِّبائع . فاعتراه الكربُ لكتمانِ السرِّ وغشِيه لذلك سُقمٌ وكمدٌ يُحسُّ
 له في سُوَيْدَاءِ قلبه بمثلِ دَيْبِ النَّمْلِ وحِكَّةِ الجَرَبِ ومثلَ لَسَعِ
 الدَّبَرِ ووُخْزِ الأَشَافِي ، على قَدَرِ اختلافِ مقاديرِ الحُلومِ والرِّزَانَةِ والخِفَّةِ . ١٢
 فإذا باح بسرِّه فكأنَّه أنشَطَ من عِقَالٍ . ولذلك قيل : الصِّدْرُ إِذَا نَفَثَ بَرّاً ،
 مثلاً مَضروباً لهذه الحال . وقيل :

* ولا بُدَّ من شكوى إذا لم يكن صبر * ١٥

وليس قولنا : طُبِعَ الإنسانُ على حُبِّ الإخبار والاستخبار ، حجةً له
 على الله ، لأنَّه طُبِعَ على حُبِّ النساءِ ومُنْعِ الزِّنا وحُبِّ إليهِ الطَّعامِ ومُنْعِ من
 الحرام ، وكذلك حُبِّ إليهِ أَنْ يُخْبَرَ بِالْحَقِّ النافعِ وَيَسْتَخْبِرَ عَنْهُ ، وجعلتْ فيه ١٨
 استطاعةُ هذا وذاك ، فاخْتَارَ الهوى على الرأى

ومما يؤكِّد هذا المعنى في كَرَبِ السِّكِّمَانِ وَصُوعِبَتْهُ عَلَى الْعُقْلَاءِ فَضْلاً
 ٣ عن غيرهم ما رَوَاهُ عَنْ بَعْضِ فُقَهَائِهِمْ أَنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ أَخْبَاراً مَسْتُورَةً
 لَا يَحْتَمِلُهَا الْعَوَامُّ ، فَضَاقَ صَدْرُهُ بِهَا ، فَكَانَ يَبْرُزُ إِلَى الْعَرَى فَيَحْتَفِرُ بِهَا
 حَفِيرَةً يُودِعُهَا دَنًا ثُمَّ يَنْكَبُ عَلَى ذَلِكَ الدَّنِّ فَيَحْدِثُهُ بِمَا سَمِعَ فَيُرَوِّحُ عَنْ
 قَلْبِهِ وَيَرَى أَنْ قَدْ نَقَلَ سِرَّهُ مِنْ وَعَاءٍ إِلَى وَعَاءٍ

٦ وَكَانَ الْأَعْمَشُ سَيِّئَ الْخُلُقِ غَلِقًا ، وَكَانَ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ يُضْجِرُونَهُ
 وَيَسُوْمُونَهُ نَشْرَ مَا يَحِبُّ طَيِّبَهُ عَنْهُمْ وَتَكَرَّرَ مَا يَحْدِثُهُمْ بِهِ وَيَتَعَنَّتُونَهُ ، فَيَحْلِفُ
 لَا يَحْدِثُهُمُ الشَّهْرَ وَالْأَكْثَرُ وَالْأَقَلُّ . فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ ضَاقَ صَدْرُهُ بِمَا
 ٩ فِيهِ وَتَطَلَّعَتْ الْأَخْبَارُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهُ ، فَيُقْبَلُ عَلَى شَاةٍ كَانَتْ لَهُ فِي مَنْزِلِهِ ،
 فَيَحْدِثُهَا بِالْأَخْبَارِ وَالْفَقْهِ ، حَتَّى كَانَ بَعْضُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ يَقُولُ : لَيْتَ أُنِّي
 كُنْتُ شَاةَ الْأَعْمَشِ

١٢ وَشَكَاهُ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَا يَجِدُ مِنْ فَقْدِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَأْمُونِ عَلَى سِرِّهِ ،
 فَقَالَ : أَكَلْتُ الْحُلُوَّ وَالْحَامِضَ حَتَّى مَا أَجِدُ لَهَا طَعْمًا ، وَأَتَيْتُ النَّسَاءَ حَتَّى
 مَا أَبَالِي امْرَأَةً لَقِيتُ أُمَّ حَائِطًا ، فَمَا بَقِيتُ لِي لَذَّةٌ إِلَّا وَجُودَ أَخٍ أَضَعُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
 ١٥ مَوْوَنَةَ التَّحَفُّظِ

وَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ : مَا اللَّذَّةُ ؟ قَالَ : تَأْمُرُ شَبَابَ قَرِيشٍ
 أَنْ يَخْرُجُوا عَنَّا ، فَفَعَلَ . فَقَالَ : اللَّذَّةُ طَرَحُ الْمُرُوءَةِ . وَقَدْ صَدَّقَ عَمْرُو ،
 ١٨ مَا تَكُونُ الزَّامَانَةُ وَالْوَقَارُ إِلَّا بِحَمَلٍ عَلَى النَّفْسِ شَدِيدٍ وَرِيَاضَةٍ مُتَعَبَةٍ . وَقَالَ
 بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ وُشَاةَ الرِّجَالِ لَا يَدْعُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا
فَلَا تَقْشِ سِرَّكَ إِلَّا إِلَيَّ إِنَّكَ فَإِنْ لَكَ نَصِيحٌ نَصِيحًا

- والسرُّ — أبقاك الله — إذا تجاوزَ صدرَ صاحبه وأفلتَ من لسانه إلى ٣
أذن واحدة ، فليس حينئذٍ سرٌّ بل ذاك أولى بالإذاعة ومفتاحُ السرِّ
والشُّهرة . وإنما بينه وبين أن يشيع ويستطير أن يُدفعَ إلى أذن ثانية ، وهو
مع قلة المأمونين عليه — وكرب السكتان — حريٌّ بالانتقال إليها في طرفة عين . ٦
وصدُرُ صاحب الأذن الثانية أضيق وهو إلى إفشائه أسرع وبه أسخى وفي
الحديث به أعذر والحجة عنه أدحض ، ثم هكذا منزلة الثالث من الثاني
والرابع من الثالث أبدًا إلى حيث انتهى . هذا أيضًا إذا استعهد المحدث ٩
واستكتم وكان عاقلًا حليماً وناعماً وادًّا ، فكيف إذا أُخبر ولم يُؤمر
بالسكتان وكان ممن يمشى بالنمائم ويحب إفشاء المعايب ، وكان ممن ينطوى
على غشٍّ أو شجاعة أو كان له في إظهاره اجتلاب نفعٍ أو دفع ضرر . فاللوم ١٢
إذ ذاك على صاحب السرِّ أوجب * وعمن أفضى به إليه أدلٌّ ، لأنه كان مالكا
لسرِّه فأطلق عقاله وفتح أقفاله وسرَّحه ، فأفلت من قيده ووثاقه وصار
هو العبدُ القنُّ المملوكُ لمن ائتمنه على سرِّه وملَّكه رقَّ رقبته . فإن شاء ١٥
أحسنَ ملكته بحفظ ذلك السرِّ فجزَّ ناصيته وجعله رهينةً ليومٍ عتبه
عليه . وقلَّ من يُحسنُ الملكة ويحرسُ الحرية أو يضبطُ نفسه ، فإنه ربَّما
لم يُخرجه غشًّا فأخرجه سُخْفًا وضعفًا . وإن أساء الملكة وختر الأمانة أطلقَ ١٨
السرَّ واستزاعه من هو أشدُّ له إضاعةً فسفَكَ الدَّم وأزال النِّعم وكشفَ

- العورة وفرّق بين الجميع ، وإن كان المضيع لسره * ألوم . قال الشاعر :
- إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر أضيق
- ٣ فمن أسوأ حالاً وأخسر مكاناً وأبعد من الحزم ممن كان حراً مالكا لنفسه فصير نفسه عبداً مملوكاً لغيره مختاراً للرق من غير أسر ولا قسر .
- والعبيد لم يصبروا على الرق إلا بذل الأسر والسبأ . ومن كان سره موصوناً في قلبه ، يطلب إليه في الحديث به فأخرجه عن يده ، صار هو الطالب
- ٦ الراغب إلى من لا يوجب له طاعة ولا يفكر له في عاقبة ولا يتحرّز له بمصيبة . وكلما كانت إذاعته لأسراره أكثر كان عدد مواليه أكثر وشقاؤه بخدومتهم أدوم . فإذا كان أصل السر معلوماً عند عدة أو
- ٩ أقل من العدة فما أعسر استتاره ، غير أنه لا لوم على صاحب الجناية فيه ، إذا كان ليس هو الذي أفشاه ولا من قبله علم
- ١٢ ولو أن أوزن الناس حِلماً ملك لسانه وحسن سره وقلل لفظه ، ما قدر على أن يملك لحظ عينيه وسحنة وجهه وتغيّر لونه وتبسّمه أو قُطوبه ، عندما يجري به من ذكر ذلك السر أو خطر بباله منه ، فيبدو
- ١٥ في وجهه ونخايه إذا عرض ذكره أو سنع له نظير أو مثل أو حضر من له فيه سبب ، إلا بعد التصنع الشديد والتحفّظ المفرط . فإذا كان يُعرف من هذه الجهات وما أشبهها ويُطلّع عليه بتفانٍ الرّجّين والمتعقبين
- ١٨ للأفعال والأقوال والنظر في مصادير التدبير ونخايل الأمور ، فيفشو من هذه

(١) اليوم د (٦) وصار د (١١) إذا د (١٧) المرحمين د —

(١٨) والنظائر د

الجهات أكثر مما تُنْشِئُهُ السُّنُّ المذابيعُ المَبْدَرُ ، فكيف إذا أطلق به اللسانُ وعودُ
 إذاعته القلبُ والعادةُ أَمَلَكُ بِالْأَدَبِ . وربما أدركه الحَدَسُ وقيضه الظنُّ ،
 ٣ فنالت صاحبه فيه خُدعة بأن يُدْكَرَ له طَرْفٌ منه ويُوْهَمُ أنه قد فشا
 وشاع فيُصدَّقُ الظنُّ فيجعله يقيناً ويفسِّرُ الجملةَ فيصيرُها تفصيلاً فيهلك
 نفسه ويُوْبَقُها . وَرُبَّ كَلَامٍ قد مَلَأَ بظونَ الطواميرِ قد عُرفَ جملته وما فيه
 ٦ الضررُ منه بسِجَاءَةٍ أو طَابَعٍ أو لَحْظَةٍ مُطَّلَعٍ في الكتابِ أو حرفٍ
 تبيّن من ظَهْرِهِ . فاستيقظَ عندَ هذه الأحوالِ واستعملَ سُوءَ الظنِّ بجميعِ
 الأَنَامِ . فَإِنَّهُ رَوَى عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : الحَزْمُ سُوءُ الظنِّ .
 ٩ وَقِيلَ لِنَقِيفٍ : بِمِ بَلَعْتُمْ مَا بَلَعْتُمْ مِنَ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدُدِ ؟ قَالُوا : بِسُوءِ الظنِّ .
 فلا تعتمد على رجل في سرِّكَ تحمد عقله دونَ أن تحمدَ وُدَّهُ ونُصْحَهُ ، فإنَّ
 الأمر في ذلك كما قال الشاعر :

وما كلُّ ذِي لُبٍّ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ ولا كلُّ مُؤْتِي نُصْحِهِ بِلَيْبِهِ ١٢

ولقد استحسنَ الناسُ من بعض رجال العراق أَنَّهُ دخل على عبد الملك بن مروان
 فأوقعَ بالحِجَّاجِ عنده وسبَّه . فلمَّا خرج من عنده خَبَرَ بما كان منه لبعضِ
 ١٥ أصحابه فلامه وأنبه ، وقال : ما يُؤْمِنُكَ أَنْ يُخْبَرَ أميرُ المؤمنين عبدُ الملكِ
 الحِجَّاجَ بما قلتَ فيه — ومرجعك إلى العراق — فيَضْغَنهُ عليك ؟ قال :
 كلا والله إني ما رَطَلْتُ بِيَدِي قَطُّ أَحَدًا أَرَزَنَ مِنْهُ .

وهذا والله — أبقاك الله — الغلطُ البينُ والغدرُ الملتصقُ وتحسينُ
 ١٨ فارطِ الخطأ ، لأنَّه ليس كلُّ راجحٍ وعاقِلٍ بناصحٍ لصاحبِ السرِّ ، ولو كان

أخوه كذلك كان أمره إليه أهمّ وشأنه أولى . والأعلى من الناس لا يكفّ
الأدنى هذه المؤونة ، وإنما يفعلها الأدنون بالأعلىين رغبة ورهبةً وتحسناً
عندهم لحاجتهم إليهم ٢

وأكثر من يُذيع أسرار الناس أهلهم وعبيدُهم وحاشيتهم وصبيانهم ،
ولهم عليهم اليد والسلطان . فالسرّ الذي يودعه خليفة في عامل له يلحقه زينة
وشينه أخرى أن لا يكتمه . وهذا سبيل كل سرّ يستودعه الجلالة
والعطاء ومن لا تبلغه العقوبة ولا تلحقه الالامة

وقال سليمان بن داود في حكمته : ليكون أصدقاؤك كثيراً ، وصاحب سرّك
واحداً من ألف . وليس معنى الحديث أن تعدّ بمن تعرف ألفاً وتفضي إلى
واحدٍ بسرّ . إن لم يكن ذلك الواحد موضعاً للأمانة في السرّ ، لكنه قيل :

رجلٌ يساوي ألف رجل ورجلٌ لا يساوي رجلاً ، وكقول رسول الله صلى
الله عليه وسلم : الناس كابل مائة لا يوجد فيها راحلة . فكلّ ذلك يراد به
أن الفضل قليل والنقص قليل لا على نسب ما يتلقاه الاجتماع من هذه
الأعداد ، لأننا قد نجد الرجل يوزن بالامة ونجد الامة لا تساوي قلامة ظفر

ذلك الرجل . فإذا كان من تقع عليه هذه الشريطة معدوماً سيما من يوثق
بحلمه وعقله وأمانته ونصحه ومن لا ضرر عليه ولا نفع له في السرّ الذي
يضمّر ولا يخرم عليه كتمانهُ ، ومن قد واثق على نفسه بالسرّ والحفظ ، فإنه
ليس كل من ضمّن فلم يضمن ضامناً ولا من استودع فلم يقبل مستحفظاً ولا
من استخلف فلم يخلف خائناً ، وإنما يلحقه الحمد والذم والأجر والإثم إذا

(١٣) كذا ، ولعل الصواب : كثير — (١٨) كذا فوق السطر ، وفي المتن : مستحفظ (١)

- ضَمِنَ الأَمَانَةَ ثُمَّ خَتَرَهَا . فَكَأَنَّ الْقَوْمَ قَالُوا : لَا تُودِعَنَّ سِرَّكَ أَحَدًا ، وَإِلَّا
فَتَى تَجِدُ رَجُلًا فِيهِ الصِّفَةُ الَّتِي وَصَفَ بِهَا مَسْكِينُ الدَّارِمِيِّ نَفْسَهُ حَيْثُ يَقُولُ :
- إِنِّي أَمْرٌ مَتَّى الْحَيَاءُ الَّذِي تَرَى أَنْوَى بِأَخْلَاقٍ قَلِيلٍ خَدَاعُهَا ٣
أَوْ أَخِي رَجُلًا لَسْتُ أُطْلِعُ بَعْضَهُمْ عَلَى سِرٍّ بَعْضٌ غَيْرَ أَنِّي جَمَاعُهَا
يُظَلُّونَ شَتَّى فِي الْبِلَادِ وَسِرُّهُمْ إِلَى صَخْرَةٍ أَعْيَا الرِّجَالِ انْصِدَاعُهَا
- وَقِيلَ لِرَجُلٍ : كَيْفَ كَتَمْتَكَ لِلسِّرِّ ؟ قَالَ : أَجْعَلُ قَلْبِي لَهُ قَبْرًا أَدْفِنُهُ فِيهِ إِلَى ٦
يَوْمِ النُّشُورِ . وَقَالَ الْآخَرُ :

* وَاکْتُمُ السِّرَّ فِيهِ ضَرْبَةُ الْعَنْقِ *

- وَهَذِهِ صِفَاتٌ مُوجُودَةٌ بِالْأَقْوَالِ مَعْدُومَةٌ بِالْأَفْعَالِ ، وَالْمَغْرُورُ مِنْ اغْتَرَبَ بِمَا ٩
يَعِدُّهُ الْوَاعِدُ مِنْهَا دُونَ أَنْ يَبْلُغَ الْخَبَرَ . وَالَّذِي جَرَّبَنَاهُ وَوَجَدَنَاهُ أَنْ أَكْثَرَ
مَنْ يُفَضِّى إِلَيْهِ بِالشَّيْءِ يَبْلُغُ مِنْ إِذَاعَتِهِ وَنَشْرِهِ مَا لَا يَبْلُغُهُ الرَّسُولُ الْمُسْتَحْفَظُ
الْمَعْنَى بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ الْحَمُودُ الْمُجَازَى عَلَى أَدَائِهَا ، حَتَّى رُبَّمَا كَانَ لَا يَبْلُغُ ١٢
فِي الْإِذَاعَةِ لِمَنْ أَرَادَهَا أَنْ يَقْصِدَ لِلْبَلَاغَةِ مِنَ الرِّجَالِ الْمَعْرُوفِ بِالنِّمَةِ
وَالْتَقَاتِ فِيَوْمِهِ أَنَّهُ قَدْ اسْتَحْفَظَهُ السِّرُّ فَيُشِيعُ عَلَى لِسَانِهِ كَمَا يُشِيعُ الضَّوُّ
فِي الظُّلُمَةِ . وَهَذَا فَعْلُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ أَحَبَّ أَنْ يُشِيعَ ١٥
إِسْلَامُهُ ، فَقَالَ : مَنْ أَنْتُمْ أَهْلُ مَكَّةَ ؟ قِيلَ لَهُ : جَمِيلُ بْنُ النُّحَيْتِ ، فَأَتَاهُ
فَأَخْبَرَهُ بِإِسْلَامِهِ وَسَأَلَهُ أَنْ يَكْتُمَهُ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يُمَسِّ وَبِمَكَّةَ أَحَدٌ لَمْ يَعْلَمْ بِإِسْلَامِ
عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . ثُمَّ يَكُونُ مِنْ أَكْثَرِ الْأَعْوَانِ عَلَى إِظْهَارِ السِّرِّ الِاسْتِعْهَادُ ١٨
فِيهِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ نَشْرِهِ ، فَإِنَّ النَّهْيَ أَغْرَى لِأَنَّهُ تَكْلِيفُ مُشَقَّةٍ ، وَالصَّبْرُ عَلَى
التَّكْلِيفِ شَدِيدٍ وَهُوَ خَطِرٌ ، وَالنَّفْسُ طَيَّارَةٌ مُتَقَلِّبَةٌ تَعْشَقُ الْإِبَاحَةَ وَتُغْرِمُ

بالإطلاق . ولعلّ رجلاً لو قيل له لا تمسح يدك بهذا الجدار ، وهو لم يمسحها به
 قطّ ، غرّى بأن يفعل . وكذلك ما حدث به من السرّ فلم يؤمر بستره لعله ألا
 يخطر بباله ، لأنّه موجود في طبائع الناس الولوع بكل ممنوع والضجر بكل
 ٣ حصول . فتريد أن نعلم لم صار الإنسان على ما مُنع وإن كان
 لا ينفعه أحرص منه على ما أبيح من غير علة ولا سبب* إلا امتهان
 ٦ ما كثر عليه واستطراف ما قلّ عنده ، ولم أقبل على من ولّى عنه وولّى
 عن أقبل عليه ، ولم قالوا : إذا جدّت المسألة جدّ المنع . وقال الشاعر :

الحرّ يلحى والعصا للعبد وليس للملحف مثل الردّ

٩ ولم صار يتمي الشيء وينذر فيه النذور وينقطع إليه شوقاً ، فإذا ظفر به
 صدّ عنه وأخلق عنده ، ولم زهد الملوك فيما في أيديهم ورغبوا فيما في أيدي
 الناس . فنقول : إن الله تبارك وتعالى جعل لكل نفس مبلغاً من الوسع
 ١٢ لا يمكنها تجاوزه ولا تتسع لأكثر منه ، فكان معها فيما دون الوسع الفقر
 وخوف الإخوان وفيما تجاوزه غنى الغنى وأمن العدم . وبهذا وبمثله من البخل
 والحرص استخفت من أحتاج إليها وأعظمت من استغنى عنها ، وجعلها
 ١٥ توافقة مشتاقة مطرفة ملالة كثيرة النزاع والتقلب يستحكم عليها العنته
 ويتلى خبرها وصبرها من جزعها . ولولا هذه الخلل سقطت المحن ، فهي
 تعظم القليل بالضرورة إليه إن كان من أقواتها ، أو لشدة النزاع والشوق إن
 ١٨ كان من طرّف شهواتها ، فإن صنوف الشهوات كثيرة ولكل صنف منها
 أهل لا يحفلون بما سواه ، ويتعجب من الغريب النادر ويضحكها البديع

الطارئ ، إلا أنه إذا كثّر الغريب صار قريباً ، وإذا تجاوزَ المطلوبُ مقدار
 وسعِها وحاجتها فصار ظهرياً وفضلاً استخفت به . وقلّ في أعينها كثيره .
 وأعظمُ الأشياء عندَها قدرًا ما اشتدَّ إليه الفقرُ والحاجة . وإن قلَّ ضرره ،
 وأهونها عليها ما استغنى عنه . وإن عظمَ خطره ، وجعل لما يتوقُّ إليه ويشتاقه
 مكاناً من قواها له ، فإذا امتلأ ذلك المكانُ سروراً وقضى ذلك الأرب [وطراً
 ممّا كان طمّح إليه . وروى ممّا كان ظامئاً إليه ، انصرف عنه وقلاه . وحال
 عشقه بغضاً وشوقه ملالاً

والعلة في ذلك أن الدنيا دارُ زوالٍ وملال . ليس في كِيامها أن تثبت هي
 ولا شيء ممّا فيها على حالٍ واحدة ، وإنما الثبوتُ الدائمُ لدار القرار . فالسامةُ
 تلحقها في محبوبها كما تلحقها في مكروهها ، كما يُصيبُ المنتهى من الطعام
 والشراب والباه ، فإنه ليس شيء أبغضَ إلى من يتنأى فيه إلى غايته من
 النظر إلى ناحيته فضلاً عن مُلابسته ، إلى وقتِ عودةِ السببِ الأول
 فإذا كانت الطبائعُ تتشابه . ولكلِّ حاسةٍ قوّة ، فإذا امتلأت تلك
 القوّة من محسوسها لم تجد لها وراءه طعمًا ولا ريحًا وعادَ عليها بالضرر .
 فبعضُ النظر يُعَمّي والصوتُ الشديدُ يُصمّ والرائحةُ المنتنةُ تُبطل
 الشمّ والأطعمةُ الحارّةُ المحرّقةُ تبطل حاسةَ اللسان . وتطرّف كل واحدةٍ
 منها ، فبين الطيب عند من بعد عهده < به > أو الجماع والسمع وبينه
 < عند > من هو مغموس فيه . بونٌ بعيدٌ جدًّا في الخلاوة وحُسنِ الموقع .
 كل ذلك ما لم يأت المال والعلم ، فإنه كلما كثّر كان أشهى وأعجب . لأن قصد

الناس له ليس لطلب مقدار الحاجة وسد الخلة كما يريدُه أهل القناعة والزهادة ، وإنما يُرادُ إقمع الحرص ، والحرصُ لا حدَّ له ولا نهاية ، لأنَّه سعىٌ لا إجابة وإيضاعٌ لا لبغية . وهكذا قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : لو أنَّ لابنَ آدمَ واديين من ذهبٍ لابتغى إليهما ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . وقال بعضُ الحكماء

مَنْ كَانَ لَمْ يَغْنِ بِمَا يُغْنِيهِ فكلُّ ما في الأرض لا يُغْنِيهِ
قال الله عزَّ وجلَّ وَيُحِبُّونَ أَلْمَالَ حُبًّا جَمًّا . وقال وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ . وقال الشاعر

وَالنَّاسُ إِنْ شَبِعَتْ بَطُونُهُمْ فَعِيُونُهُمْ فِي ذَاكَ لَا تَشْبَعُ
فأما الحديثُ الذي جاء : لا يشبعُ أربعٌ من أربعة : أرضٌ من مَطَرٍ وعينٌ من نظَرٍ وأُنْثَى من ذَكَرٍ وعالمٌ من عِلْمٍ ، فإنَّ العينَ لا تشبعُ في الجملة كما لا يشبعُ الخيشومُ من الاستنشاق . فأما من < يشبع من > صنفٍ ممَّا يراه دونَ صنفٍ فإنَّه يشبعُ ويروى ويصدُّ ويصدفُ إلى غيره . وأما العلمُ فإنَّه أوسعُ من أن يحاطَ به ، فمن طلبه لشرفه ونفخه فإنَّه لا حدَّ له ولا نهاية ، ولم يزدَدْ له طلباً إلا ازدادَ فيه رغبةً ، ومن طلبَ منه مقدارَ كفايته وحاجته كفاهُ منه اليسير . على أنَّه لا يملكُ من كثرِ علمه أن يرى فيه الغنى والكبرياء أيضاً ، وقد يملُّ كما يملُّ كلُّ شيءٍ وتملُّ العينُ أيضاً منه ومن المال

وقيل : اثنانِ منهومان طالبُ علمٍ وطالبُ دُنْيَا . وهذه النِّهْمَةُ تدلُّ على

(٧-٨) الفجر : ٢٠ والعاديات : ٨ — (١٢) < يشبع من > : سقط من

الأصل وأضفناه — (١٩) النِّهْمَةُ ، صحناه : القصة ٢

الخروج عن العقل لأنَّ النَّهْمَ تَجَاوَزَ الْقَدْرَ . * وَأَمَّا الْحِرْصُ عَلَى الْمَمْنُوعِ الَّذِي لَا يُنْتَفَعُ بِهِ وَالْعِجْبُ مِمَّا لَا يُتَعَجَّبُ مِنْ مِثْلِهِ ، فَلَيْسَ مِنْ أَخْلَاقِ الْعُقْلَاءِ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ فِي أَخْلَاقِهِمْ فَلَا نَظَرَ فِيهِ وَلَا قِيَاسَ عَلَيْهِ . وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ ٣ مَنْ أَسْتَوْحَشَ مِنَ الْحُجَّةِ وَشَرَّدَ عَنْ عِلْمِ الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ

وإفشاء السرِّ إِنَّمَا يُوَكَّلُ بِالْخَبَرِ الرَّائِعِ وَالْخَطْبِ الْجَلِيلِ وَالْدَفِينِ الْمَغْمُورِ وَالْأَشْنَعِ الْأَبْلَقِ ، مِثْلُ سِرِّ * الْأَدْيَانِ لِغَلَبَةِ الْهَوَىٰ عَلَيْهَا وَتَضَاعُنِ ٦ أَهْلِهَا بِالْاِخْتِلَافِ وَالتَّضَادِّ وَالْوَلَايَةِ وَالْعِدَاوَةِ ، وَمِثْلُ سِرِّ الْمُلُوكِ فِي كَيْدِ أَعْدَائِهِمْ وَمَسْكُونِ شَهَوَاتِهِمْ وَمَسْتَوْرِ تَدْبِيرَاتِهِمْ ، ثُمَّ مَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْعُظَمَاءِ وَالْجَلَّةِ ، لِنَفَاسَةِ الْعَوَامِّ عَلَى الْمُلُوكِ وَأَنَّهُمْ سَمَاءٌ مُظِلَّةٌ عَلَيْهِمْ أَعْيُنُهُمْ إِلَيْهَا ٩ سَامِيَةٌ وَقُلُوبُهُمْ بِهَا مُعَلِّقَةٌ وَرَغْبَاتُهُمْ وَرَهَبَاتُهُمْ إِلَيْهَا مَصْرُوفَةٌ . ثُمَّ عِدَاوَاتُ الْإِخْوَانِ ، فَإِنَّمَا صَارَتِ الْعِدَاوَةُ بَعْدَ الْمَوَدَّةِ أَشَدَّ لِأُطْلَاعِ الصَّدِيقِ عَلَى سِرِّ صَدِيقِهِ وَإِحْصَائِهِ مَعَايِمَهُ ، وَرَبَّمَا كَانَ فِي حَالِ الصَّدَاقَةِ يَجْمَعُ عَلَيْهِ ١٢ السَّقَطَاتُ وَيُحْصِي الْعُيُوبَ وَيَحْتَفِظُ بِالرَّقَاعِ ، إِرْصَادًا لِيَوْمِ النَّبَوءَةِ وَإِعْدَادًا لِحَالِ الصَّرِيمَةِ . وَقَدْ شَكَاهُ بَعْضُ الْمُلُوكِ تَنْقَبَ الْعَوَامِّ عَنْ أُمْرَارِ الْمُلُوكِ فَقَالَ

١٥ مَا يُرِيدُ النَّاسُ مِنَّا مَا يَنَامُ النَّاسُ عِنَّا
لَوْ سَكَنَّا بَاطِنَ الْأَرَضِ لَكَانُوا حَيْثُ كُنَّا
إِنَّمَا هُمُومُهُمْ أَنْ يَنْشُرُوا مَا قَدْ دَفَنَّا

* وَلَمْ نَرَ حُبَّ الطَّعْنِ عَلَى الْمُلُوكِ وَالتَّجَسُّسَ عَنْ أَخْبَارِهِمْ وَعِشْقَ نَشْرِ ١٨ الْمَعَايِبِ وَاسْتِحْلَالَ الْغَيْبَةِ ظَاهِرًا فِي طِبَاعِ النَّاسِ لَا يَكَادُ يَنْجُو مِنْهُ

أَحَدُهُمْ ، إِلَّا مَنْ رَجَعَ حِلْمُهُ وَعَظُمَتْ مُرُوءَتُهُ وَظَهَرَ سُؤْدُودُهُ وَأَشْتَدَّ
وَرَعُهُ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : الْغِيْبَةُ فَاكِهَةُ النَّسَاكِ . وَرَوَّوْا عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ
٣ قَالَ : الْفَاسِقُ لَا غِيْبَةَ لَهُ . وَقَالَ آخَرُ : أَتُرَاعُونَ مِنْ ذِكْرِ الْفَاسِقِ ؟ أَذْكُرُوهُ
يَعْرِفُهُ النَّاسُ

وَلَمْ نَرِ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ رَخَّصَ فِي اغْتِيَابِ مُؤْمِنٍ ، بَلْ ضَرَبَ الْمَثَلَ فِي الْغِيْبَةِ
بَأَكْرَمِهِ مَا تَكَرَّرَهُ النَّفُوسُ وَمَا تَخْتَارُ مِنْهُ الْمَوْتُ عَلَى الْحَيَاةِ ، فَقَالَ وَلَا تَجَسَّسُوا
٦ وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُمُ بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا
فَكَرَهُتُمُوهُ . وَاغْتِيَابُ النَّاسِ جَمِيعًا خُطَّةٌ جَوْزٌ فِي الْحُكْمِ وَسَقُوطٌ فِي
٩ الْحِمَّةِ وَسَخَافَةٌ فِي الرَّأْيِ وَدَنَاءَةٌ فِي الْقِيَمَةِ وَكُلْفَةٌ عَرِيضَةٌ وَحَسَدٌ
وَنَفَاسَةٌ قَدْ اسْتَحْوَذَتْ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ وَغَلَبَتْ عَلَى طَبَائِعِهِمْ وَتَوَكَّدَتْ
لِسُوءِ الْعَادَةِ عِنْدَهُمْ وَلَعَلُّوا الشَّرَّ عَلَى الْخَيْرِ وَكَثُرَ الدَّغْلُ وَالنَّغْلُ وَالْحَسَدُ فِي
١٢ الْقُلُوبِ . فَلَسْتَ تَرَى مِنْهَا نَاجِيًا ، أَمَّا نَاطِرٌ^١ بِعَيْنِ عَدْلٍ وَإِنْصَافٍ فَهُوَ يَرَى
مَا يُنْكِرُ فَيُبْدُو فِي وَجْهِهِ وَلِسَانِهِ ، وَأَمَّا نَاطِرٌ^٢ بِعَيْنِ الْبَغْضَاءِ وَالْعَدَاوَةِ فَهُوَ
كَثِيرًا مَا يَجِدُ مِنَ الْعُيُوبِ فِي عَدُوِّهِ مَا يُعِينُهُ عَلَى التَّخَرُّصِ عَلَيْهِ فَيَقْوِيهَا وَيَزِيدُ
١٥ فِيهَا ، وَإِنْ عَدِمَ الْحَقُّ تَقْوَلَ وَقَبِيحَ الْحَسَنِ وَزَادَ فِي قُبْحِ الْقَبِيحِ . وَالْحَدِيثُ
كُلُّهُ إِلَّا مَا لَا بَالَ بِهِ ذَكَرُ النَّاسِ وَلَعُوْهُ وَخَطَلُوْهُ وَهَجَرُوْهُ وَهَذَاءُ وَغِيْبَةٌ وَهَمْزٌ وَلَمْزٌ .
وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ لِأَبْنِهِ : يَا بُنَيَّ إِنَّمَا الْإِنْسَانُ حَدِيثٌ^٣ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ
١٨ تَكُونَ حَدِيثًا حَسَنًا فَأَفْعَلْ .

وَكُلُّ سِرٍّ فِي الْأَرْضِ إِنَّمَا هُوَ خَبْرٌ عَنْ إِنْسَانٍ^٤ وَطَى^٥ عَنْ إِنْسَانٍ ، فَلَهُ فِي

(٣) أُرَاعُونَ د — (٩) دَنَاءٌ د — (١٢) بَغِيرُ عَدْلٍ د — (١٣) نَظَرُ د —

(١٤) كَثِيرٌ مَا د — (١٩) أَوْ طَى د

الغِيَمَةِ أَكْثَرُ الْحُظِّ ، وَجُلُّهَا كُفْلَةٌ لَا ضَرُورَةَ . يَرَى صَاحِبُهَا أَنَّهُ قَدْ أَهْلَ
 مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ وَغَفَرَ ذُنُوبَهَا ، وَأَلْغَى عُيُوبَهَا ، وَقَصَدَ قَصْدَ غَيْرِهِ فَتَشَاغَلَ عَمَّا
 يَعْنِيهِ بِمَا لَا يَعْنِيهِ ، فَأَنْكَرَ أَقْوَالَ وَأَفْعَالَهُ * وَهَجَّنَ تَدْبِيرَهُ وَتَعَجَّبَ مِنْ ٢
 مَقَابِحِهِ وَجَهَدَ نَفْسَهُ فِي تَفْقُّدِ أُمُورِهِ ، لَيْسَ ذَلِكَ عَنْ عِنَايَةٍ بِصَلَاحِهِ وَلَا مُحِبَّةٍ
 لِتَقْوِيمِهِ وَتَهْذِيبِهِ وَلَا أَنَّهُ مُسَيِّطِرٌ عَلَيْهِ وَلَا مَحْمُودٌ عِنْدَهُ عَلَى مَا عُنِيَ بِهِ مِنْ شَأْنِهِ ،
 بَلْ هُوَ عِنْدَهُ عَيْنُ الْمَذْمُومِ . وَهَذَا جُلُّ حَدِيثِ الْبَشَرِ وَشُغْلِهِمْ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ٦
 قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : فَضُولُ النَّظَرِ تَدْعُو إِلَى فَضْلِ الْقَوْلِ وَفُضُولِ
 الْخَوَاطِرِ تَبْعُثُ عَلَى الْهَوِ وَالْخَطَلِ . وَلَوْ كَانَ الرَّجُلُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا
 يَعْنِيهِ وَلَا يَتَكَلَّفُ مَا قَدْ كَفِيَهِ ، قَلَّ كَلَامُهُ . وَلَوْ حَكَمَ الْعَدْلُ فِي أُمُورِهِ وَفِيمَا ٩
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَالِقِهِ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِ وَمُعَامَلِيهِ ، لَطَابَ عَيْشُهُ وَخَفَّتْ مَوْوَنَتُهُ
 وَالْمَوْوَنَةُ عَلَيْهِ . فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَخْلُقْ مَذَاقًا أَحْلَى مِنَ الْعَدْلِ وَلَا أَرْوَاحَ
 عَلَى الْقُلُوبِ مِنَ الْإِنْصَافِ ، وَلَا أَمْرًا مِنَ الظُّلْمِ وَلَا أَبْشَعَ مِنَ الْجَوْرِ ١٢

وَقَالَ بَعْضُ الْمُتَقَدِّمِينَ : إِنَّمَا يَعْرِفُ الظُّلْمَ مَنْ حُكِمَ بِهِ عَلَيْهِ . وَمَنْ اسْتَعْمَلَ
 الْعَدْلَ دَلَّ عَلَى أَنَّ النَّاسَ يَجِدُونَ مِنْ طَعْمِهِ وَطَعْمُ الظُّلْمِ إِذَا فَعَلَهُ بِهِمْ مِثْلَ الَّذِي
 يَجِدُ إِذَا ظَلَمَ ، فَكَرِهَ لَهُمْ مَا كَرِهَ لِنَفْسِهِ فَأَنْصَفَ وَلَمْ يَظْلَمْ . وَيَتَنَظَّامُ النَّاسُ فِيمَا ١٥
 بَيْنَهُمْ بِالْشَّرِّ وَالْحِرْصِ الْمَرْكَبِ فِي أَخْلَاقِهِمْ ، فَلِذَلِكَ احْتَأَجُّوا إِلَى الْحُكْمِ وَقَدْ
 أَطْلَقَ لَهُمْ تَصْرِيفُهَا ، وَأَخْلَاقُهُمْ وَأَمَانَتُهُمْ الَّتِي رَدَّتْ إِلَيْهِمُ الْأَحْكَامَ فِيهَا مَا جَنَانِيَّتُهُ
 عَلَيْهِمْ أَكْثَرُ مِمَّا يَطَالِبُهُمْ بِهِ الْخَصُومُ ١٨

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ . إِنَّ مِنْ أَصْعَبِ الْأَعْمَالِ إِنْصَافَكَ فِي نَفْسِكَ ،

وَمُؤَاسَاتِكَ أَخَاكَ فِي مَالِكَ ، وَذَكَرَ اللَّهُ ، أَمَا إِنِّي لَا أَعْنِي قَوْلَ : سُبْحَانَ اللَّهِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ - وَإِنَّ ذَلِكَ لَمَنْ ذَكَرَ اللَّهَ - وَلَكِنْ
ذَكَرَهُ عِنْدَ مَا يَعْزِضُ مِنَ الْأُمُورِ ، فَإِنْ كَانَ طَاعَةً لِلَّهِ فَعَلَّتَهُ وَإِنْ كَانَ مَعْصِيَةً
لِلَّهِ اجْتَنَبَتْهُ

وَرُوِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ : ثَلَاثَةٌ فِي ظِلِّ عَرْشِ اللَّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ :
٦ رَجُلٌ لَمْ يَعْيبْ أَخَاهُ بَعِيبٍ فِيهِ مِثْلُهُ حَتَّى يُصْلِحَ ذَلِكَ الْعَيْبَ مِنْ نَفْسِهِ فَإِنَّهُ
لَا يُصْلِحُهُ حَتَّى يَهْجُمَ عَلَى آخَرٍ فَتَشْغُلُهُ عِيُوبُهُ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ ، وَرَجُلٌ لَمْ
يُقَدِّمْ يَدًا وَلَا رِجْلًا حَتَّى يَعْلَمَ أَفَى طَاعَةِ اللَّهِ هُوَ أَمْ فِي مَعْصِيَتِهِ ، وَرَجُلٌ لَمْ
يَلْتَمَسْ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مِثْلَ مَا يُعْطِيهِمْ مِنْ نَفْسِهِ . أَمَا تُحِبُّونَ أَنْ تُنْصِفُوا ؟

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ
مَالِهِ وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ وَشَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ
١٢ وَقَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ : يَا بَنَى إِسْرَائِيلَ أَيْرَى أَحَدُكُمْ الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ
أَخِيهِ وَيَغْبِي عَنْ الْجِدْعِ الْمُعْتَرِضَ فِي عَيْنِهِ

وَقِيلَ لِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ : مَا أَفْضَلُ أَعْمَالِكَ ؟ قَالَ : تَرَكِي مَا لَا يَعْنِينِي
١٥ وَقَالَ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ : أَعْيَيْتَنِي ثَلَاثَ خِلَالٍ : تَرَكِي مَا لَا يَعْنِينِي وَدِرْهَمٌ
مِنْ حِلِّهِ وَأَخُ إِذَا احْتَجْتُ إِلَى مَا فِي يَدَيْهِ بَدَلَهُ لِي

وَمَا أَحَقَّ مَنْ أُحْصِيَتْ أَلْفَاظُهُ وَلَيْسَ مِنْ قَوْلٍ يَبْدُرُ مِنْهُ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ
عَتِيدٌ ، وَمَنْ أُحْصِيَتْ عَلَيْهِ مِثَاقِيلُ النَّارِ وَاسْتُشْهِدَ عَلَيْهِ جِلْدُهُ وَجَوَارْحُهُ ، أَنْ
يَضْبُطَ لِسَانَهُ . وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَنَارِ : مَنْ عَدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ

إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ

وكلُّ امرئٍ خَسِيبٌ نَفْسِهِ غَيْرُ مَا خُوِذَ بِهِ ، وَهُوَ الْوَحِيدُ دُونَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالْقَرَابَةِ . وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ — وَقَوْلُهُ الْحَقُّ — : كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ . وَقَالَ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ

٦ . وَلَيْسَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا مَعَ السَّيْفِ وَالسَّوْطِ .
وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : شَيْئَانِ لَا صَلَاحَ لِأَحَدِهِمَا إِلَّا بِالْآخَرِ : اللِّسَانُ وَالسَّيْفُ
وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ أَكْثَرَ مَا يَتَنَاجَى بِهِ الْمُتَحَدِّثُونَ ، وَجَدْتَ أَكْثَرَ
السَّائِلِينَ يَسْأَلُ عَمَّا لَا يَعْنِيهِ وَيَكْثُرُ لِمَا لَا يَكْرَهُهُ وَيُعْنَى بِمَا لَا يَنْفَعُهُ
٩ وَلَا يَضُرُّهُ ، وَأَكْثَرَ الْمُجِيبِينَ يَجِيبُ وَلَمْ يُسْأَلْ وَيَتَكَلَّفُ مَا لَا يَعْلَمُ ، وَلَوْ قَالَ
لَهُ قَائِلٌ مَنْ سَأَلَكَ لَأَفْتَضَحَ وَلَوْ حَاجَّهُ فِيمَا ادَّعَى وَوَقَفَهُ لَأَنْقَطَعَ . قَالَ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ : قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ
١٢

وَمَرَّةً هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِيَعُضِ أَهْلِ الْكُلْفَةِ وَالْفُضُولِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ
ذِيَالَةٌ يَسْحَبُهَا فِي التُّرَابِ ، فَقَالَ لَهُ الْمُتَكَلِّفُ : يَا هَذَا إِنَّكَ قَدْ أَفْسَدْتَ ثَوْبَكَ ،
قَالَ وَمَا يَضُرُّكَ مِنْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : لَيْتَكَ أَلْقَيْتَهُ فِي النَّارِ ، قَالَ : وَمَا يَنْفَعُكَ مِنْ
١٥ ذَلِكَ ؟ فَأَحْمَهُ أَقْبَحَ الْإِفْخَامِ . وَلَوْ تَهَيَّأَ لِلْمُتَكَلِّفِينَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِثْلُ صَرَامَةِ
هِشَامٍ لَأَزْدَجَرَ مَنْ بِهِ حَيَاءٌ مِنْهُمْ وَلَقَلَّتِ الْفُضُولُ وَالْكُلْفُ وَالْغِيْبَةُ
قَالُوا : وَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ أَذَلَّ مِنْ مُعْتَابٍ ، لِأَنَّهُ يُخْفِي شَخْصَهُ وَيُطَامِنُ
١٨

حِسَّهُ وَيَغْضُ مِنْ صَوْتِهِ ، وَلَا يَرِيدُ بِمَا يَنَالُهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بَأَن يَرْفَعَ مِنْ
قَدَرِ خَصْمِهِ وَيُعْظَمَ مِنْ شَأْنِهِ

- ٣ قال معاوية : أتدري مَنْ النَبِيلُ ؟ هُوَ الَّذِي إِذَا رَأَيْتَهُ هَبَّتْهُ وَإِذَا غَابَ
عَنْكَ اُغْتَبَتْهُ . وَهِيَ لَعَمْرَى سَبِيلُ الْعُظَاءِ عِنْدَ الْعَوَامِّ وَالْمُلُوكِ عِنْدَ
الرَّعِيَّةِ وَالسَّادَةِ عِنْدَ الْعَبِيدِ ، فَلَمْ يَأْخُذِ الْمُغْتَابُ مِمَّنْ اغْتَابَهُ شَيْئًا بَعْضِيَّتِهِ
٦ إِيَّاهُ إِلَّا وَالَّذِي أُعْطِيَ مِنَ الْهَيْبَةِ عِنْدَ حُضُورِهِ أَكْثَرُ مِنْهُ . وَلَوْ كَانَ الْمُغْتَابُ
لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْغِيْبَةِ إِلَّا مِمَّنْ يَخَافُ سَطْوَتَهُ كَانَ أَعْذَرُ ، وَلَكِنَّ الْوُجْهَ الْمُتَمَكِّنَ مِنْهُ
يَحْمِلُهُ عَلَى اغْتِيَابِ عَبْدِهِ وَأَمَّتِهِ فَضْلًا عَنْ كُفُوِهِ وَنَظِيرِهِ ، وَيَغْتَابُ الرَّجُلَ عِنْدَ
٩ عَدُوِّهِ وَالْمُشَاحِنَ لَهُ مُسَاعَدَةً لَهُ بِالسُّخْفِ وَتَقَرُّبًا إِلَيْهِ بِالْمَهَانَةِ وَالضَّعْفِ ، مِنْ غَيْرِ
أَنْ يَكُونَ لَهُ عَلَيْهِ طَوْلٌ أَوْ يَلْتَمِسَ مِنْهُ عَلَى مَا تَقَرَّبَ بِهِ إِلَيْهِ جِزَاءً أَوْ شُكْرًا .
ثُمَّ لَعَلَّهُ يَنْكَفِيءُ إِلَى الَّذِي اغْتَابَهُ وَقَصَبَهُ مِنْ سَاعَتِهِ وَيَوْمِهِ ، فَيُعْطِيهِ فِي عَدُوِّهِ
الَّذِي اغْتَابَهُ عِنْدَهُ أَيْضًا مِثْلَ ذَلِكَ وَأَكْثَرَ مِنْهُ ، لَا لِعِلَّةٍ أَيْضًا وَلَا مَرْفَقٍ
وَلَا رِبْحٍ أَكْثَرَ مِنَ الذَّلَّةِ الَّتِي يَجِدُهَا فِي نَفْسِهِ وَالضَّعْفِ فِي مَنَّتِهِ ، كَمَا يُعْظَمُ
الْغَنَى بِغَيْرِ ثَمَنِ وَيَحْتَقِرُ الْفَقِيرُ بِغَيْرِ سَبَبٍ ، فَمَتَى كُوشِفَ أَوْ عُوتِبَ لَبِسَتْهُ
١٥ ذِلَّةٌ أُخْرَى مِنَ الْكِطَّةِ بِالْمَعَاذِيرِ الْكَاذِبَةِ وَالْإِعْتِصَامِ بِالْإِيمَانِ الْفَاجِرَةِ ، وَمَنْ
كَانَتْ هَذِهِ دُرْبَتُهُ فَهُوَ حَرِيٌّ أَنْ يُطْلَعَ عَلَى دِخْلَةِ أَمْرِهِ فَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ
عُذْرٌ وَلَا يُصَدَّقُ فِي قَوْلٍ وَلَا حَلْفٍ ، وَقَدْ تَسَرَّبَلَتِ الذَّلَّةُ وَتَدَّرَعَ الْخُضُوعَ .
١٨ وَلَيْسَ مِنْ سُوسِ النَّفْسِ الْكَرِيمَةِ الشَّهْمَةُ أَنْ تَلْقَى النَّاسَ بِخِلَافٍ مَا يَخْلُقُونَ
بِهِ ، مَا لَمْ تَأْتِ صَرُورَةٌ يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى كَيْدٍ وَغِيْلَةٍ أَوْ مَكْرٍ وَحِيلَةٍ . وَيُثَارُ

بالغيبَةِ فيها الرأى الأصيل من مكانه ، فيفعل ذلك العاقل فيما يحِلُّ له ويحسنُ به ، بعد أن تُعَيِّمه الحيلةُ في استِصلاح ذلك العدوِّ بالرفق والملاينة . وإِنَّمَا قيل : قلَّ مَنْ أَعْتَذَرَ إِلَّا كَذَبَ ، لِكثرةِ النَّطَفِ في الناسِ وضعفِ أنفُسِهِمْ ٣ على الإقرار بالذنب . فلا ذِلَّةُ الضَّعْفِ الثاني في الاعتذار نهت عن كُلفةِ الضَّعْفِ الأوَّلِ في الاغتياب ، ولا كُلفةُ الضَّعْفِ الأوَّلِ صانت عن ذِلَّةِ الضَّعْفِ الثاني . وعلى أن أكثر مَنْ يُعْتَذِرُ إليه ليسَ بقابلٍ لِّلْعذرِ على حقيقةٍ ، ٦ وإن أظهرَ القبولَ ، لما جرَّب من سَخاءِ النفسِ بالإيمانِ وبعْدِهِم من الإقرار بالذنب ، ما لم تأتِ حُجَّةٌ واضحةٌ ودليلٌ شاهدٌ عدلٌ

وإذا كانت هذه سبيلَ المعتذرِ إليه ، فيحقُّ على المعتذرِ — إن كانت في ٩ نفسه قيمةٌ — أن لا يعتذرَ إِلَّا إلى مَنْ يُحِبُّ أن يجدَ له عذراً ، ولا يعجلَ إلى الهين وهو يجدُ للحُجَّةِ مكاناً . وأكثرُ مَنْ نعتذرُ إليه إنما نفعَلُ ذلك به خوفاً من سقطته وإبقاءً لسلطانِه . والمتفقَّهون يتأوَّلون في الإيمان السَّاطانية ما يباحقُ ١٢ بها عندَ السُّلطانِ التَّهمةَ ويلزمُهم الظَّنَّةُ ، سِيَّما في الأمور التي في الإقرار بها إباحةُ الدمِ والمالِ وهتكِ السِّترِ . ولا حَسَمَ لهذا الداءِ إِلَّا بأطراحِ الفضولِ وسلامةِ اللسانِ من أن يبلغَ في الأعراضِ ويستسرَّ بالعضيةِ والبُهِتِ ١٥

قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم : المسلمُ من سلِمَ المسلمون من لسانِه ويده ، ومن لم يسلمِ الناسُ منه فليسَ سَالِماً من نفسه . وقال القائل : أحرُسُ أخاك إِلَّا من نفسه . وقالوا مقتلُ الرجلِ بين فكَّيهِ . وكُتِبَ على بعضِ أبوابِ المُدُنِ بالمُسندِ : أحفظ رأسَكَ . وقال الأول : قد تَصِلُ النِّصَالُ إلى الإخوانِ ١٨

(٤) لعل الصواب : عن — (٥) الأولى — (٧) لعل انصواب : الناس —

(١٢) لعل الصواب : من سقطته — (١٥) يبلغ — (١٩) بالسند —

فُتْسَخَرَجَ ، وأمثالُ النِصالِ من القولِ إذا وَصَلَتْ إلى القلبِ لم تُسْتَخَرَجَ
أبدًا . وقالَ بهرامُ ، وَسَمِعَ في الليلِ صَوْتَ طائرٍ فَتَحَدَّاهُ بِسَهْمٍ وهو
لا يراه ٣ إلا أَنَّهُ تَتَبَعَ الصَوْتَ فَصَرَعَهُ ، فَلَمَّا صَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ : وَالطَيْرُ
أَيْضًا لَوْ سَكَتَ كَانَ خَيْرًا لَهُ . وقيل : ما شئٌ أَحَقَّ بِطُولِ سِجْنٍ من لسانِ .
وقيل : إِنَّهُ يَسْأَلُ اللِّسَانُ الأَعْضَاءَ في كُلِّ يَوْمٍ فيقول : كيفَ أَنتَ ، فيَقُلْنَ :
بِخَيْرٍ إِنْ تَرَكْتَنَا . وقالَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ : وهل
يُكِبُّ النَّاسُ عَلَى مَنَاحِرِهِمُ في النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ السِّتَمِ

وقال عيسى عليه السلام : أَعْمَالُ الْبِرِّ ثَلَاثَةٌ : الْمُنَاطِقُ وَالنَّظَرُ وَالصَّمْتُ ،
فَمَنْ كَانَ مِنْطِقُهُ في غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَدْ لَعَا ، وَمَنْ كَانَ نَظَرُهُ في غَيْرِ اعْتِبَارٍ
فَقَدْ سَهَا ، وَمَنْ كَانَ صَمْتُهُ في غَيْرِ تَفَكُّرٍ فَقَدْ هَا . فَأَنْظُرْ بِأَيِّ الْأَمْرَيْنِ قَطَعْتَ
عَمْرَكَ : أِبَالِحِكْمَةِ أَمْ بِاللَّغْوِ . وَأَنْظُرْ كَيْفَ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ بِخَيْرٍ
مِنْ عِبَادِهِ فَقَالَ : وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وقال : وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ
أَعْرَضُوا عَنْهُ . وقال : وَإِذَا أَمَرُوا بِاللَّغْوِ مَرَّوًا كِرَامًا . وصانَ عَنْهُ أَسْمَاعُ أَهْلِ
الْجَنَّةِ وَالسِّتَمِ فَقَالَ : لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا
وقال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْعِبَادَةُ عَشْرَةُ أَجْزَاءٍ تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي
الصَّمْتِ . وقالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ : أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الصَّبْرُ
وَانْتِظَارُ الْفَرَجِ

وقال بعضُ الحكماء : لو لم يكن للصامت في صمته إلا الكفاية لأن يتكلم
بكلامٍ ويحكى عنه مُحَرَّفًا فيضطرَّ إلى أن يقول : ليس هكذا قلتُ إنما
قلتُ كذا وكذا فيكون إنكاره إقرارًا واعترافه بما حكى عنه شاهدًا لمن

وَشَى بِهِ وادَّعاهُ التَّحْرِيفُ غَيْرَ مَقْبُولٍ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ بَبَيِّنَةٍ بِهَا ، لَكَانَ
 ذَلِكَ مِنْ أَكْثَرِ فَضَائِلِ الصَّمَتِ . وَرَبَّمَا ذَكَرَ رَجُلٌ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَكَانَ
 ٣ ذَلِكَ الذِّكْرُ إِيمَانًا لَهُ ، لِأَنَّهُ قَدْ يُدْخِلُهُ فِي بَابِ تَفْخِيمِ الذَّنْبِ الْحَقِيرِ وَالْإِغْرَاءِ
 وَالتَّحْرِيزِ ، فَيَسْفِكُ الدَّمَ الْحَرَامَ أَوْ يَعْظُمُ الْجُرْحَ الصَّغِيرَ ، بَلْ رَبَّمَا ضَحِكَ
 وَتَبَسَّمَ فَأَغْرَى وَحَرَّضَ وَأَثَمَ وَأَوْبَقَ . قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

فَإِنْ شِئْتَ أَدَلِّيْ فَيَكُنَا غَيْرَ وَاحِدٍ مُجَاهِرَةً أَوْ قَالَ عِنْدِي فِي سِرٍّ
 ٦ فَإِنْ أَنَا لَمْ أَمُرْ وَلَمْ أَنَّهُ عَنْكُمَا ضَحِكْتُ لَهُ حَتَّى يَلِجَ وَيَسْتَشْرِى
 وَقَالَتِ الْعَرَبُ : مَنْ كُنِيَ شَرًّا لَقَلَّعَهُ وَذَبَذَبَهُ وَقَبَّعَهُ فَقَدْ كُنِيَ الشَّرَّ
 وَهَذَا بَابٌ لَوْلَا أَنْ نَشْغَلَ الْقَارِئُ لِهَذَا الْكِتَابِ بِغَيْرِ مَا قَصَدْنَا إِلَيْهِ وَعَزَمْنَا
 ٩ عَلَيْهِ لِأَتَيْنَا عَلَيْهِ ، وَهُوَ كَثِيرٌ مُوجُودٌ لِمَنْ طَلَبَهُ . وَجُمْلَةٌ وَاحِدَةٌ فِيهَا كِفَايَةٌ ،
 فَإِنَّمَا تَخْتَلِفُ الْأَلْفَاظُ الَّتِي تَجْعَلُ كُسُوءَ لَتَلِكِ الْمَعَانِي . وَإِلَّا فَإِنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ
 إِلَى جَمِيعِ شُرُورِ الدُّنْيَا وَجَدْتَ أَوَّلَهَا كَلِمَةً غَارَتْ خَجَتْ حَرْبًا عَوَانًا كَحَرْبِ
 ١٢ بَكْرِ وَتَغَلَّبَ ابْنِي وَائِلٍ وَعَبَسٍ وَذُبْيَانَ ابْنِي بَغِيضٍ وَالْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ
 ابْنِي قَيْلَةَ وَالْفِجَارِ الْأَوَّلِ وَالْفِجَارِ الثَّانِي وَعَامَّةِ حُرُوبِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ .
 وَإِذَا تَأَمَّلْتَ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ لَمْ تُحْصِ عَدَدَ مَنْ قَتَلَهُ لِسَانُهُ وَكَانَ هَلَاكُهُ فِي كَلِمَةٍ
 ١٥ بَدَرَتْ مِنْهُ . وَلَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ أَفْضَى بِسَرِّهِ إِلَى مَنْ لَيْسَ لَهُ بِمَوْضِعٍ مِمَّنْ
 تَقَدَّمَ مَعْرِفَتُهُ وَزَالَتِ الشُّكُوكُ عَنْهُ فِي أَمْرِهِ ، وَلَكِنَّ الْعَجَبَ عَيْنَ الْعَجَبِ
 مِمَّنْ اسْتَنَامَ بِسَرِّهِ إِلَى مَنْ لَمْ يَقْدَمْ مَعْرِفَتُهُ وَمَنْ أُنْسَ إِلَيْهِ عَنِ اللَّقَاءِ وَاللِّقَائِينَ
 ١٨ دُونَ مَعْرِفَةِ الْعَيْنِ وَالْإِسْمِ وَالسَّبَبِ وَالنَّسَبِ ، فَاتَّخَذَ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَغَيْرِ
 عَقْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَغْنَبَ دِينَهُ وَمَالَهُ وَتَضَاعَفَتْ عَلَيْهِ الْبَلِيَّةُ بِطُولِ الْحُسْرَةِ ، فَإِنَّ

البلاء عارضٌ ومُسْكَنَسَبٌ ، فكانَ العارضُ السماوي وما خَوَّلته الأقدارُ سرًّا
 بعدَ اجتِهَادِ صاحبه رأيَه وحيلته في طَلَبِ الخير . وصوابٌ تديره فيه أمهلُ
 ٣ وأيسرُ على العاقل المعتاد للصواب ، وإن كان كلُّ مكروهٍ مُرًّا بشعاً . وإنما
 الكربُ اللازم والداءُ العيأ ما اجتمع على صاحبه مع الفجعة والحاجة
 والنقص والذلة غمٌ الندامة والأسفُ على ما فرط منه ، إذ كان الجاني على
 ٦ نفسه بيده . ولهذا الكلام نظرٌ نكروه التطويل به والمعنى واحد . وإنما
 تحتاجُ من هذا ومثله مما قد مَنَّا ذكره في الكتاب إلى حفظ السرِّ ووَزن
 القول ، وإلى هذا أجربنا وله قصدنا . ولو اقتصرنا في هذا الكتاب على
 ٩ حرفٍ مما فيه لكان بإذن الله كافياً لمن كان له لبٌّ وعقلٌ ، لكن الاحتجاجَ
 أوكدُ والإيضاحُ أبلغُ ، والحظُّ في هذا القول كله لمن عقله والآخرُ به
 أوفرُ * < منه > لمن قاله ولم يعمل بقوله ، لأنه إنما يجتنى ثمرة الصواب
 ١٢ ويختلف برقه من صدق قوله بفعله . فإن الحكمة قولٌ وعمل ، وإنما حظُّ القائل
 ما لم يستعمل علمه وقوله حظُّ الواصفين ، وحسنُ الصفة تزولُ بزوالها وتنقطعُ
 بانقطاعها ، ومُدَّتْها — إلى أن يماتها القائل والسامع — يسيرة . والأفعالُ المحمودةُ
 ١٥ متصلةُ النفع والشرف والفضيلة في الحياة وبعد الوفاة ومذخورة للأعقاب وحديثُ
 جميلٌ ونشرٌ باقٍ على مرِّ الجديدين . وأكثرُ من ذلك كله توفيقُ الله وتسديده ،
 فإن القلوبَ في يده والخيراتُ مقسوماتٌ من عنده . وحسبنا الله ونعم الوكيل (*)

(٦) نفعه ② — (١١) < منه > : أضفناه — (١٢) لعلمه الصواب : ويجتنب

نفعه — (١٤) يسره ②

(*) تم كتاب كتمان السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بعون الله وتأنيده
 ومشينته وتوفيقه والله الموفق للصواب برحمته ، والحمد لله أولاً وآخراً وصلواته على سيدنا
 محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

رسالة في الجدد والهزل

من تصنيف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاهلي إلى محمد بن عبد الملك الزيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- (*) جُعِلْتُ فِدَاكَ ، ليس من أجل اختياري الذخَلَ على الزرع أَقْصَيْتَنِي ٦
ولا على مَيْلِي إلى الصَّدَقَةِ دون إعطائي الخراج عاقِبَتَنِي ولا لِبُغْضِي دَفْعَ الإِثَاوَةِ
والرِّضَا بِالْجَزِيَةِ حَرَمْتَنِي ، (†) ولستُ أَدرى لِمَ كَرِهْتَ قُرْبِي وَهَوَيْتَ
بُعْدِي واستثقلتَ رُوحِي ونَفْسِي واستطلتَ عُمرِي وأَيَّامَ مُقَامِي ، وَلِمَ سَرَّكَ ٩
سَيِّئَتِي وَمُصِيبَتِي وسَاءَتِكَ حَسَنَتِي وسَلَامَتِي ، نَعَمْ حَتَّى سَاءَكَ عَزَائِي وَتَجَمَّلِي
بِقَدْرِ مَا سَرَّكَ جَزَعِي وَتَضَجَّرِي ، وَحَتَّى تَمَنَّيْتَ أَنْ أُخْطِيَّ عَلَيْكَ فَتَجْعَلَ خَطَايَ
حُجَّةً لَكَ فِي إِبْعَادِي وَكَرِهْتَ صَوَابِي فَيَكُ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَجْعَلَ ذَرِيعَةً لَكَ ١٢
إِلَى تَقْرِبِي . فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي أَغْضَبَكَ وَكَانَ هُوَ السَّبَبُ لِمَوْجَدَّتِكَ ،

(٦) [اجل] م — (٨) رأيك أبقاك الله قد كرهت ب (في ابتداء الرواية) —

(١٠) نعم م : [] د — مزاني م : [] د — (١٢) [ك] م — (١٣) تقرب م —

فإن كان ... لموجدتك م : [] د

(*) (٦-٦٢ ، ٢) جعلت ... الجرعة : رواية م ١

(†) (٨-٩) ولست ... مقام : رواية م ١

فليس — *جُعِلَتْ فِدَاكَ — هذا الحِقد في طبقة هذا الذنب ولا هذه المطالبة
 *من شكل هذه الجريمة . ولو كان إذ لم يكن في وزنه وقع قريباً وإذ لم يكن
 ٣ عدله وقع مشبهاً ، كان أهون في موضع الضرر وأسهل في مخرج السماع .
 (*) فأى شيء *بقيت للعدو المكاشف وللمنافق الملائف *وللمعتد المصير
 *وللقادر المدل ؟ ومن عاقب على الصغير بعقوبة الكبير وعلى الهفوة بعقوبة
 ٦ الإصرار وعلى الخطأ بعقوبة العمد وعلى معصية *المسير بعقوبة معصية
 *المعلن ؟ ومن لم يفرق بين الأعلى والأسفل وبين الأقصى والأدنى عاقب
 على الزنا بعقوبة *السرقعة وعلى القتل بعقوبة القذف . ومن خرج إلى ذلك في
 ٩ باب العقاب خرج إلى مثله في باب الثواب ، ومن خرج من جميع الأوزان
 وخالف جميع التعديل كان بغاية العقاب أحق *وبه أولى

والدليل على شدة غيظك وغليان صدرك ، قوة حركتك وإبطاء
 ١٢ فترتك وبُعد الغاية في احتيالك . ومن البرهان على ثبات الغضب وعلى
 كظم الذنب *تمكّن الحقد ورسوخ الغيظ وبعد الوثبة وشدة الصولة .
 وهذا البرهان صحيح ما صحّ النظم وقام التعديل واستوت الأسباب .
 ١٥ (†) ولا أعلم نارا أبغى في إحراق أهلها من نار الغيظ ولا حركة أنقض لقوة

(١) أبقاك الله م — (٢) من شكل م : شكل من د — (٤) أبقيت م —
 وللمعتد م — (٥) [وللقادر المدل] ولمن عاقب م — (٦) السر م : المسترم ،
 المستر م — (٧) المعلن م م : المعاند م — (٨) السرقعة م : السرق م — (١٠) وبه
 أولى م : به وأولى م — (١٢-١٣) على ثبات ... الذنب م : على بيان الغضب وعظم
 الذنب م ، وكلتا القراءتين محرفة —

(*) (٤) ابتداء رواية م ٢ — (٧-٤) فأى ... المعلن : رواية م ٢

(†) (١٥-١٠ ص ٦٣ ، ٤) ولا أعلم ... دون العام : رواية م ٣

- الأبدان من طلب الطوائل مع قلة الهدوء والجهل بمنافع الجمال وإعطاء
الحالات أقسامها من التدبير. ولا أعلم تجارة أكثر خسراناً ولا أخفَّ
ميزاناً، من عداوة العاقل العالم وإطلاق لسان الجليس المُداخل والشعار
دون الدثار والخاص دون العام. والطالب — جعلتُ فداك — بعرض ظفر
ما لم يخرج المطلوب وإليه الخيار ما لم تقع المنازلة. ومن الحزم ألا تخرج إلى
العدو إلا ومعك من القوى ما يغمر الفضلة التي ينتجها له الإخراج. ولا بد
أيضاً من حزمٍ يحذرك مُصارِع البغى ويخوّفك ناصرَ المظلوم (*)
(†) وبعد — أبقاك الله — فأنت على يقين من موضع ألم الغيظ من نفسك،
والغيظ عذابٌ، ولربما زاد التشقّي في الغيظ ولم ينقص منه. ولست على يقين
من نفوذ سهمك في < صيدك > كما أيقنت بموضع الغيظ من < صدرك >.
والحازم لا يلمس شفاء غيظه بأجتلاب ضعفه ولا يُطفيء نارَ غضبه تأخراً
عقوبة من أغضبه ولا يسدّد سهمه إلا والغرض ممكن والغاية قريبة ولا
يهرب والمهرب معجزه. إن سلطان الغيظ غشوم وإن حكم الغضب
جائر، وأضعف ما يكون العزم عن التصرّف أضعف ما يكون الحزم.
(**) والغضب في طباع شيطان والهوى يتصوّر في صورة امرأة، فلا يُبصر ١٥

(٢-١) [مع قلة... من التدبير] ب — (٣) العالم م : [] د — (٤) أبقاك الله م —
(٦) ما يغمر م : ما < لا > يغمر د — يفتحها م — (٧) ويخوّفك م : ويحرك د —
المطلوب م — (٨) [أبقاك الله] ب — موقع ب — [من نفسك] ب — (٩) وربما —
(١٠) < ... > ب : سهمك في صدك د — (١١) لا يجتلب ب — [ولا يطفيء ...
أغضبه] ب — تأخر، لعل الصواب : بأمر — (١٣) والمهرب معجز ب، < إلا >
والمهرب معجزة د

(*) اه رواية م ٢ — (†) (٨-١٣) وبعد ... معجزة : رواية ب ٤

(**) ابتداء رواية ب ٥

مَسَاقِطَ الْعَيْبِ وَمَوَاقِعَ الشَّرَفِ إِلَّا كُلُّهُ مَعْتَدِلُ الطِّبَاعِ وَمَعْتَدِلُ الْأَخْلَاطِ
وَمُسْتَوَى الْأَسْبَابِ . (*) وَاللَّهُ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ لَكَ سَرَافَ الرِّضَا مَخَافَةَ جَوَادِبِهِ
إِلَى سَرَفِ الْهَوَى ، فَمَا ظَنُّكَ بِسَرَفِ الْغَضَبِ وَبَغْلَابَةِ الْغَيْظِ ، وَلَا سِيَّامِنْ قَدْ
تَعَوَّدَ إِهْمَالَ النَّفْسِ وَلَمْ يُعَوِّدْهَا الصَّبْرَ وَلَمْ يُعْرِفْهَا مَوْضِعَ الْحِظِّ فِي تَجَرُّعِ
مَرَارَةِ الْعَفْوِ . وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنَ الْأُمُورِ عَوَاقِبُهَا لَا عَوَاجِلُهَا . وَلَقَدْ كُنْتُ أَشْفَقُ
عَلَيْكَ مِنْ إِفْرَاطِ السَّرُورِ فَمَا ظَنُّكَ بِإِفْرَاطِ الْغَيْظِ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ :
لَا خَيْرَ فِي طَوْلِ الرَّاحَةِ إِذَا كَانَ يُوْرَثُ الْغَفْلَةُ وَلَا فِي طَوْلِ الْكِفَايَةِ إِذَا كَانَ
يُودَى إِلَى الْمَعْجِزَةِ وَلَا فِي كَثْرَةِ الْغِنَى إِذَا كَانَ يَخْرُجُ إِلَى الْبَلَدَةِ

(+) جُعِلْتُ فِدَاكَ ، إِنْ دَاءَ الْحُزْنِ وَإِنْ كَانَ قَاتِلًا فَإِنَّهُ دَاءٌ مُمَاطِلٌ
وَسَقَمُهُ سَقَمٌ مُطَاوِلٌ وَمَعَهُ مِنَ التَّمَثُّلِ بِقَدْرِ قَسْطِهِ مِنَ أَنَاةِ الْمِرَّةِ السُّودَاءِ .
وَدَاءُ الْغَيْظِ سَفِيهِه طَيَّاشٌ وَعَجُولٌ فَخَاشٌ يَعْبِجُ عَنْ التَّوْبَةِ وَيَقْطَعُ دُونَ
الْوَصِيَّةِ (**) وَمَعَهُ مِنَ الْخَرْقِ بِقَدْرِ قَسْطِهِ مِنَ أَلْتِهَابِ الْمِرَّةِ الْحُمْرَاءِ .
وَالْعَجُولُ يُخْطِئُ وَإِنْ ظَفَرَ ، فَكَيْفَ بِهِ إِذَا أَخْفَقَ . عَلَى أَنْ إِخْفَاقَهُ يَزِيدُ
فِي حَقِيقَةِ خَطْئِهِ كَمَا أَنَّ ظَفْرَهُ لَا يَنْتَقِصُ مِنْ مَقْدَارِ زَلَلِهِ < . وَأَنْتَ رُوحٌ كَمَا

(٣-٤) [قد تعود إهمال] م — (٥) صرارته [العفو] م — وإتمام : وان خ —
(٦) [بعض] م — (٧) [طول] الكفاية م — (٨) الغنى م : العى م —
(١٠) و < ان > سقمه م — من التمهيل م ، من التمسك م — آثار م — (١١) طائش
م — (١٢-١١) و يقطع عن التوصية م — (١٢) من الخوف م —
(١٣-١٤) < ... > م فقط

(*) ابتداء رواية م ٣ ، وانتهاء رواية م ٥

(+) (٩-١٤ زلله) رواية م ٦

(**) اه رواية م ٣

أنت وحشٍ من قرنك إلى قدمك ، وعمـل الآفة في الدِّقَاق والعِتَاق
أسرع وحدها عن العلاظ الجفافة أكل . فذلك اشتدَّ جَزَعِي لك من
سلطان الغيظ وغلبيته

٣

والله لو كنتُ ابتلعتُ مرارَ بآبك وأبطلتُ سمر الباطل ورددتُ
الفضائع كلها ونقضتُ الشروط بأسرها وأفسدتُ نتاجك وقتلتُ كل
شطنجى لك ورفعتُ من الدنيا فراهة الخيل وجعلتُ المروج كلها حمى
وكنتُ جذام المردان ورسام الأولاد ومسختُ جميع الجوارى في صورة
أبي رملة ورددتُ شطاط خلقك إلى جعودة أبي حثة وكنتُ أول من سنَّ
بيع الرجال في النخاسين وفتحَ باب الظلم لأصحاب المظالم وحولتُ إليك
عقل أبي دينار وطُيعتُ على بيان مانويه (*) وأعنتُ على موت المعتصم
وغضبتُ لمصرع الأفسين واستجبتُ للديك الأفرق وأحببتُ صالح بن
حنين وأحوجتُك إلى حاتم الريش وكان أبو الشماخ صديقي والفارسي
من شيعة > ورفستُ حمزة رفسةً شديدة وركلتُ عُمرَ ركلةً صعبة ، <
لكان ما تركبني به سرفاً ولكنك في هذا العقاب متعدياً

جُعلتُ فداك ، لا تتعرض لعداوة عقلاء الرواة ولضعيفة حُفاظ
المثالب واللسان من قد عرف بالصدق والتوخي وبقلة الخطل والتكسب ،

(٤) كذا في ٢ وكلتا الكلمتين محرفة — (٧) جذام المردان ، صححنا : صدق
المرادين ٢ — (٨) اني حثة ٢ ولعله محرف — (١٠) والله لو كنت احتلت على موت ب —
(١١) لمصرع ب — للدين الأفرق ب : للدين الأبيض ٢ — (١٢) وأخرجتُك إلى حاتم
الرئيس ب — أبو السماح ب — (١٣) > ورفست ... صعبة < ب — (١٤) ما تركبني ،
صححنا : ما تركبني ٢ — معتديا ب — (١٥) الرجال ب — (١٦) عرف العضد ب —
كذا ، ولعلها : التكدب ، أو التنكب

(*) (١٠-١٦ عرف بالصدق) رواية ب ٧

ما وجدتَ عن ذلك مندوحة ووجدتَ المذهب عنه واسعاً . ولا تُعاقب
 وادّاً وإن اضطرّك الوادّ ، ولا تجعل طول الصُّحبة سبباً للتضجر . وأصبر على
 ٣ خلقه فإنَّ خلقه خير من جديد غيره . وصداقة المستطرف غررٌ وملاة
 الصديق أنفٌ . والعلم بأقدار الذنوب غامضٌ وحدود الذنوب في العقاب خفيّة .
 ولن يعرف العقاب من يجهل قدر الذنب ، والأجرام كثيرة الأشكال ومتفاوتة
 ٦ في الأقدار . وإذا أردتَ أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك
 عليه ، فأنظر في علته وفي سببه وإلى معدنه الذي منه نجم وعُشه الذي
 منه درجٌ ومغرسه الذي فيه نبتٌ ، وإلى جهة صاحبه في التتابع والتبرع وفي
 ٩ النزوع والثبات ، وإلى فيحته عند التقرير وإلى حيائه عند التعريض وإلى
 فطنته عند الرشق والتودية . فإنَّ فضل الفطنة ربما دلَّ على فرط الاكتراث ،
 وعلى قدر الاكتراث يكون الإقدام والإحجام . (*) فكل ذنب كان سببه
 ١٢ الدالة وضيق صدرٍ وغلظ طباعٍ وحدة مرار ، من جهة تأويل أو من
 جهة غلطٍ في المقادير أو من طريق < فرط > الأنفة وغلبة طباع الحمية من
 بعض الجفوة أو لبعض الأثرة ، أو من جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زين
 ١٥ له من عمله ، وأنه مُقَصِّر به مؤخر عن مرتبته ، أو كان مُبلِّغاً عنه أو مكذوباً
 عليه ، وكان ذلك جائزاً عليه غير ممتنع فيه ، فإذا كانت ذنوبه من هذا

(٣) غرر ، صححنا : غرور د — (٤) باقدار ، صححنا : باقرار د — (٦) الاقدار
 صححنا : الأقدام د — (٨) لعل الصواب : التسرع — (١٠) كذا ولعلها : الرمز
 والتورية — (١٢) الصدر وعلو الطباع ب — [من جهة تأويل] ب — (١٣) الغلط
 ب — < فرط > ب — (١٦-١٣) [من بعض الجفوة ... ممتنع فيه] ب —
 (١٤) الأثرة ، صححنا : الآتوة د

(*) (١١ - ص ٦٧ ، ٢) فكل ذنب ... حليم : رواية ب ٨-٩

الشكل وعلى هذه الأسباب وفي هذه المجارى ، فليس يقف عليها كريم
 < ولا يلتفت لها حلیم > . ولست أسميه بكثرة معروفة كريماً ، حتى يكون
 عقله غاسراً لعلمه وعلمه غالباً لطبعه ، وحتى يكون عالماً بما ترك وعارفاً بما
 ٣ أخذ . وأسم الحلیم جامع للسكرم والقدرة والفهم . فإذا وجدت الذنب بعد ذلك
 لا سبب له إلا البغضة ، فلو لم ترَضْ لصاحبه بعقابٍ دون قعر جهنم ، لعدرك
 كثير من العقلاء ولصوب رأيك عالم من الأشراف . ومتى كانت علته طبيعة
 ٦ الداء وخلقه الشرارة والتسرّع ، فأقتله قتل العقارب وأدمغه دمع رؤوس
 الحيات . وإذا كان ممن لا يُسئ فيك القول ولا يرصدك بالمكرهه ،
 ٩ إلا لتعطيه على الخوف وتمنع عرضك من جهة التقية ، فأمنعه جميل
 رفدك وأحتل في منعه من قبل غيرك ، فإنك إن أعطيته على هذه
 الشريطة وأعظمته من هذه الحكومة ، فقد شاركته في سب نفسك
 واستدعيت الألسنة البذيئة إلى عرضك وكنت عوناً لهم عليك . وكيف
 ١٢ تعاقبه على ذنب لك شطره وأنت فيه قسيمه ، إلا أن عليك غرمه وله غنمه
 (*) ومن العدل المحض والإنصاف الصحيح أن تحط عن الحسود
 نصف عقابه وأن تقتصر منه < على > بعض مقداره ، لأن ألم
 ١٥ حسده لك قد كفأك مؤونة شطر غيظك عليه

وأما الواد فلا تعرض له البتة < ولا تلتفت لفته > ولو أتى على الحرث

(١) < ولا يلتفت لها حلیم > ب - (٩) التقية ، صححنا : النقبة د - (١٣) قسيمه ،
 صححنا : قسيمه د - (١٤) يحط من ب - (١٥) يقتصر على مقداره د - (١٦) شطر
 ب : سطو د - (١٧) فأما ب - < ولا تلتفت لفته > ب

- والنسل وجنى على الروح والقلب ، ولا تعترّ بقوله إني وادّ " ولا تحكم له بدعواه : إني جدّ وامق " ، وأنظر أنت في حديثه وإلى مخرج لفظه " وإلى لحن قوله (*) " وإلى طريقته وطبيعته وإلى خلقه وخليقته وإلى تصرّفه * وتضمّنه وإلى توفّقه وتهوّره ، وتأمل مقدار جزعه من قلة اكترائه وأنظر إلى غضبه فيك ولك وإلى انصرافه عن انصرف عنك وميله إلى من مال إليك وإلى تسلمه من الشرّ وتعرّضه له وإلى مُداهنته وكشف قناعه .
- ٦ بل لا يقضى له بجماع ذلك ما كان ذلك في أيّام دولتك ومع إقبال من أمرك ، وإن طالت الأيام وكثرت الشهود حتى تنتظم الحالات وتستوى فيه الأزمات . نعم ثم لا تحكم له بذلك حتى تكون حاله مقصورة على محبّتك ومحنوة على نصيحتك بالعلل التي توجب الأفعال والأسباب التي تسخر القلوب المودّات ، كالعلل الثابتة في الصنعة والأسباب الموجودة مع مولى العتاقة . فإنّ عللها خلاف علل مولى السكّالة ، وخلاف علل الصديق الذى لم يزل يرى أنّه مثلك وأنّه يستوجب منك استيجابك ، ولا سيّما إذا كانت الصنعة أنت ابتدأتها وأنت أبو عذرتها . فإنّ أنت لم تحكم له بالغاية مع اجتماع هذه العلل فيه ومع توافيها إليه ، ولم تقض له بأقصى النهاية مع ترادف هذه الأسباب وتكامل هذه الدلائل وتعاون هذه البرهانات ، فكل خبر بيّنة زور وكل دلالة فاسدة . وقد قال الأول : دلائل الأمور أشدّ تثبيتاً من شهادات الرجال . إلّا أن يكون في الخبر دليل ومع الشهادة برهان ؛ لأنّ الدليل لا يكذب ولا ينافق ولا يزيد ولا يبدل ، وشهادة الإنسان

لا تتمتع من ذلك وليس معها أمان من فساد ، ما كان الإمكان قائماً

- وبعد ، متى صار اختيار النخل على الزرع يُحمد الإخوان ومتى صار
تفضيل الحَبِّ وتقرّيط الثمر يورث الهجران ، ومتى تميّزوا هذا التمييز وتهاكوا
هذا التهاك ومتى صار تقديم النخلة ملةً وتفضيل السنبلة نخلةً ، ومتى
صار الحكم للنعجة نسباً والكرمة صهراً ، ومتى تكون فيها ديانة وتستحكم
فيها بصيرة وتحدث عنها حمية

- وقد كنا نعجب من حرب البسوس في ضرع نابٍ ومن حرب بُعث في
خحرف تمرٍ ومن حرب غطفان في سبق دابة ، فحُثْنَا أَنْتَ بنوعٍ من العجب
أبطل كلَّ عجب وأنسنا بكل غريب وحسّن عندنا كل قبيح وقرب
عندنا كل بعيد . فإن جهلتُ — أعزك الله — غضبك فمثلي جهل ما لا علة
له ، وإن عجزتُ عن احتمال عقابك فمثلي ضجّ مما لا يُطيق حملة ، ولا عار
على جازع إلا فيما يمكن في مثله الصبر ولا يَوْمٌ على جاهل فيما لا ينجح في
مثله الفكر . وليس هذا أوّل شركٍ نصبتَه ولا أوّل كيدٍ أرغته ، ولا هي
بأوّل زُبِيَّةٍ غطيتها وسترتها وحييلةٍ أكنيتها وربصتها . وقد كانت التقيّة
والافتصاد أسلم ، بل كان العفو أرحم والتغافل أكرم . ولا خير في عقوبة
تُسمت العدو القادِم ويُفادى بها العدو الحادث ، والأناة أبلغ في الحزم وأبعد
من الذمِّ وأحمد معبّةً وأبعد من خرق العجلة . وقد قال الأول : عليك بالأناة
فإنك على إيقاع ما أنت موقِعُهُ أقدر منك على ردِّ ما قد أوقعته . وقد أخطأ
- من قال :

(٤) نخلة ، صححنا : نخلة — (٥) وحق — (١٣) ارعنة —

قد يُدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
بل لو قال : والمتأني بدرك حاجته أحقّ والمستعجل بفوت حاجته
أخلق ، لكان قد وفى المعنى حقّه وأعطى اللفظ حظّه ، و <إن> كان القول
الأول موزوناً والثاني منشوراً . ولولا أنه اشتقّ المستعجل من العجلة لما قرّنه
بالتأني ، وينبغي أن يكون الذى غلّطه قولهم : ربّ عجلة تهبّ ريّثاً ، فجعل
الكلام الذى خرج جواباً عند ما يعرض من السبب كالكلام الذى خرج ارتجالاً ،
وجعله صاحبه مثلاً عامّاً . فإذا سميت العمل عجلة وريّثاً فأقضى على الريث بكثرة
القوت وبقدر ذلك من العجز ، وعلى العجلة بقلة النجح وبقدر ذلك من
الخرق . والريث والأناة فى بلوغ الأمل وإدراك النعمة كانتهاز الفرصة
واهتبال العرة ، والأناة وإن طالّت وانتهاز الفرصة وإن كان فى غاية السرعة ،
فليس من جنس العجلة . (*) ورُبّت كلمة لا توضع إلا على معناها الذى جعلت
حظّه وصارت هى حقّه والدالة هى عليه دون غيره ، كالعزم والعلم والحلم
والرفق والأناة والمداورة والقصد والعدل والانتهاز والاهتبال وكاليأس والأمن
ووالخرق والعجلة والمداهنة والتسرّع والغلوّ والتقصير . ورُبّت كلمة تدور مع
خُلّتها وتقلّب مع جارّتها وبارادة صاحبتها وعلى قدر ما تقابل من
الحالات وتلاقى من الأسباب ، كالحُبّ والبغض والغضب والرضا والعزم
والإرادة والإقبال والإدبار والحِدّ والفتور ، لأنّ هذا الباب الأخير يكون

(٢) لفوت — (٣) وكان — (٩) ودراك — (١٠) والهناء —
لعله سقط بعد « وإن طالّت » : <فليست من جنس الريث> — (١٢) والدالة [هى] عليه
م — كالعزم والعلم م — (١٣) والابتهاج م — (١٤) ورب م — (١٥) مع
واصلتها م — جارّتها — صاحبها م — (١٧) والإرادة ، كذا م — والفتوة م

في الخير والشرّ ويكون محموداً ويكون مذموماً . وصاحب العجلة — *أعزّك
الله — صاحب تغرير ومخاطرة : *إن ظفر لم يحمده *عالمٌ وإن لم يظفر قطعته
للالوم . والرّيث أخو المعجزة ومقرون بالحسرة وعلى مدرّجة اللائمة . ٣
وصاحب الأناة *إن ظفر نفع غيره بالغنم ونفع نفسه بشمرة العلم ، وطاب
ذكره ودام شكره وحُفظ فيه ولده ، وإن حُرِم فبسوط عذره ومُصَوَّبُ
رأيه ، مع انتفاعه بعلمه وما يجد من عزّ حزمه ونبل صوابه (*) ، ومع علمه ٦
بالذي له عند العقلاء ويعذره عند الأولياء والأعداء

وما عندي لك إلا ما قال الدهقان لأسد بن عبد الله — وهو على خراسان —
حين مرّ به وهو يدهق في حبّه : إن كنت تُعطى من ترحم فأرحم من تظلم . ٩
إن السموات تنفرج لدعوة المظلوم ، فأحذر من ليس له ناصر إلا الله ، ولا جُنّة
إلا الثقة بنزول التغيّر ، ولا سلاح إلا الابتهال إلى مولى لا يعجزه شيء .
يا أسدُ إن البغي يصرع أهله ، وإن الظلم مصرعه وخيمٌ ، فلا تغترّ بإبطاء ١٢
العقاب من ناصرٍ متى شاء أن يُغيث أغاث ، وقد أملى لقوم كي يزدادوا إثمًا .
وجميعُ أهل السعادة إمّا سالمٌ من ذنبٍ وإمّا تاركُ الإصرار . ومن رَغِبَ عن
التمادي فقد نال أحدَ الغنمين ، ومن خرج من السعادة فلا غاية له إلا دار ١٥
*الشّقوة . وسواءٌ — جُعِلَتْ فِدَاكَ — ظلمت بالبطش والغشم أو ظلمت
بالدّس *والدس ، فشاوِر لبّك ، وناظر حزمك ، وقِف قبل الوثبة ، وأحذر

(١-٢) أبقاك الله م — (٢) وان ظفر د — عاقل م — (٤) وان ظفر د —

وطاب ذكره دوام شكره د — (٦) وقبل صوابه د — (١٦) الشقوة ، صحنا :

الندوه د — (١٧) لعل الصواب : الدعس

- زَلَّةَ الْعَالَمِ . وَقَدْ قَالَ صَاحِبُكُمْ : مَنْ اسْتَشَارَ الْمَلَالَةَ وَقَلَّدَ طَبِيعَتَهُ الاسْتِطْرَافَ
وَجَعَلَ الْخَطَرَةَ ذَنْبًا وَالذَّنْبَ ذَنْبًا وَمَقْدَارَ الطَّرْفَةِ إِجْرَارًا وَالصَّغِيرَ
كَبِيرًا وَالْقَلِيلَ كَثِيرًا ، * عَاقَبَ عَلَى الْمَتْرُوكِ الَّذِي لَا يُعْبَأُ بِهِ وَبَلَغَ بِالْبَطْشِ ٣
إِلَى حَيْثُ لَا بَقِيَّةَ مَعَهُ ، وَرَأَى أَنَّ الْقَطِيعَةَ الَّتِي لَا صِلَةَ مَعَهَا وَالتَّخْلِيَجَ الَّذِي
لَا تَجْمُلُ مَعَهُ الْحَزْمُ الْمُحْمُودُ ، وَأَنَّ الْإِعْتِزَامَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ هُوَ الرَّأْيُ الْأَصِيلُ .
وَقَالَ أَيْضًا : (٦) مَنْ * كَانَتْ طَبِيعَتُهُ مَأْمُونَةً عَلَيْهِ عِنْدَ نَفْسِهِ ، وَكَانَ هَوَاهُ رَائِدَهُ ٦
الَّذِي لَا يَكْذِبُهُ وَالْمَتَأَمَّرُ عَلَيْهِ دُونَ * عَقْلِهِ ، * وَلَمْ يَتَوَكَّلْ لِمَا يَهْوَاهُ عَلَى
مَا لَا يَهْوَاهُ * ، وَلَمْ يَنْصُرْ تَالِدَ الْإِخْوَانِ عَلَى الطَّارِفِ ، وَلَمْ يُنْصَفِ * الْمَمْلُوكُ الْمُبْعَدُ
مِنَ الْمُسْتَطَرَفِ * الْمُقَرَّبِ ، وَلَمْ يَخَفْ أَنْ تَجْتَذِبَهُ الْعَادَةُ وَتَتَحَكَّمَ عَلَيْهِ الطَّبِيعَةُ ، ٩
فَلْيَرْسُمِ حُجَجَهُمَا وَيُصَوِّرْهُمَا فِي كِتَابٍ مَقْرُوءٍ أَوْ لَفْظٍ مَسْمُوعٍ ، ثُمَّ يَعْضِضُهُمَا
عَلَى جِهَابِذَةِ الْمَعَانِي وَأَطْبَاءِ أَدْوَاءِ الْعُقُولِ ، عَلَى الْأَلَا يَخْتَارُ * إِلَّا مَنْ لَا يَدْرِي
أَيُّ النَّوْعَيْنِ يَبْغِي * وَعَلَى أَيْهَمَا يُحَاجِي ، وَأَيْهَمَا دَاوُهُ * . فَإِنْ لَمْ يَسْتَعْمَلْ ذَلِكَ ، ١٢
بِمَا فَضَّلَ لَهُ مِنْ سُكْرِ سُوءِ الْعَادَةِ * ، لَمْ يَزَلْ مَتَوَرِّطًا فِي الْخَطَا مَغْمُورًا * بِالذَّمِّ
سَمْعُكَ وَأَنْتَ تَرِيدُنِي وَكَأَنَّكَ تَرِيدُ غَيْرِي ، * أَوْ كَأَنَّكَ تُشِيرُ عَلَيَّ مِنْ
غَيْرِ أَنْ * تَنْصَنِي ، وَتَقُولُ : إِنِّي لِأَعْجَبُ بِمَنْ تَرَكَ دِفَاتِرَ عَمَلِهِ مُتَفَرِّقَةً ١٥

(٣) وَعَاقَبَ ② — (٦) وَمَنْ كَانَتْ م — (٧) حَقَّهُ م — (٧-٨) وَلَمْ يَتَوَكَّلْ لِمَا
يَهْوَاهُ ② ، وَلَمْ يَتَوَكَّلْ لِمَا لَا يَهْوَاهُ عَلَى مَا يَهْوَاهُ م — (٨) الْمَمْلُوكُ : الْمَمْلُوكُ ② م —
(٩) وَالْمَقْرُونُ م — تَجْتَذِبُهُ م — (١٠) مَقْرُوءٌ صَحِيحُنَا : مُفْرَدٌ ② ، مُقَرَّرٌ م —
(١١-١٢) إِلَّا مَنْ [لَا] يَدْرِي أَيُّ النَّوْعَيْنِ يَتَّقِي وَ[عَلَى] أَيْهَمَا يُحَاجِي وَأَيْهَمَا يَدَاوُهُ وَأَيْهَمَا
دَاوُهُ م — وَعَلَى ، لَعَلَّ الصَّوَابَ : وَعَنْ — (١٣) [بِمَا فَضَّلَ . . . الْعَادَةُ] م —
بِالذَّنْبِ م — (١٤) أَوْ كَأَنَّكَ م : وَكَأَنَّكَ ② — (١٥) نَصَبِي ② م

- * مبثوثة * وكراريس درسه غير مجموعة ولا منظومة ، كيف يعرضها للتخرم وكيف لا يمنعها من التفرق ، وعلى أن الدفتر إذا انقطعت حرزاته وانحل شداده وتخرمت رُبُطه ولم يكن دونه وقاية ولا جنة تفرق ورقه ، وإذا تفرق ورقه اشتد جمعه وعسر نظمه وامتنع تأليفه ، وربما ضاع أكثره . والدفتان أجمع وضم الجلود لها أصول * والحزم لها أصلح . وينبغي للأشكال أن تنظم وللأشياء أن تؤلف ، فإن التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حسناً والاجتماع يحدث للتساوى في الضعف قوة (*) . فإذا فعلت ذلك صرت متى وجدت بعضها فقد وجدت كلها ، ومتى رأيت أدناها فقد رأيت أقصاها ، فإن نشطت لقراءة جميعها مضيت فيها . وإذا كانت منظومة ومعروفة للمواضع معلومة ، لم تحتج إلى تقليب القماطر على كثرتها ولا تفتيش الصناديق مع تفاوت مواضعها ، وخفت عليك مؤونتها وقلت فكرتك فيها ، وصرفت تلك العناية إلى بعض أمرك وأدخرت تلك القوة لنواب غيرك . وعلى أن ذلك أدل على حبك للعلم واصطناعك للكتب ، وعلى حسن السياسة والتقدم في إحكام الصناعة . وقلت : لأمر ما جمعوا أسباع القرآن وسوره في مصحف ، ولم يدعوا ما فيه مفرقا في الصدور ولا مبددا في الدفاتر ومفرقا في القماطر ، على ذلك أجمع المسلمون والسابقون الأولون والأئمة الرشيدة والجماعة المحموده ، فتوارثه خلف عن سلف وتابع عن سابق وصغير عن كبير وحديث عن قديم . ولم أشك في أنها نصيحة حازمة ومشورة وامق ،

(١) [مبثوثة] م — (٢) التفرق م — (٣) شداده م — ولا <دونه>

جنة م — (٤-٣) و [إذا تفرق ورقه] اشتد م — (٤) و [ربما] ضاع م —

(٥) إليها أصول د — والحرز د — (٦) تنظم <والدفتان> د

أَوْ رَأَى حَضَرَ أَوْ حَكَمَةً نَبَغَتْ أَوْ صَدَرَ جَاشَ فَلَمْ يُمَلِّكْ أَوْ عِلْمٌ فَاضَ فَلَمْ
 يُرَدِّدْ ، اسْتَعْمَلَهُ مَنْ اسْتَعْمَلَهُ وَتَرَكَهُ مَنْ تَرَكَهُ . فَلَمَّا أَخَذْتُ بِقَوْلِكَ وَصِرْتُ
 ٣ إِلَى مَشُورَتِكَ ، وَأَكْثَرْتُ حَمْدَ اللَّهِ عَلَى إِفَادَتِكَ مِنَ الْعِلْمِ وَحِظًا عِنَايَتِكَ مِنَ
 النِّقْلِ ، وَجَعَلْتُ الْبَعْضَ إِلَى الْبَعْضِ وَالشَّكْلَ إِلَى الشَّكْلِ ، وَتَقَدَّمْتُ فِي
 اسْتِجَادَةِ الْجُلُودِ وَفِي تَمْيِيزِ الصُّنَاعِ وَفِي تَحْيِيزِ السَّاعَاتِ ، وَغَرِمْتُ
 ٦ الْمَالَ وَشَغَلْتُ الْبَالَ ، وَجَعَلْتُهَا مُصَحَّفًا مُصَحَّفًا وَأَجْمَلْتُهَا صِنْفًا صِنْفًا ، وَرَأَيْتُ
 أَنِّي قَدْ أَحْكَمْتُ شَأْنِي وَجَعَلْتُ إِلَى أَقْطَارِي ، وَرَأَيْتُ أَنَّ أَنْظَرَ فِيهَا وَأَنَا
 مُسْتَلْقٍ وَلَا أَنْظَرُ فِيهَا وَأَنَا مُنْتَصِبٍ ، اسْتَظْهَرَا عَلَى تَعَبِ الْبَدَنِ ، إِذْ كَانَتْ
 ٩ الْأَسَافِلُ مُثْقَلَةً بِالْأَعَالِي ، وَإِذَا كَانَ الْإِنْتِصَابُ يُسْرِعُ فِي إِدْخَالِ الْوَهْنِ عَلَى
 الْأَصْلَابِ ، وَلَئِنْ ذَلِكَ أَبْقَى عَلَى نُورِ الْبَصَرِ وَأَصْلَحَ لِقُوَّةِ الْفَاظِرِ ، إِذَا كُلُّ
 وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَصَاحِفِ قَدْ أَعْجَزَ يَدِي بِثِقَلِ جِرْمِهِ وَضَيَّقَ صَدْرِي بِجَفَاءِ حَجْمِهِ ،
 ١٢ وَإِذَا ثَقُلَ أَنْكَأُ الصَّدْرِ وَأَوْهَنَ الْعَظْمُ . وَإِذَا أَنَا إِنْ نَظَرْتُ فِيهَا وَأَنَا جَالِسٌ
 سَدَرْتُ عَيْنِي وَتَقَوَّسَ ظَهْرِي وَأَجْتَمَعَ الدَّمُ فِي وَجْهِهِ وَأَكْرَهْتُ بِصَرِي
 عَلَى غَيْرِ جِهَتِهِ وَأَجْرَيْتُ شُعَاعَ نَظَرِي فِي غَيْرِ مُجْرَاهِ . وَقَدْ عَلِمْتَ — أَبْنَاكَ
 ١٥ اللَّهُ — مَعَ خَيْرَتِكَ بِمَصَالِحِ الْأُمُورِ وَمَوَاقِعِ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ ثُمَّ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ
 وَالْبِلَادِ ، أَنَّ مَنْ كَانَ عَلَى مَقْطَعِ جَبَلٍ أَوْ عَلَى شُرُفَاتِ قَصْرِ ، فَأَرَادَ رُؤْيَا
 السَّمَاءِ عَلَى بُعْدِهَا وَجَدَ ذَلِكَ عَلَى الْعَيْنِ سَهْلًا خَفِيفًا ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَرَى
 ١٨ الْأَرْضَ عَلَى قُرْبِهَا وَجَدَ ذَلِكَ عَلَى الْعَيْنِ عِثًّا ثَقِيلًا . فَإِنْ بَدَأَ أَنْ يَقَابِلَ
 عَيْنِي بِهِ الْعَبْدُ أَوْ تَوَاجَهَنِي بِهِ الْأُمَّةُ كَلَّفْتُ أُخْرَقَ النَّاسَ كَفًّا وَأَقْلَمَهُمْ
 وَفَقًّا وَأَكْثَرَهُمُ الْتِفَاتًا وَأَحْضَرَهُمْ نُعَاسًا وَأَقْلَمَهُمْ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ ثَبَاتًا

- وأجهلهم بمقدار الموافقة ولمقادير المقابلة وبحطّ اليد ورفعها وإمالتها ونصبها ، ثم رأيتُ في تضجّرهم وتكرّثهم وفرارهم منه ما صير تجشّمي لثقل وزنه ومقاساتي لجفاء حجمه أهونَ على يدي وأخفّ على قلبي . فإن ٣ تعاطيته عند ذلك بنفسى فشقاء حاضر وإن ألزمته غيرى فغيظ قاتل ، وحتى صارت الحال فيها داعيةً إلى ترك درسها والمعاودة لقراءتها ، مع ما كان فيها من الفائدة الحسنة والمنافع الجامعة ، ومن شجذ الطبيعة وتمكين حُسن ٦ العادة . ولولم يكن في ذلك إلا الشغل عن خوض الخائضين والبعد عن لهُو اللاحين ، ومن الغيبة للناس والتمني لما في أيديهم ، لقد كان نفع ذلك كثيراً وموقعه من الدين والفرض عظيماً . ومتى ثقل الدرس تناقلت ٩ النفس وتقاوست الطبيعة ، ومتى دام الاستئصال أحدث الهجران ، وإذا تطاول الكد رسخ الزهد ، وفي ترك النظر عمى البصر ، وفي إهمال الطبيعة كلال حدّ الطبيعة ، وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر ، كما أنه ١٢ على قدر غريزة العقل تصحّ الجوانح وتسقم ، وعلى قدر كثرة الحاجة تتجرّك الجارحة ويتصرّف اللسان ، ومع قلة الحركة وبُعد العهد بالتصرّف يحدث العمى ويظهر العجز ويُبْطِئُ الخاطر ، ومع ذهاب البيان يفسد البرهان ، ١٥ وفي فساد البرهان هلاك الدنيا وفساد الدين . فقد بلغت ما أردتَ ونلتَ ما حاولتَ ، فحسبك الآن من شجّ مَنْ يأسوك ومن قتل من يُقتل فيك (*) جعلتُ فذاك ، إنه ليس يؤمى منك بواحدٍ وأنا على عقابك أوحداً ، ١٨

(١) فدفعها ٢ — (١٣) لعلها : الجوارح — (١٥) البيان ، صححنا : البرهان ٢ —

(١٨) [إنه] ب — يؤمى ؟ — واحداً ب — في عقابك واحد ب

(*) (١٨ - ص ٧٦ ، ٣) جعلت ... ممطورة : رواية ب ١١

وليس يُنجيني منك مَعْقِلٌ وَعَلٍ ولا * مغارةٌ سَبْعٌ ، ولا قعرُ بحرٍ ولا
 رأسُ طَوْدٍ ، * < ولا سَنَى > ولا دَغْلٌ ، ولا دَخْلٌ ولا نَفَقٌ ، ولا
 ٢ مغارةٌ ولا مَطْمُورَةٌ . وليس يُنجيني منك إِلَّا مفازةُ المهلب ، فإن أعرتني
 قلبه وعلمتني حيلته وأمكنتنى من سِكِّينه ، وإِلَّا فأنا أولُ مَنْ ابتلَعته
 تلكَ الحَيَّةُ . (*) ولا والله * إنَّ بى قوة على الثُعبان فكيف التَّينين ، * < ولا على
 ٦ القُرزة فكيف الأَصَلَة > . أعفني من حَيَّةِ المهلب ثم أقتلني أَى قتلَةٍ
 شئت . إن احترستُ منك أَلْفَيْتُ لِنَفْسِي كَدًّا شديداً وغمًّا طويلاً ، وطال
 اغترابى * وافتراقُ أَلأَفَى ، وتعرَّضْتُ للعدوِّ وتحرَّشْتُ بالسباع ، * وإن
 ٩ استرسلتُ إليك لم ترَ أن تقتلني إِلَّا شرَّ قتلَةٍ * وآلمها ولم تُعذِّبني إِلَّا بأشدَّ
 النِّقمِ وأطولها ، ولو أردتَ ذُبْحِي لأخترتُ الكليل على المَرْهَفِ * والتطويل
 على التذفيف ، حتى كَأْنِي عَلمتُ عليك شاه مات أو أكلتُ سَبْعَةً
 ١٢ وأطعمتُك واحدةً

ولقد تقدَّمتَ فى المسكر واستظهرتَ علىَّ فى السكيد ، حتى تَوَلَّيتَ ذلك
 فى صِغارِ كَتَبِي وفيما لا تحفل به من دوامِ أَمْرِي ، وعلمتَ أَنَّ الدرس
 ١٥ لليل وأنَّ الأ... .. للنهار ، وأنَّ الكتاب لا يُقرأ ليلاً إِلَّا والنيران

(١) مغار ب — (٢) < ولا سنى > : كذا فى ب. فقط ويظهر أنه محرف —
 وع (=) وغل ب — ولا وحل < ولا لثق > ولا نفق ب — (٣) مغار ب —
 (٥) أرى قوة ب — (٥-٦) < ... > : كذا فى ب فقط — (٨) وفراقى ب —
 للسباع ب — وإن ب : فان د — (٩) والألمها ب — (١٠) [ذبحى] ب — الكليل
 المرتد ب — والطويل على الدقيق ب — (١١) عملت ب — شافمان ب — عشرة ب ،
 ولعل الصواب : تسعة — (١٥) بياض كلمة أو كلمتين فى الأصل ، وعلى الهاهش : حراو
 به (؟) ، ولعل الصواب : « وأن الاعراض عنه » أو ما يشبهه

- زاهرة والمصابيح مُقَرَّبَةً ، وعلمتَ أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَعَفَ بَصْرُهُ وَكَلَّ نَظْرُهُ ،
فإنه أبدأً أَقْرَبُ مَصْباحاً وَأَعْظَمُ ناراً ، * وَأَنَّ الحَرُورَ الحَرِيقَ والمَمُورَ
الْمَلْتَهَبَ واليَاسَ المَتَهافتَ ، إذا كان صاحبَ كُتُبٍ ودرَسَ فإنَّه لا يَجِدُ بُدًّا ٣
من الصبرِ على ما يُحَرِّقُه وَيَعْمِيه ، * أو التَّركَ للقراءة فيها والتعرُّضَ لها ،
نَحِيرَتِي بَيْنَ العَمَى والجَهْلِ ، وما فيهما حَظٌّ لِحَتَارِ
- ٦ وقلتَ : إذا سَخَنَ بَدَنُهُ سَجِنَ بُولُهُ ، وإذا سَجِنَ بُولُهُ جَرَحَ مِثْلانَتَهُ وأُحْرِقَ
كُلِّيَّتَهُ وطَبَخَ فُضُولَ غِذائِهِ وَجَفَّ ما فَضَّلَ عن اسْتِمْرانِهِ ، فأَحالَهُ حَصًّا
قَاتِلًا وصَخْرًا جامدًا ، وهو دَفِيقُ القُضيبِ ضَيِّقُ الإِحليلِ ، * فإذا حَصَّاهُ
يُورِثُهُ الأَسْرَ ، وفي ذلك الأَسْرُ تَلَفُ النَفْسِ أو غايَةُ التَّعْذِيبِ . وقلتَ : فإن ٩
ابْتَلَيْتُ بِطُولِ عَمْرِهِ أَقامَ فِينا مَشْغُولًا بِنَفْسِهِ ، وإن ذَهَبَ عَنَّا فَقَدَ كِفانًا
مُؤُونَةَ الحِيلَةِ في أَمْرِهِ
- ١٢ جُعِلَتْ فِدَاكَ ، ما هَذا الاسْتِقْصاءُ وما هَذا البَلاءُ ، وما هَذا التَّشْبِيعُ
لِغَوامِضِ المَسْأَلَةِ والتَّعَرُّضُ لِدَقائِقِ المَسْكَرَةِ ، وما هَذا التَّغْلُغُ في كُلِّ شَيْءٍ
يُحْمِلُ ذِكْرِي وما هَذا التَّرَقُّى إلى كُلِّ ما يَحْطُّ من قَدْرِي ، وما عَلَيكَ أَنَّ
تَكُونُ كَتَبِي كُلِّها من * الورقِ الصَبِيِّ ومن السَّكاغِدِ الخُراسانِي . قُلْ لِي لِمَ ١٥
زَيَّنْتَ النِّسْخَ في الجُلُودِ وَلِمَ حَشَنْتَنِي على الأَدَمِ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الجُلُودَ جافِيَّةَ
الحِجَمِ ثَقِيلَةَ الوِزَنِ ، إن أَصابها المَءُ بَطَلَتْ وإن كان يَومٌ لَثَقٍ اسْتَرَحْتَ ،
ولو لم يَكُنْ فيها إِلَّا أَنها تُبَغِّضُ إلى أربابِها نَزُولَ الغَيْثِ وتُكْرَهُ إلى مالِكِها ١٨
العَيَا لَكَانَ في ذلكَ ما كَفَى ومَنَعَ مِنْها ، * وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الوَرَّاقَ لا يَخْطُ في

(٢) فإن ٢ — (٣) انه ٢ — (٤) والترك ٢ — (٦) سيجن ٢ —

(٧) حصا ٢ — (٨) فارى حصاه ٢ — (١٥) ورق الصبي ٢ — (١٩) قد ٢

- تلك الأيام سطرًا ولا يقطع فيها جلدًا . وإن نَدَيْتَ فضلًا عن أن
تُمْطَرُ وفضلًا عن أن تغرق ، استرسلت وامتدت ، ومتى جفت لم تعد إلى
٣ حالها إلا مع تَبْضٍ شديد وتَشْجٍ قبيح . وهي أثنى ريحًا وأكثر
ثمنًا وأحمل للغش : يُغَشُّ الكوفُ بالواسطى والواسطى بالبصرى ، وتعتق
لكي يذهب ريحها وينجاب شعرها ، وهي أكثر عُقدًا وعُجْرًا وأكثر
٦ خَباطًا وأسقاطًا ، والصفرة إليها أسرع وسرعة انسحاق الخط فيها أعم .
ولو أراد صاحب علم أن يحمل منها قدر ما يكفيه في سفره لما كفاه حملُ بعير ،
ولو أراد مثل ذلك من القطنى لكفاه ما يحمل مع زاده . وقلت لى : عليك
٩ بها فإنها أحمل للحك والتغيير ، وأبقى على تعاور العارية وعلى تقلب الأيدي ،
ولرِدِّ يدها ثمنًا ولطرسها مرجوع ، والمعاد منها ينوب عن الجُدُد . وليس
لدفاتر القطنى أثمن في السوق وإن كان فيها كلُّ حديثٍ طريف ولطفٍ
١٢ مليح وعلمٍ نفيس ، ولو عرضت عليهم عدلها في عدد الورق جلودًا ، ثم كان
فيها كلُّ شعرٍ بارد وكلُّ حديثٍ غث ، لكانت أثمن ولكنوا عليها أسرع .
وقلت : وعلى الجلود يُعتمدُ في حساب الدواوين وفي الصِكاك والعهود وفي
١٥ الشروط وصُور العقارات ، وفيها تكون نموذجات النقوش ومنها تكون
خرائط البرد ، وهنَّ أصلح للجُرب ولِعِفاص الجَرَّة وسِدَاد القارورة .
وزعمت أن الأرضة إلى الكاغد أسرع ، وأنكرت أن تكون الفارة إلى الجلود
١٨ أسرع ، بل زعمت أنها إلى الكاغد أسرع وله أفسد ، فكنت سبب المضرة
في اتخاذ الجلود والاستبدال بالكاغد ، وكنت سبب البلية في تحويل الدفاتر

الخفاف في الحمل إلى المصاحف التي تثقل الأيدي وتَحْطِمُ الصدور وتَقْوِسُ
الظهور وتعمى الأبصار . وقد كان في الواجب أن يدع الناس اسم المصحف
للشيء الذي جمع القرآن دون كل مجلد ، وألا يروموا جمع شيء من أبواب ٣
التعلم بين الدفتين فيلحموا بما جعله السلف للقرآن غير ذلك من العلوم

دع عنك كل شيء . ما كان عليك أن يكون لي ولد يُحْيِي ذكري ويحوى
ميراثي ، ولا أخرج من الدنيا بحسرتي ، ولا يأكله مرء يرصدني وابن عم ٦
يحسدني ، ولا يرتع فيه المعدلون في زمان السوء ، ولا تُصْطَنع فيه
الرجال ويقضى به الذمام ، فقد رأيت صنيعهم في مال المفقود والمناعة والوارث
الضعيف ومن مات بغير وصية ٩

جعلت فداك ، إن النفوس لا تجود لمولى الكلالاة بما تجود به لأولاد
الأصلاّب وما مسّ تلك الأصلاّب ، لأنّ الرحم الماسة والقراة الملتصقة
واللحمة الملتحمة وإن أملت التركة ونازعت إلى الورث فمعها ما يأطرها ١٢
ويشبهها ويحزنها ويبيكها ويحرك دمها ويستغزر دمعها . وقد يشفع
للولد إلى أبيه حال أبيه كانت من أبيه وابن العم الذي ليس بالبعيد فيحتك
من حسده وليس بالقريب الحنو على رحمه . وسببه الجاذب له إلى تمّنى ١٥
مما تمّنى أمّن من سببه إلى تمّنى بقاى ، فهو إلى الحال الموجبة للقسوة
والغلظة أقرب منه إلى الحال الموجبة للرقة والعطف ، وليس ينصرك إذا
نصرك ولا يُحامى عليك لقربته منك ، ولكن لعلمه بأنه متى خذلك حلّ به ١٨

(٧) ولا يرقع — ولا يصطنع فيه الرجال — (٨) والضاعة ، لعل الصواب :
و <مولى> التباعة — (١٢) المورث — (١٣) ويشبهها — ويحول —
(١٤) كذا في — وظاهر أنه محرف — لعل الصواب : فيفتك — (١٥) وسبب الجاذب —

ضَعَفَكَ وَأَجْتَرَأَ بَعْدَ ضَعْفِكَ عَلَيْهِ عَدُوَّهُ ، فَهُوَ يَرِيدُ بِنَصْرِهِ مَنْ لَا يَجِبُ

عَلَيْهِ شُكْرُهُ ، وَيُقَوِّى ضَعْفَ غَيْرِهِ يَدْفَعُ الضَّعْفَ عَنْ نَفْسِهِ

جُعِلَتْ فِدَاكَ ، مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ بُنَى صَغِيرٍ يَكُونُ لِي ، وَلَا سَيِّئًا وَلَسْتُ ٣

عِنْدَكَ مِمَّنْ يُدْرِكُ كَسْبَهُ أَوْ تَبْلُغُ نَصْرَتَهُ أَوْ يُعَايَنُ بَرَّهُ أَوْ يُؤَمِّلُ إِمْتَاعَهُ .

وَمَا كَانَتْ عَلَيْكَ مَعَ كِبَرِ سِنِّي وَضَعْفِ رُكْنِي أَنْ يَكُونَ لِي رِيحَانَةٌ

أَشْمُهُا وَغَرَّةٌ أَضْمُهُا ، وَأَنْ أَجِدَ إِلَى الْأَمَانِي بِهِ سَبِيلًا وَإِلَى التَّالِي سُلْمًا ، وَأَنْ ٦

تُكْثِرَ لِي مِنْ جِنْسِ سُرُورِ الْحَالِمِ وَبِقَدْرِ مَا يُتَمَتَّعُ بِهِ رَاجِي السَّرَابِ اللَّامِعِ ،

حَتَّى حَبَبَتْ قِصَرَ عَمْرِي إِلَى وَلِيِّي وَشَوَّقَتْهُ إِلَى ابْنِ عَمِّي ، وَحَتَّى زِدْتَ فِيمَا

عِنْدَهُ مَعَ كَثْرَةِ مَا عِنْدَهُ ، وَحَتَّى صَيَّرْتَنِي حُبَّةً لَمُوتِي إِلَى حَبِّ مَوْتِهِ وَتَأْمِيلُ ٩

مَالِي < إِلَى > تَأْمِيلُ فَقْرِهِ ، وَحَتَّى شَغَلْتَنِي عَنْ كَانِ يَشْغَلُ عَدُوِّي عَنِّي .

وَسَوَاءٌ أَعِيبَتْ عَلَيَّ أَنْ لَا يَكُونَ لِي وَلَدٌ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ ، أَوْ عِيبَتْ عَلَيَّ أَنْ ١٢

لَا يَكُونَ بَعْدَ أَنْ كَانَ — فَإِنَّمَا يَعْذِّبُ اللَّهُ عَلَى النِّيَّةِ وَالْقَصْدِ وَعَلَى التَّوْحَى

وَالْعَمْدِ — * كَمَا أَنَّهُ سَوَاءٌ أَنْ تَحْتَالَ فِي الْآلَا يَكُونَ لِي مَالٌ قَبْلَ أَنْ

أَمْلِكُهُ أَوْ احْتَلَّتْ فِي الْآلَا يَكُونَ بَعْدَ أَنْ مَلَكَتُهُ . وَكَنْتُ لَا أَدْرِي مَا كَانَ

وَجْهُ حُبِّكَ لِإِعْنَاتِي وَلِلتَّشْيِيدِ بِذِكْرِ تَرَائِي وَالتَّنْوِيهِ بِأَسْمِي ، وَلَا مَزْهَدَتِي ١٥

فِي طَلَبِ الْوَلَدِ وَرَغْبَتِي فِي سِيَرَةِ الرُّهْبَانِ ، فَإِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْفَعْ ذِكْرِي فِي

الْأَغْنِيَاءِ إِلَّا لِتَعَرُّضِ ذَنْبِي لِلْفُقَرَاءِ ، وَلَمْ تُكْثِرْ مَالِي إِلَّا لِتَقْوَى الْعَلَّةِ فِي

قَتْلِي ، فَيَا هَا مَكِيدَةً مَا أَبْعَدَ غَوْرَهَا وَيَا هَا حَفْرَةً مَا أَبْعَدَ قَعْرَهَا ، (* لَقَدْ ١٨

جَمَعَ هَذَا التَّدْبِيرُ لَطَافَةَ الشَّخْصِ وَدِقَّةَ الْمَسْلُكِ وَبُعْدَ الْغَايَةِ

(١٠) < إِلَى > سَقَطَ مِنْ د — (١٢) وَكَأ — (١٩) وَبَعْدَ الْغُورِ وَدِقَّةَ الْمَسْلُكِ ب

(*) (١٨ - ص ٨٢ ، ٤) لَقَدْ جَمَعَ ... تَعَاشَرَ : رَوَايَةُ ب ١٣

والله لو دبرها الإسكندرُ على دارا بن دارا ، وأستخرجها المهلبُ على سفيان
ابن الأبرد ، * وفتحت على هرثمة في مكيدة خازم بن خزيمه ، * ولو دبرها لقيمُ
* ابنُ لقمان على لقمان بن عادٍ ، * ولو أذاعها قيس بن زهير على حصن بن حذيفة ،
* ولو توجهت لكهّان بنى أسد على دهاة قریش ، * لقد كان ذلك من
تدبيرهم * نادراً < بديعاً > ولكن كان في مكيدتهم شاذّاً غريباً ، وإنها لترتفع عن
قصير في كيد الزبّاء * وعن جذيمة في * مشاورة قصير ، * وما إخالها إلا وتدقُّ
* على ابن العاص * وتغمضُ على ابن هندٍ ويكلُّ عنها أخوتقيفٍ ويستسلم
لها ابنُ سُمَيّة . هذا والله التدبيرُ ، لا مخاريق العراف * وتزاوير
* الكاهن * وتهاويل الحاوي ، ولا ما ينتجها صاحبُ الزرق (؟) ، بل تضلُّ
فيها رُقَى الهند وتقرّبها سَحَرَة بابل

* فلو كنتَ — إذ أردتَ ما أردتَ وحاولتَ ما حاولتَ — رفعتَ قبل
كلِّ شيءٍ المؤانسة ، * ثم أبيتَ المؤاكلة ، * ثم قطعتَ البرَّ ، * ثم أذنتَ مع العامة * ،
* ثم أعملتَ الحرمان ، * ثم صرّحتَ بالجفوة ، * ثم أمرتَ بالحجاب ، * ثم صرمتَ
الحبل ، * ثم عادتَ واقتصدتَ ، * ثم من بعد ذلك كلّهُ أسرفتَ واعتديتَ * ،
* لكنتُ واحداً ممن يصبرُ أو يجزع . فلعلّي كنتُ أعيش بالرفق وأتبلغ
* بحُشاشة النفس وأعللُ نفسي بالطمع الكاذب . ولكنَّ فُجاءاتِ الحوادث

(٢) وفتحت ٢ ، وسحب ب — أو دبرها ب — (٣) [ابن لقمان] ب — وأذاعها
ب — حصين ب — (٤) و [لو] توجهت ب — [لقد] ب — (٥) [بديعاً] ٢ ،
نادراً < بديعاً > وشاذّاً غريباً ب — (٦) وعن ب . عن ٢ — مشاورة ب — وتدق
ب : ستدق ٢ — (٨) وتزاوير ٢ — (٩) الكهّان ب — الحان ب — ينتجها صاحب
الدين ب ، ينتجها صاحب الرى ٢ ، ونرجح أن يكون الصواب «الزرق» أى الخدعة —
(١١) ولو ب — إذ ، صححنا : إذا ٢ — (١٢) [ثم أبيت ... العامة] ب —
(١٤) [ثم عادت ... واعتديت] ب — (١٥-١٦) [أو يجزع ... الكاذب] ب

وَبَغْتَاتِ الْبَلَاءِ ، لَا يَقُومُ لَهَا الْحِجْرُ الْقَاسِي وَلَا الْجَبَلُ الرَّاسِي ، فَلَمْ تَدْعَ غَايَةً
 فِي صَرْفِ مَا بَيْنَ طَبَقَاتِ التَّعْذِيبِ إِلَّا أَتَيْتَ عَلَيْهَا وَلَا فَضُولَ مَا بَيْنَ قَوَاصِمِ
 ٣ الظَّهْرِ إِلَّا بَلَّغْتَهَا ، فَقَدْ مِتُّ الْآنَ فَمَعَنَّ تَعِيشُ ، > بَلْ قَدْ قَتَلْتَنِي فَمَنْ
 الْآنَ تُعَاشِرُ ! < . كَمَا قَالَ دِيُوسْتِ الْمَغْنَى لِكِسْرَى حِينَ أَمَرَ بِقَتْلِهِ لِقَتْلِهِ تَلْمِيزُهُ
 * بَلْهَيْدُ : قَتَلْتُ أَنَا بَلْهَيْدُ وَتَقَتَلْتَنِي ، فَمَنْ يُطْرَبُكَ ؟ قَالَ : خَلُّوا سَبِيلَهُ فَإِنَّ
 ٦ الَّذِي بَقِيَ مِنْ عَمْرِهِ هُوَ الَّذِي أَنْطَقَهُ بِهَذِهِ الْحِجَّةِ . وَلَكِنِّي أَقُولُ : قَدْ قَتَلْتَنِي فَمَعَنَّ
 مِنْ تَعِيشٍ ؟ أَمَعَ الشَّطْرُ نَجِيمِينَ ؟ فَقَدْ قَالَ جَالِينُوسُ : إِيَّاكَ وَالِاسْتِمْتَاعَ بِشَيْءٍ
 لَا يَمُتُّ نَفْعُهُ

١ (*) [إِنْ الْكَلَامَ إِنَّمَا صَارَ أَفْضَلَ مِنَ الصَّمْتِ لِأَنَّ نَفْعَ الصَّمْتِ لَا يَكَادُ
 يَعْدُو الصَّامَتَ وَنَفْعَ الْكَلَامِ يَمُتُّ الْقَائِلَ وَالسَّامِعَ وَالْغَائِبَ وَالشَّاهِدَ وَالرَّاهِنَ
 وَالْغَائِبَ . قَالُوا : وَمِمَّا يَدُلُّ مَنْ فَضَلَ الْكَلَامَ عَلَى الصَّمْتِ أَنَّكَ بِالْكَلامِ تُخْبِرُ
 ١٢ عَنْ الصَّمْتِ وَفَضْلِهِ وَلَا تُخْبِرُ بِالصَّمْتِ عَنْ فَضْلِ الْكَلَامِ . وَلَوْ كَانَ الصَّمْتُ
 أَفْضَلَ لَكَانَتِ الرِّسَالَةُ صَمْتًا وَلَكِنْ عَدِمَ الْقُرْآنُ أَفْضَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ
 فَرَّقَ بَيْنَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَضَّلَ وَمَيَّزَ وَحَصَّلَ حَيْثُ قَالَ :
 ١٥ رَحِمَ اللَّهُ أَمْرَاءَ قَالَ خَيْرًا فَعَنِمَ أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ . فَجَعَلَ حِطَّ السَّكُوتِ السَّلَامَةَ
 وَحَدَّهَا ، وَجَعَلَ حِطَّ الْقَوْلِ الْجَمْعَ بَيْنَ الْغَنِيمَةِ وَالسَّلَامَةِ ، وَقَدْ يَسْلَمُ مِنْ
 لَا يَغْنَمُ وَلَا يَغْنَمُ إِلَّا مِنْ سَلَمٍ]

(١-٣) [فلم تدع ... بلغتها] ب — (٣) فمن يعيش ب — (٤) > بل قد ...
 تعاشر < ب — (٥) بلهيد (مرتين) — (٩) إنما الكلام د — (١١) لعل الصواب :
 على فضل — لأنك بالكلام د

(*) نرجح أن الفصل من سطر ٩ (إن الكلام) إلى سطر ١٧ (من سلم) ليس في
 مكانه ولعله مأخوذ من رسالة أخرى للجاحظ

فَأَمَّا الدَّوَابُّ فَمَنْ يَضَعُ الْمَرْكَبَ الْكَرِيمَ إِلَى الصَّاحِبِ الْكَرِيمِ ، وَمَنْ
يَعْدِلُ إِمْتَاعَ بِهِيمَةٍ بِإِمْتَاعِ أَدِيبٍ ؟ قَالَتْ ابْنَةُ النُّعْمَانِ . لَمْ تَرَفِيَا جَرَّبْنَا مِنْ جَمِيعِ
الْأَصْنَافِ أَبْلَغَ فِي خَيْرٍ وَشَرٍّ مِنْ صَاحِبٍ . وَلَمَّا عَزَمَ ابْنُ زِيَادٍ عَلَى الْحَقْنَةِ ٣
أَنْ كَانَ نَفَحَ شَهَا قَالَتْ لَهُ حَارِثَةُ بْنُ بَدْرٍ : مَا أَجْدَ أَوْلَى بِتَوَلَّى ذَلِكَ مِنَ الطَّيِّبِ .
قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ : كَلَّا ، فَأَيْنَ الصَّاحِبِ !

(*) وَاللَّهِ لَوْ نَتَجَتْ فِي كُلِّ عَامٍ أَلْفٌ شَبِيدِينَ ٦ وَقَهَرَتْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ أَرْبَعَةَ
أَلْفٍ رَرْبٍ ٧ وَصَارَ لَكَ كُلُّ نَهْرٍ الْمَرْكُ بَدَلًا مِنْ بَعْضِ نَامِكَ ٨ ، وَأَكَلَتْ
رَأْسَ الْجَنْفِيدِ بْنِ حَاقِ الْأَشِيمِ ٩ وَاحْتَلَتْ بَيْنَ الْغَرِّ مِنْ إِفْرَاطِ الشَّبَقِ ١٠ ، لَمَّا كَانَ
يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُعَامِلَنَا بِهَذِهِ الْمَعَامِلَةِ وَلَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ ١١ نَقْتُلْنَا هَذِهِ الْقَتْلَةَ .
وَلَوْ اقْتَصَرْتَ مِنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى شَيْءٍ دُونَ شَيْءٍ ١٢ لَكُنَّا أَعْدَلُ وَلَوْ عَفَوْتَ الْبَتَّةَ
لَكُنَّا أَمْثَلُ (*) . إِنَّ الْأَعْتَزَامَ عَلَى قَلِيلِ الْعِقَابِ يَدْعُو إِلَى كَثِيرِهِ ، وَمَتَّبِعْدَى
الْعِقَابِ بَعَرَضَ لِحَاجٍ ، وَلَيْسَ يُعَاقِبُ إِلَّا غَضْبَانُ ١٣ ، وَالْغَضَبُ يَغْلِبُ الْعَزَمَ عَلَى
قَدَرِ مَا مَكُنَّ وَيُخَيِّرُ اللَّبَّ بِقَدَرِ مَا سَلَطَ ، وَالْغَضَبُ يُصَوِّرُ لِصَاحِبِهِ مِثْلَ
مَا يُصَوِّرُ السُّكْرُ لِأَهْلِهِ ، وَالْغَضْبَانُ يُشْغَلُهُ الْغَضَبُ وَيَغْلِي بِهِ الْغَيْظُ وَتَسْتَفْرِغُهُ
الْحَرَكَةُ وَيَمْتَلِئُ بَدَنُهُ رِعْدَةً وَتَنْزَايِلُ أَخْلَاطُهُ وَتَنْفَجِلُ عَقْدُهُ وَلَا يَعْتَرِيهِ ١٥
مِنَ الْخَوَاطِرِ إِلَّا مَا يَزِيدُهُ فِي دَائِهِ وَلَا يَسْمَعُ مِنْ جَلِيسِهِ إِلَّا مَا يَكُونُ مَادَّةً

(٦) الْوُتَجَتْ ٢ — شَبِيدِينَ ٢ : سَبِيدِينَ ٢ — وَقَهَرَتْ ٢ : وَأَحْبَلَتْ ٢ —
(٧) أَلْفٌ ٢ — (٧-٨) [وَصَارَ لَكَ ... الْأَشِيمِ] ٢ — (٧) نَهْرُ الْمَرْكِ ... نَامِكَ :
كَذَا ٢ وَلَمْ تَوْفُقْ إِلَى تَصْحِيحِهِ ، رَاجِعْ ص ٦٥ ، ٤ ؟ — (٨) وَاحْتَلَتْ ... الشَّبَقِ ٢ :
وَاحْتَلَتْ ابْنُ الْغَرِّ مَعَ إِفْرَاطِ السَّبَقِ ٢ ، وَكَلَّمَا الرُّوَايَتَيْنِ ظَاهِرَةُ التَّحْرِيفِ — (٩) [أَنْ
تُعَامِلَنَا ... يَنْبَغِي أَنْ] ٢ — نَقْتُلْنَا ٢ — (١٠) مَعَ <هَذِهِ> الْعُقُوبَةِ ٢ — [لَكُنَّا
أَعْدَلُ ... الْبَتَّةَ] ٢

للساده ، وعلى أنه ربما استفرغ حتى لا يسمع واحترق حتى لا يفهم . ولولا
 أن الشيطان يريد ألاَّ يخلو من عمله ولا يقصر في عاداته ، لما وسوس إلى
 الغضبان ولا زين له ولما أغراه ولا فتح عليه ، إذ كان قد كفاه وبلغ
 أقصى مناه . وليس يصرع الغضب أيام شبابه وغرب نابه شيء إلاَّ صرعه
 ولا يئازعه قبل انتهائه وإدباره شيء إلاَّ قهره ، وإنما يحتال له قبل هيجه
 ويتوَقَّ منه قبل حركته ويتقدَّم في حسم أسبابه وفي قطع عله . فأما إذا
 تمكن واستفحل وأذكى ناره واشتعل ، ثم لاقى ذلك من صاحبه قدرة ومن
 أعوانه سمعاً وطاعة ، فلو سعطته بالتوراة ووَجَّرته بالإنجيل ولدته
 بالزبور وأفرغت على رأسه القرآن إفراغاً وأتيت به آدم عليه السلام شفيعاً ،
 لما قصر دون أقصى قوته ولمتن أن يعار أضعاف قدرته . وقد جاء في الأثر :
 إنَّ أقرب ما يكون العبدُ من غضبِ الله إذا غضب . قال قتادة : ليس يسكن
 الغضب إلاَّ ذكرُ غضبِ الرحمن عز وجل . وقال عمرو بن عبَّيد : ذِكرُ
 غضبِ الربِّ يمنعُ من الغضب . إلاَّ أن يريد الذكر باللسان ، ويسمَّى
 المتوجد غضبان والذِّكْرُ حقوداً

١٥ (*) فلا تقف — حفظك الله — بعد مُضِيكِ في عقابي التماساً للعفو
 عني ، ولا تقصر عن إفراطك من طريق الرحمة لي . ولكن قف وقفة من
 يتهم الغضب على عقله والشيطان على دينه ، ويعلم أنَّ للعقل خصوماً وللكرم
 أعداء ، وأنَّ من النَّصف أن تنتصف لعقلك من خصمه وتنتصف لكرمك

(١) كذا ، ولعلها : استفرغ — (١٤) غضباناً — (١٥) جعلني الله فداك ب —
 [في عقابي] ب — (١٦) في إفراطك ب — (١٧) وتعلم ب — (١٨) النصمة ب —
 و [تنتصف] لكرمك ب

- من عدوه ، وتُمْسِكُ إمساكاً مَنْ لَا يُبَرِّئُ نَفْسَهُ مِنَ الْهُوَى ١ ولا يَبَرِّئُ الْهُوَى
 من الخطأ ، ولا تُنْكِرُ لِنَفْسِكَ أَنْ تَزَلَّ ٢ ولَعَلَّكَ أَنْ يَهْفُو ، فَقَدْ زَلَّ آدَمُ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَذَا ٣ وَعَصَى رَبَّهُ وَغَوَى وَغَرَّهُ عَدُوُّهُ وَخَدَعَهُ خَصْمُهُ وَعِيبَ ٤
 بِأَخْتِلَالِ عِزِّهِ وَسَكُونِ قَلْبِهِ إِلَى خِلَافِ ثِقَّتِهِ ، هَذَا وَقَدْ خَلَقَهُ اللَّهُ
 بِيَدِهِ وَأَسْكَنَهُ فِي دَارِ أَمْنِهِ وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ وَرَفَعَ فَوْقَ الْعَالَمِينَ
 دَرَجَتَهُ وَعَلَّمَهُ جَمِيعَ الْأَسْمَاءِ بِجَمِيعِ الْمَعَانِي (*) . وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَعْلَمَهُ الْأَسْمَ وَيَدْعَ ٦
 الْمَعْنَى ، وَيَعْلَمَهُ الدَّلَالَةَ وَلَا يَضَعُ لَهُ الْمَدْلُولَ عَلَيْهِ . وَالْأَسْمُ بِلَا مَعْنَى
 لَفْوٌ كَالظَّرْفِ الْخَالِي ، وَالْأَسْمُ فِي مَعْنَى الْأُبْدَانِ وَالْمَعَانِي فِي مَعْنَى الْأَرْوَاحِ ،
 اللَّفْظُ الْمَعْنَى بَدَنٌ وَالْمَعْنَى لِلْفَرْقِ رُوحٌ . وَلَوْ أَعْطَاهُ الْأَسْمَاءُ بِلَا مَعْنَى لَكَانَ ٩
 كَمَنْ وَهَبَ شَيْئاً جَامِداً لَا حَرَكَةَ لَهُ وَشَيْئاً لَا حِسَّ فِيهِ وَشَيْئاً لَا مَنْفَعَةَ
 عِنْدَهُ . وَلَا يَكُونُ اللَّفْظُ أَسْماً إِلَّا وَهُوَ مُضَمَّنٌ بِمَعْنَى ، وَقَدْ يَكُونُ الْمَعْنَى وَلَا أَسْمَ
 لَهُ وَلَا يَكُونُ أَسْمُ إِلَّا وَلَهُ مَعْنَى . فِي قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ ١٢
 كُلَّهَا ، إِبْخَارٌ أَنَّهُ قَدْ عَلَّمَهُ الْمَعَانِيَ كُلَّهَا . وَلَسْنَا نَعْنِي مَعَانِيَ تَرَكَيبِ الْأَلْوَانِ
 وَالطُّعُومِ وَالْأَرَائِيحِ وَتَضَاعِيفِ الْأَعْدَادِ الَّتِي لَا تَنْتَهِي وَلَا تَقْتَنَاهِي . وَلَيْسَ لِمَا
 فَضَّلَ عَنْ مَقْدَارِ الْمَصْلَاحَةِ وَنَهَايَةِ الْوَهْمِ أَسْمُ ، إِلَّا أَنْ تُدْخِلَهُ فِي بَابِ الْعِلْمِ فَتَقُولَ ١٥
 شَيْءٌ . وَمَعْنَى الْأَسْمَاءِ الَّتِي تَدُورُ بَيْنَ النَّاسِ إِنَّمَا وُضِعَتْ عِلَامَاتٍ لِمَخَصَصَاتِ
 الْحَالَاتِ لَا لِنَتَائِجِ التَّرَكِيبَاتِ . وَكَذَلِكَ خَاصُّ الْخَاصِّ لَا أَسْمَ لَهُ ، إِلَّا أَنْ
 نَجْعَلَ الْإِشَارَةَ الْمَوْصُولَةَ بِالْفَرْقِ أَسْماً . وَإِنَّمَا تَقَعُ الْأَسْمَاءُ عَلَى الْعُلُومِ الْمَقْصُورَةِ ، ١٨

(١) وَلَا [يَبْرِئُ] ب — (٢) وَ < لَا > لَعَلَّكَ ب — (٣) [عَلَيْهِ السَّلَامُ] ب —
 وَ < قَدْ > عَصَى ب — (٤) ثِقَّتَهُ ب : نَعْتُهُ د — (٨) لَعَلَّهُ : وَالْأَسْمَاءُ — (١٨) اللَّفْظُ د

ولعمري إنها لتُحيطُ بها وتشتمل عليها . فأما العلوم المبسوطَة فإنما تبلغ
الأسماء مبالغ الحاجات ثم تنتهي . فإذا زعمت أن الله تبارك وتعالى علَّم آدمَ
الأسماء كلها بمعانيها فإنما يعني نهاية المصلحة لا غير ذلك ٣

(*) هذا وآدم هو الشجرة وأنت ثمرة ، وهو سماوى وأنت أرضى ،
وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحقُّ بالقوة والفرع أولى بالضعف .
فلمست أسألك أن تمسك إلّا ريثما تسكن إليك نفسك ويرتد إليك ذهنك ،
وحتى توازن بين شفاء الغيظ والانتفاع بثواب العفو(*) ، وترى الحلم وما
يجلب من السلامة وطيب الأحداث ، وترى تصرُّم الغرض وما يُفضي لأهله
من فضل القوة . على أن العقل إذا تخلص من سُكر الغضب أصابه ما يصيب
الخمور إذا خرج من سُكر شرابه والمنهزم إذا عاد إلى أهله والمبرسم إذا
أفاق من برسامه . وما أشك أن العقل حين يُطلق من إساره كالمقيد حين
يُفك من قيوده ، فإنه يمشى كالنزيف ويحجل كالغراب . فإذا وجب عليك
أن تحذر على عقلك مخامرة داء الغضب بعد تخلصه وأن تتعمده بالعلاج بعد
مباينته له وتخلصه من يده ، فما ظنك به وهو أسير في ملكه وصرير تحت
كلِّ كَلِّه ، وقد غطّه في بحره وغمره بفضل قوته ١٥

وقد زعموا أن الحسن حضر أميراً قد أفرط في عقوبة بعض المذنبين ،
فكلمه فلم يحفل بكلامه وخوفه فلم يتعظ بزجره ، فقال إنك إنما تضربُ
نفسك ، فإن شئت الآن فأقلِّ وإن شئت فأكثر . ومعاذ الله أن أقول لك
كما قال الحسن لذلك الظالم المعتدى والمصمم القاسى . ولكني أقول : أعلم ١٨

(١) فانها — (٨) لعله : الغيظ ، أو الغضب ؟

أنك تضرب مَنْ قد جعلك من قَتْلِهِ فِي حِلٍّ . وإن كان القَتْلُ يَحِلُّ بِإِحْلَالِ
المَقْتُولِ وَيَسْقُطُ عَنْهُ عِقَابُهُ بِهَيْبَةِ الْمَظْلُومِ ، وَلَوْ أَمَكْنِ فِي الدِّينِ تَوَاهُبَ قِصَاصِ
الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا تَجَوَّدُ بِهِ النَّفْسُ يَوْمَ الْحَاجَةِ إِلَى
الثَّوَابِ وَإِلَى دَفْعِ الْعِقَابِ ، وَكَانَ الْوَفَاءُ مَضْمُونًا ، لَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ
أَسْمَحَتْ بِذَلِكَ نَفْسُهُ وَانْشَرَحَ بِهِ صَدْرُهُ

(*) جُعِلَتْ فِدَاكَ ، أَعْلَمُ أَنِّي قَدْ أَحْصَيْتُ جَمِيعَ أَسْبَابِ التَّعَادِي وَحَصَلَتْ
جَمِيعَ عِلَلِ التَّضَاغِنِ ، إِلَّا عِلَّةَ عِدَاوَةِ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ ، فَإِنِّي لَا أَعْرِفُ
إِلَّا مَجَازَهَا فِي الْجُمْلَةِ وَلَا أَحَقَّ خَاصَّتِهَا عَلَى التَّحْصِيلِ ، وَعَلَى < كُلِّ >
حَالٍ فَقَدْ عَرَفْتُهَا مِنْ طَرِيقِ الْجُمْلَةِ وَإِنْ جَهَلْتُهَا مِنْ طَرِيقِ التَّفْصِيلِ .
فَأَمَّا هَذَا التَّجَنِّي فَلَمْ أَعْرِفْهُ فِي خَاصٍّ وَلَا عَامٍّ .

فَمِنْ أَسْبَابِ الْعِدَاوَاتِ تَنَافُسُ الْجِيرَانِ وَالْقَرَابَاتِ وَتَحَاسُّدُ الْأَشْكَالِ فِي
الصَّنَاعَاتِ ، وَمِنْ أَمْتِنِ أَسْبَابِهِمْ إِلَى الشَّرِّ وَأَسْرَعَهَا إِلَى الْمَرْوَةِ وَالْعَقْلِ وَأَقْدَحَهَا
فِي الْعَرَضِ وَأَحْطَهَا عَلَى الدِّينِ ، التَّشَاحُّ عَلَى الْمَوَارِيثِ وَالتَّنَازُعُ فِي تَخْوِمِ
الْأَرْضِينَ ، فَإِنْ اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْمُتَشَاكِلِينَ فِي الْقَرَابَةِ كَانَ السَّبَبُ
أَقْوَى وَالْدَاءُ أَدْوَى ، وَعَلَى حَسَابِ ذَلِكَ إِنْ جُمِعَتْ هَذِهِ الْخُصُومَةُ مَعَ الْجَوَارِ
وَالْقَرَابَةِ وَاسْتَوَاءِ الْحَظِّ فِي الصَّنَاعَةِ . وَلِذَلِكَ كَتَبْتُ مُعَمَّرُ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ —
إِلَى قَضَاتِهِ أَنْ رُدُّوا الْقَرَابَاتِ عَنْ حَرِّ الْقَضَاءِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يورِثُ التَّضَاغِنَ
وَلَمْ أَعْجَبْ مِنْ دَوَامِ ظَلَمِكَ وَثِبَانِكَ عَلَى غَضَبِكَ وَغِلَظِ قَلْبِكَ ، وَدَوْرُنَا

(٥) ذَلِكَ — (٨) [إِلَّا] ب — < كُلِّ > : أَضْفَيْنَاهُ ، وَقَدْ سَقَطَ مِنْ (٢)

و ب — (١٠) فِي عَامٍ وَلَا خَاصٍّ ب — (١٧) كَذَا (٢)

بالمسك متجاورة ومنازلنا بمدينة السلام متقابلة ، ونحن ننظر في علم
واحد . ونرجع في النحلة إلى مذهب واحد ، (*) ولكن اشتد تعجبي منك اليوم
٣ وأنا بفرغانة . وأنت بالأندلس ، وأنا صاحب كلام . وأنت صاحب نتاج ،
وصناعتك جودة الخطِّ وصناعتي جودة الحوِّ ، وأنت كاتب وأنا أمِّي ، وأنت
خارجي وأنا عُشْرِي ، وأنت زرعِي وأنا نخلي . فلو كنتُ إذ كنتَ من بكر
٦ كنتُ من تميمٍ كان لك إلى العداوة سببٌ وإلى المنافسة سُلَّمٌ
(†) أنت أبقاك الله شاعرٌ وأنا راوية ، وأنت طويل وأنا قصير ، وأنت
أصلع وأنا أنزع ، وأنت صاحب برازين وأنا صاحب حمير ، وأنت
٩ ركين وأنا عجول ، وأنت تدبِّر لنفسك وتقيم أودَّ غيرك وتتسع لجميع
الرعية وتبلغ بتدبيرك أقصى الأمة ، وأنا أعجز عن تدبير نفسي وعن تدبير
أمتي وعبدِي ، وأنت مُنعمٌ وأنا شاكر ، وأنت مَلِكٌ وأنا سوقةٌ ، وأنت
١٢ مصطنعٌ وأنا صنيعة . وأنت تفعل وأنا أصفُ ، وأنت مُقدمٌ وأنا تابع ،
وأنت إذا نازعت الرجال وناهضت الأَكفاء ، لم تَقُلْ بعد فراغك وانقطاع
كلامك لو كنتُ قلتُ كذا كان أجود ولو تركتُ قول كذا لكان
١٥ أحسن ، أَمْضَيْتَ الأمور على حقائقها وسلَّمْتَ إليها أفساطها على مقادير
حقوقها ، فلم تندم بعد قولٍ ولم تأسف بعد سكوتٍ ، وأنا إن حكمتُ ندمتُ

(٤) الحو : النجوم ٥ - (٦-٥) إذ كنت من تميم كنت من بكر ب - (٦) سبباً
٥ - سلما ٥ - (٨) أنزع ب - (١٠) ويبلغ تدبيرك م - عن تدبيري م ، عن
نفسى ٥ - (١١) [وأنت ملك وأنا سوقة] ب - (١٢) متقدم م - (١٤) لكان م -
كان ب - (١٥) وأمضيت ٥ - أفساطها ب - (١٦) حكمت م : تكلمت ٥ ، جلت ب

(*) (٢ - ص ٨٩ ، ٢) ولكن اشتد ... لا أحد : رواية ب ١٨

(†-†) (٧ - ص ٨٩ ، ١) أنت أبقاك ... بدعت : رواية م ٦

وَإِنْ جَارَيْتُ أَبَدْتُ^(١) وَرَأَيْتُ كُلَّهُ دَبَرِيَّ . وَأَنْتَ تُعَدُّ فِي الشَّطْرَيْنِ
زَرْبٍ وَأَنَا فِي الشَّطْرَيْنِ لَا أَحَدُ^(*)

وما أعرف ههنا اجتماعاً على مشاكلة ، إلا في الإيثار بخبز الخشكار على
الحواري والباقي على الجوزينج ، وأنا جميعاً ندعى الهندسة . فقد بلغ الآن
من جرمي في مساواتك في خبز الخشكار وإيثارى الباقي والمعرفة بتقدير
المدن وإجراء القنى ، أن أنفى من جميع الأرض وأن تجعل في دمي
الجعائل . فأتى قد هجرت الخبز البتة إلى مواصلة التمر ونزلت الوبر بدلاً
من المدر

دَعْنَا الْآنَ فَإِنَّكَ فَارِغٌ . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَكُنِي بِهِ عَلِيماً وَكُنِي بِهِ شَهِيداً وَكُنِي
بِهِ حَفِيزاً وَوَكِيلاً وَكُنِي بِجُرْأَةٍ مَنْ يَعْلَمُهُ مَا لَا يَعْلَمُ جُرْأَةً وَتَعَرُّضاً وَكُنِي
بِحَالِهِ عِنْدَ اللَّهِ بُعْداً وَمَقْتاً . لَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَفْذِيكَ بِنَفْسِي فِي بَعْضِ كِتَابِي ،
وَكُنْتُ عِنْدَ نَفْسِي فِي عِدَادِ الْمَوْتَى وَفِي حَيْزِ الْهَلَاكِ ، فَرَأَيْتُ أَنَّ مِنَ الْخِيَانَةِ
لَكَ وَمِنَ الْوُثْمِ فِي مُعَامَلَتِكَ ، أَنْ أَفْذِيكَ بِنَفْسِي مَمِيتَةً وَأَنْ أُرِيكَ أَنِّي قَدْ
جُدْتُ لَكَ بِأَنْفَسِ عِلْقٍ وَالْعِلْقُ مَعْدُومٌ . لَيْسَ أَنْ مَنْ قَدْ فَدَاكَ فَقَدْ جُعِلَ
فِدَاكَ ، وَلَسْكَنَهَا نِهَايَةً مِنْ نِهَايَاتِ التَّعْظِيمِ وَدَلِيلَ مِنْ دَلَائِلِ الْاجْتِهَادِ ، وَمَنْ
أَعْلَنَ الْاجْتِهَادَ لَكَ وَاسْتَسْرَّ خِلَافَ ذَلِكَ ، فَقَدْ نَافَقَ وَخَانَ وَغَشَّ وَأَلَامَ ،
وَأَخْلَقَ بَيْنَ أَخْلَافٍ بِهَذِهِ الْأَيْرَعِ حَقّاً وَلَا يَرْجِعُ إِلَى حَقِّهِ وَلَا إِلَى حَقِيقَةٍ
ثُمَّ أَنْتَ لَا إِشْفِيكَ مَتَى السَّمُّ الْمُجْهَزُ وَلَا السَّمُّ السَّارِي فَإِنَّهُ أَبْعَدُ غَايَةً

(١) وَإِنْ جَارَيْتُ أَبَدْتُ م : وَإِنْ جَارَيْتُ هَرَبْتُ ب ، سَقَطَ مِنْ د — [تعد] ب —

(٢) زَرْبٍ د ، زَرْبٍ ب — لَا جَد ب — (٤) عَنِ د — (٧) وَنَزَلْتُ ، صَحَّفْنَا :

وَتَرَكْتُ د — (١٢) نَفْسِي د

في التطويل وأبلغ في التعذيب ، لا ولا لعاب الأفاعي وداهية الدواهي ،
 فإنه يُعجزُ الرُّقَى ويفوتُ ذرعُ الأطباء ، لا ولا نارُ الدنيا ، بل لا يشفيك
 ٣ من نار الآخرة إلا الجحيم ، ولا يشفيك من الجحيم إلا أن أُرعى في سوائه وفي
 أضطمة ناره وفي مُعظم حريقه وفي موضع الصميم من لهيبه ، بل لا تكتفي
 بذلك دون الدرك الأسفل ، بل لا يُرضيك شيء سوى الهاوية ، بل لا ترضى
 ٦ إلا بعذاب آل فرعون أشد العذاب ، بل لا يُرضيك إلا عذاب إبليس الذي
 زين الخسر للعباد وبشه في البلاد ، والذي خطأ الرب وعانده وردّ قوله
 وغير عليه تدبيره ، ولم يزد إلا شكاً ولجاجةً وتمادياً وإصراراً ، ثم لم يرض
 ٩ من الحد في مخالفة أمره وخلع العذار في شدة الخلاف عليه ، إلا بأن يحلف
 على شدة اجتهاده في ذلك بعزته ، فجعل العزة المانعة من إسخاطه سبيلاً إلى
 إسخاطه ، والقسم الحاجز دون إغضابه وسيلة إلى إغضابه ، حيث قال :
 ١٢ فَبِعِزَّتِكَ لَا غُيُوبَ لَهُمْ أَجْمَعِينَ

فعليك — عافاك الله — بإبليس إن كنت لله تغضب ، أو عليك بالأ كفاء
 إن كنت لنفسك تتشقى . لا ولكنك استغمرتني واستضعفتني ، وجعلتني
 ١٥ فرّوج الرقا ، (*) وتريد أن تتعلم في معاقبة الأعداء (*) . فإن كنت إلى هذا
 تذهب فجعفر بن معروف أضعف مني وعبد الله بن عيسى أسوأ خبراً مني
 سبحان الله يسلم عليك حيدر الأفشين ويهلك عليك عمرو الجاحظ ،

(٨) يردده — وتبيننا — (١٢) وعزتك — (١٥) كذا في — ولعله
 الرقاء — (١٧) الإفشيني —

ويسود بك أبعاد البُعداء ويشقى بك أقرب القرباء ، وتتغافلُ عن مثلِ
الجبال التماساً للتسليم وحباً للسلامة ، وتتغلغل إلى المحقرات طلباً للتعريض
وحباً للشر . ومتى قدرت على عدوك فلم تجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ،
ومتى لم تتغافل عنه تـكـرماً أو تدعه إحقاراً ، ومتى اكترت لكبير أو
ضاق صدرك عن شيء عظيم ، فهأنذا بين يديك فكلني بخلٍ وخرذلٍ ،
فوالله إنك لتأكله غثاً غير مريٍّ وخبيثاً غير شهىٍّ

لا (*) والله لكانك وقعت على مطمورة وظفرت برأس خاقان (*) .
كنت أظن أن الرشاقة والحلم لا يجتمعان وأن ظرف الإنسان وإصابة
الرأى لا يقترنان ، وأن النزق والخفة مقرونان بحفة البدن وأن الركابة
والأناة مجموعان لصاحب السمن . حتى رأيتك فأعتدت بك خلاف ذلك
الرأى واستبدلت فيك ضد ذلك الظن ، فتركتني حتى إذا نازعت الرجال
وتعرضت للشجى وشغلت نفسي بثلب الخصام وانقطعت إلى أصحاب
القدود وجعلت عداوتي في تقديم القضاة ، وطال لساني بك وأظهرت
الاستبصار في فضلك ، (†) وجعلت مزاج أخلاطك هو الحجة واعتدالك
هو النهاية وطبيعتك هي المسكنة ، وزعمت أن منظرك يُغنى عن مخبرك وأن
أولك يُجلى عن آخرك ، شددت على شدة المهر الأرِن وتسرعت إلى

(١) مثلك الجبال ٢ - (٢) وتتغلغل ٢ - (٨) طرف ٢ - وإطالة الرأى ٢ -

(٩) لا يعترفان ٢ - (١٢) لعل الصواب : القصار ؟ (١٤) جعلت < فذاك > مزاج
أخلاطك ب - واعتدال < طبائعك > هو ب - (١٦) يحكى ب - < و > شددت ب

(*) (*) (١٠) رواية ب ٢٠

(††) (١٤ - ١٥ ص ٩٢ ، ١٦) جعلت ... الحق : رواية ب ٢١

تسرّع الغرّ النزق وألححت ^١ <على> إلحاح الحنق ^(٢) . كأنك لم تحفل
 بما يشيع لك من أسم المتسرّع وبما تُضافُ إليه من سُخف المتبرّع ، بعد أن
 ٣ تكذّب قولى وتُفسد خبرى . ^(*) وقد تقدّمت التجربة في أن الحديد
 لا يكون حقوداً ^٤ وأن المصطنع لا يكون للصنعة حاسداً ، فقصدت على رأسى
 إلى القياس الممتحن فأفسدته وإلى الطبائع المعتدلة فنقضتها وإلى القضايا
 ٦ الصحيحة فرددتها ^(*)

وقد قالوا بأجمعهم : حالان لا يقبلان الحسد ولا يخلوان من الرشد ،
 حال الصنعة لمصطنعه وحال المولى لمعتقه . فكيف إذا كان الصنعة
 ٩ صديقاً وكان للخاصة محتملاً . وإنما صارت — أبقاك الله — أجزاء النفس
 وأعضاء الجسد — مع كثرة عددها واختلاف أخلاطها وتباعد أماكنها —
 نفساً واحدة وجسداً واحداً ، لأستواء الخواطر ولإيقافها على الإرادة .
 ١٢ فأنت وصديقك الموافق وخيلك ذو الشكل المطابق ، مستويان في الحجاب
 متفقان في الهوى متساويان في الشهوة ، وتعاونكما كتعاون جوارح أحديكما
 وتسالكما كتسالم المتفق من طبائعكما ، فإذا بان منك صديقك فقد بان منك
 ١٥ شطرك ، وإذا اعتلّ خليلك فقد اعتلّ نصفك . بل النفوس المضمّنة كالمعانى
 المضمّنة ، فذهاب بعضها هو ذهاب جميعها ، فموتى هو موت صديقى وحياتى هى
 حياة صديقى ، فلا تُبعدنه من قلبك بُعداً بدنه من بدنك ، فقد يقرب البغيض
 ١٨ وينأى الحبيب . ولعل بعض طبائعك الخالط لروحك أن يكون أعدى من كل

(١) <على> ب — (٢) لعله : المتفرغ ؟ — (٣) وقد تقدمت <إلى> التجربة
 لأن الحديد ب — (٤) [وإن المصطنع ... حسوداً] ب — (٥) [القياس] ب

عدو وأقطع من كل سيفٍ وأخوف عليك من الأسد الضارى ومن
السُّمِّ السارى

ثم أعلم أنّ الموثق بمودّته قليل . وقد صار اليوم المعتمدُ عليه في صحة
العقّدة وفي كرم الغيب والعشرة عَفَقَاءُ مُغْرَب . ولا أعلم الكبريت الأحمر
إلا أوجد منه ، وإني لأظنّ القناعة أكثر منه ، وما أكثر مَنْ جعل انقطاع
سببه وضعف طمعه لانقطاع سببه قناعة . وقيل ليحيى بن خالد : أى شيء
أقلّ ؟ قال : قناعة ذى الهمة البعيدة بالعيش الدون ، وصديق قليل الآفات
كثير الإمتاع شكور النفس يصيب مواضع المَرَح . لا والله لن تعرف على
ظهرها موضعاً للسّر ولا مكاناً للشكوى ولا زَوْحاً تأنس بها ولا نفساً
تسكن إليها . ولو أردت أن تُعرفني من جميع العالمين رجلاً لما قدرت على أحدٍ
يحتمل الغنى ، ومحتمل الفقر قليل ومحتمل الغنى عديم

إنّ الخير — أبقاك الله — في أيام كثرته كان قليلاً فما ظنّك به في أيام
قلّته ، وإنّ الشرّ في أيام قلّته كان كثيراً فما ظنّك به في أيام كثرته . وأنت
غريب في المصطنعين وأنا غريب في الصنائع ، والغريب للغريب نسيب ،
ونسب المشاكلة وقربة الطبيعة الموافقة أقرب من نسب الرّحم ، لأنّ الأرحام
مولعة بالتجاسّد لهجة بالتقاطّع ، وإنّ التحابّ على طمع المشاكلة والتلاقي
على وفاقٍ من الطبيعة ، أبعد من التّفاسّد وأبعد من التعادى ، وسببُ التعادى
عَرَضٌ في طبائع الغرّاء وجوهرٌ في طبائع الأقرباء

وأعلم أنّك لا تزال في وحشةٍ إلى وحشةٍ وفي غربةٍ إلى غربةٍ ، وفي
تفكّر العيش وتسخط الحال ، حتى تجد مَنْ تشكو إليه بثك وتفضي إليه

بذات نفسك . ومتى رأيت عجباً لم تضحكك رؤيتك له بقدر ما يضحك إخبارك
 إياه . فمن أغلب عليك ممن كانت هذه حاله منك وموقعه من نفسك . ولو أن
 شيبتي التي بها استعطفْتُك وكبرة سني التي بها استرحمتُك ، اللتان لم يحدثا
 عليّ إلّا وأنا في ذرّاك ولم يحلّ بي إلّا وأنا في ظلك ، لكان في شفاعة الكبرة
 واسترحام الضعف والوهنة ما يردعك عني أشدّ الرّدع ويؤثر في طباعك أئين
 الأثر ، فكيف وقد أكرمتني جديداً ثم تريد أن تهينني خلقاً ، وقوّيت
 عظمي أغلظّ ما كان ثم تريد أن توهنه أرقّ ما كان . وهل هربتُ إلّا في
 طاعتك وهل أخلقني إلّا مُعانة خدمتك

٩ قال عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه : رأى الشيخ الضعيف أحبّ إلينا
 من جلد الشابّ القويّ . وأنا أقول كما قال أخو ثقيف : مودّة الأخ التالذ وإن
 أخلق خيرٌ من مودّة الطارف وإن ظهرت بشاشته وراعتك جدّته . وقال
 ١٢ عبد الملك بن مروان : رأى الشيخ أحبّ إلينا من مشهد الغلام . وقال بعضهم :
 ليس بغائبٍ من شهد رأيه وليس بفانٍ من بقي أثره ، وما كملّ العقل ولا
 وفرّ التجربة شيءٌ كـنقصان البدن وكأخذ الأيام من قوَى الأعضاء . وقال
 ١٥ آخر : ما قبّح الرجال شيءٌ كالوِكال ، ولا أفسد الكريم شيءٌ كحبّ
 الاستطراف . وخير الناس من أتبع الغضب مواقع الذنوب ، وأتبع العقاب
 مواقع الغضب ، ولم يتبع الغضب مواقع الهوى

١٨ (*) ولقد منحتك جلد شبابي كملاً وغرب نشاطي مقتبلاً ، وكان
 لك مهناء وثمرة قواه ، واحتملتُ دونك غرامه وعدمه وكان لك غنمه

(١٣) الا د - (١٨) فكان م - (١٩) قوله د - وعزبه م

(*) (١٨ - ص ٩٥ ، ٧) ولقد ... المعنى : رواية م ٧

- وعلى غرمة ، وأعطيتك عند إدار بدنى قوة رأيت وعند تكامل معرفتي
نتيجة تجربتي ، واحتملت دونك وهن الكبر وأسقام الهرم . وخير شركائك
من أعطاك ما صفا وأخذ لنفسه ما كدر ، وأفضل خلطائك من كفاك
مؤونته وأحضرك معونته ، وكان كلاله عليه ونشاطه لك . وأكرم
دخلائك وأشكر مؤمليك من لا يظن أنك تُسمي جزيل ما تحتل في بذلك
ومواساتك مؤونة ولا تتابع إحسانك إليه نعمة ، بل يرى أن نعمة الشاكر
فوق نعمة الواهب ونعمة الواد الخالص فوق نعمة الجواد المغنى (*) ، وأنه
لا يبلغ في إعطاء المجهود من نفسه في خلع جميع ماله إلى مؤمليه والمُتجرمين
به ، حسن نيّة الشاكر الوامق وحقّ تمنّي الواد العارف . ولو اقتضيت
جميع حقوقك على وأنكرت جميع حقوق عليك ، أو جعلت حقّ عليك
حقاً لك ، ثم زعمت أن حقك لا يؤدى إلى شكره وأنّ حقّي لا يلزم
حكمه وأنّ إحسانى إساءة وأنّ الصغير من ذنوبى كبير وأنّ اللّمَم منى
إصرار وأنّ خطأى عمد وأنّ عمدى كله كفر وأنّ كفرى يوجب
الطمع ويمنع من النزوع ، لما كان عندك ، وما اتسع قولى لأكثر من
هذا العقاب ولا أشد من هذا الغضب . وما ينبغى أن يكون هذا المقدار من
النقم إلا لبارئ النسم ، فى دار البقاء لا فى دار الفناء ، *والذى يجوز بين
العباد إنما هو تعزيز أو حد أو قود أو قصاص أو حبس أو تغريب أو
إغراق أو إسقاط عدالة أو إلزام اسم العداوة أو عقاب يجمع الألم والتقويم
والتنكيل ، فيكون مضض الألم أجراً له ومعدلاً لأسبابه . وربما قصر الإيقاع

(٥) مواليك م — (٦) وموانستك م — (٧) [نعمة] م — (١٤) يظهر أنه سقط

بعد « عندك » عدة كلمات — (١٦) الذى د — (١٨) لعله : إغرام

على السُّخْطِ وجاوز حدَّ الغضب ، وربما كان مقصوراً على مقدارها ومحبوساً
 على نهاية حالها . وليس كل عقابٍ نتيجة سُخْطٍ ، وقد لا يُسمَّى ذلك الموضع
 والمُعاقب واجداً كما يسمَّى ساخطاً ، ولا يسمَّى عاتباً كما يسمَّى غضبان ،
 فيخرج كما ترى من أن يسمَّى سُخْطاً أو موجدةً وغضباً ، كما خرج عقاب آدم
 عليه السلام من هاتين الصفتين ومن جميع القسمين ، وعلى أنه كان إخراجاً
 من دار الخلد والكرامة إلى دار الابتلاء والحنة . مع ما في ذلك من إعراء
 الجلد والتسمية بالظلم ، مع الوصف له بضعف العزم والاعتقار بيمين الخصم
 والعجب أنك تضجر من طول مسألتنا لعفوك مع حاجتنا إلى عاجل
 عفوك ، ولا تضجر بطول تشاغلِكَ بظلم صديقك مع استغنائك عن ظلم
 صديقك . فلو كنت إنما تفعل ذلك لأنك تلذّ ضرب الشياطين ورَضَّ العظام ،
 فجَنَّبَ دَنَدَنَ أحمل والسوط في ظهر قاسمٍ أحسن وأبدانها تحت الشياطين
 أثبت وإن أرواحهما أبقى وهي بأرواح الكلاب أشبه وإلى طبائع الضيَّاب
 أقرب وأرحامهم بالخير أَمْسَ ومن يشير فيهم بذلك أكثر والأجر في ضربهم
 أعظم . فاستدِمَّ اللذة بطريق اللذة وضع الأمور في مواضعها يَظُلُّ سروركَ بها
 إنَّ عِتاق الخيل وأحرار الطير أدقَّ حِسًّا وأشدَّ اكترائاً ، والكوادن
 الغلاظ والحامر الثقال أكلَّ حِسًّا وأقلَّ اكترائاً . وليس الصبر بالصمت
 والسكرت ولا بقلَّة الصياح والضمور ، وقد يصيح تحت السوط مَنْ لا يُقرَّ
 على صاحبه ولا يدلُّ على عورة نفسه . والكلب المضروب يجمع الصياح
 والهرب والفرس العتيق يَعدُّ ولا يصيح ، والخافر كله كظومٌ ضاغِنٌ والمخلب
 كله ضَجُورٌ صَيَّاحٌ ، والضجر في الخنث عامٌ والبختان أخجر ، فسمن الظلف عامٌ

وهو في الضأن أخفى . وكل مضروب هارب صَيَّاح ، ومنها ما يجمع الخصال
 كالكلب والبعير . والحرب من المكروه محمود والمقام عليه مذموم ، كالذي
 يعتري عين السقم ، وتجده في الفرس الكريم ، من قلة الاكتراث وشدة .
 ٣ وصبر البدن غير صبر النفس . وليس بقاء الأرواح المنعقدة تحت الضرب
 الشديد من اعتزام النفس ولا يدل على الكرم . وفي المثل : ما رُوح فلان
 إلا رُوح كلب . ويقول العرب : الضب أطول شيء ذماء ، والكلب لئيم والضب
 غير كريم . والبازي أكرم من الصقر وأشد وأكثر ثمنًا وأجل
 ٦ جمالاً وأعفى صيداً وأنبل نبلاً ، إن قبض عليه قتله وإن لم يُفتح كندرتة
 عن قربته أوهق نفسه . ثم يبلغ من دقة طمع البازي وعتقه أنه ينقطع برده
 للباز يار له إلى مسقطه من يده ، والصقر يتعلق بساقيه من رجل حمل بذرع
 ٩ فيضطرب منكساً إلى الصبح ثم يجده وكأنه لم يزل على كندرتة وعلى مسقطه
 الذي يؤتى له

١٢ فليس بدني من أبدان الاحتمال فأمتعك بطول ثباته لك ، ولا أثبت
 لك ثبات العير الكلليل الحسن ولا أجعل الصياح دليلاً على الإقرار ، فيكون
 ذلك أحد ما تتمتع به وتُدرك به حاجة نفسك . وقد دلتك على ناس يجمعون
 ١٥ لك الخصال التي فيها دوام لذتك وتتمام شهوتك . فإن زعمت أن الذي يُثبت
 روح دندن في بدنه وروح القاسم في جسمه ، سرورهما بما قد احتجنا من
 كنوز الخلافة وأموال الرعية ، وليس ذلك من رسوخ أرواحهما في أبدانهما
 ١٨ ومن شدة الاحتجان وقوة الاكتناز ، ففرق بينهما وبين تلك الأموال التي

(٣) كذا ٢ ولعله : العير السقيم — (٩) اوهق ، صححنا : ارهق ٢ —

(١٠) كذا ٢

تمسك أرواحهما بالحيل اللطيفة والتدبير النافذ ، وبأن تمضي فيهما حكم
الكتاب والسنة . فإنه سيحل عُقدة أرواحهما عقداً عقداً ، فيعظم أجرك
ويطيب ذكرك وتطيع الجليفة وتتجيب به الأمة ، فتكون قد أحسنت في ٣
صرف الضرب إلى أهله ، وأرحت منه غير أهله . والسلام عليك ورحمة
الله وبركاته*

(٥) تمت الرسالة بعون الله ومنه وتوفيقه والله الموفق بالصواب برحمته . والحمد لله أولاً
وآخراً وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه ٥

رسالة فصل ما بين العداوة والحسد

تأليف

٣

أبي عثمانه عمرو بن بحر الجاحظ (*)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أصحب اللهُ مُدَّتِكَ السعادة والسلامةَ وقرَنها بالعافية والسُرورَ وَوَصَلها
بالنعمه التي لا تزول والكرامة التي لا تحول

هذا كتابٌ — أطال اللهُ بقاءك — نبيلٌ بارِعٌ ، فُصِّلَ فيه بين الحسد
والعداوة ، لم يسبقني إليه أحد ، ولا إلى كتابِ فضل الوعد الذي تقدّم هذا
الكتاب ، ولا إلى كتابِ أخلاقِ الوزراء الذي تقدّم كتابِ فضل الوعد .
وإنما نبّلت هذه الكتبُ وحسّنت وبرّعت وبذّت غيرها ، لمشاكلتها
شرفَ الأشراف ، بما فيها من الأخبار الأنيفة الغريبة والآثار الحسنة
اللطيفة والأحاديث الباعثة على الأخلاق الحمودة والمكارم الباقية الماثورة ،
مع ما تضمّنته من سير الملوك والخلفاء ووزرائهم وأتباعهم وما جرّت عليه

(١٤) ما تضمّنته ، صححنا : ما تضمّنها

(*) الجاحظ رحمه الله — أول الرسالة في : الحمد لله رب العالمين كما هو أهله
وصلى الله على محمد خاتم النبيين كما أمر به وعلى آل محمد كما سمّنه محمد صلى الله عليه وعلى آله
وسلم كثيرا

أحوالهم . فأننا *أسألك بساطع كرمك وناصع فضلك ، لَمَّا امتَنَنْتَ عَلَى
بَصَرِ عُنَايَتِكَ إِلَى قِرَائَتِهَا ، فَإِنْ لَمْ يُمْكِنَكَ تَبَحُّرُهَا وَالتَّقْصُّ لَجْمِيعِهَا ،
لِلأَشْغَالِ الَّتِي تَعْرُوكَ ، فَبِحَسْبِكَ أَنْ تَقِفَ عَلَى حُدُودِهَا وَتَتَعَرَّفَ مَعَانِيَ
أَبْوَابِهَا ، بِتَصَفُّحِ أَوَائِلِهَا . فَإِنَّ مَعَكَ قَلْبًا بِهِ مِنَ الْيَقِظَةِ وَالذِّكَاءِ وَالتَّوَقُّدِ
وَالْحِفْظِ مَا يَكْفِي مَعَهُ نَظْرُ الْخَاطِفِ

٦ إِنَّهُ لَمْ يَخْلُ زَمَنٌ مِنَ الْأَزْمَانِ فِيمَا مَضَى مِنَ الْقُرُونِ الذَاهِبَةِ إِلَّا وَفِيهِ
عُلَمَاءُ مُحِقُّونَ ، قَدْ قَرَأُوا كُتُبَ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ وَدَارَسُوا أَهْلَهَا وَمَارَسُوا
لَهُمْ وَعَابُوا الْخَالَفِينَ عَلَيْهِمْ ، فَخَضُوا الْحِكْمَةَ وَعَجَمُوا عِيدَانَهَا ، وَوَقَفُوا عَلَى
٩ حُدُودِ الْعُلُومِ ، فَخِظُوا الْأُمَمَاتِ وَالْأَصُولَ وَعَرَفُوا الشَّرَائِعَ وَالْفُرُوعَ ، فَقَرَنُوا
مَا بَيْنَ الْأَشْيَاءِ وَالنِّظَائِرِ ، وَصَاقَبُوا بَيْنَ الْأَشْكَالِ وَالْأَجْنَاسِ ، وَوَصَلُوا بَيْنَ
الْمُتَجَاوِرِ وَالْمُتَوَازِي ، وَاسْتَنْبَطُوا الْغَامِضَ الْبَاطِنَ بِالظَّاهِرِ الْبَيِّنِ ، وَاسْتَظْهَرُوا
١٢ عَلَى الْخَفِيِّ الْمَشْكَلَ بِالْمَكْشُوفِ الْمَعْرُوفِ ، وَعَرَفُوا بِالْفَهْمِ الثَّاقِبِ وَالْعِلْمِ
النَّاصِعِ ، وَقَضَتْ لَهُمُ الْحَنَةُ بِالذِّكَاءِ وَالْفِطْنَةُ . فَوَضَعُوا السِّكِّتَ فِي ضُرُوبِ
الْعُلُومِ وَفُنُونِ الْأَدَابِ ، لِأَهْلِ زَمَانِهِمْ وَالْأَخْلَافِ مِنْ بَعْدِهِمْ ، يَزْدَلِفُونَ
١٥ بِذَلِكَ إِلَى الْمَتْنِ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي رَكَّبَهَا اللَّهُ فِيهِمْ وَأَبَانَهُمْ مِنْ
غَيْرِهِمْ وَفَضْلَهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيُبَاهُونَ بِهِ الْأُمَّمَ الْخَالَفَةَ لَهُمْ ، وَيَتَبَارُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ
وَلَهُمْ حُسَادٌ مُعَارِضُونَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ فِي تِلْكَ الْعُلُومِ وَالسِّكِّتِ
١٨ مُنْتَحِلَةٌ يَدْعُونَ مِثْلَ دَعَاوِيهِمْ ، قَدْ وَسَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِسِمَاتِ الْبَاطِلِ * وَتَسَمَّوْا

(١) أسألك — (٣) فبحسبك ، صححنا : وبنفسك — (٧) يياص كلمتين في —

(١١) المتجاوز والمتوازي — (١٥) لعل الأشبهه : فأبأنهم — (١٨) لعله : بسيمات

< العلماء > بالباطل ؟ — وسموا —

بأسماء العلم على الجاز من غير حقيقة ولبسوا لباس الزور متزخرفين متشبهين ، بما لا محصول له ، يحتذون أمثلة المحققين في زيهم وهدّتهم ويقتفون آثارهم في ألفاظهم وألحاظهم وحرّكاتهم وإشاراتهم ، لينسبوا إليهم ويحلّوا محلّهم . فاستمالوا بهذه الحيلة قلوب ضُعفاء العامّة وجُهلاء الملوك ، واتخذهم المُعادون للعلماء المحقّقين عدوًّ يستظهرون بهم عند العامّة . وحمل المدّعية للعلم المزور الحسد على بهت العلماء المحقّقين وعَضَمَتِهم والطعن عليهم ، وجرّأهم على ذلك ما رأوا من صَفْوِ ضُعْفَةِ القلوب وأذِلَّةِ الناس إليهم وميّل جُهلاء الملوك معهم عليهم . وأمّلوا أن ينفالوا بذلك بِشاشة العامّة ، وتستوى لهم الرياسة على طَغَامِ الناس ورَعاعِيهم ، ويستخولوا رَعاعِيهم وقومهم . فهمزوا وهددوا ، وتوردوا على أهل العلم بعباوتهم وكشفوا أغطية الجهل عن أنفسهم وهتكوا سِتْرًا كان مُسدلاً عليهم بالصمت — فقد قيل انصمت زينُ العالم وسِتِرُ الجاهل — طمعاً في الرياسة وحبّاً لها . وقد قيل :

١٢

حُبُّ الرياسة داءٌ لا دواءَ له وَقَلَّ ما يجد الراضين بالقسمِ

ولم يخلُ زمنٌ من الأزمنة من هذه الطبقة ، ولا يخلو . وهلاك مَنْ هلك من الأمم فيما سَلَفَ بحُبِّ الرياسة ، وكذلك مَنْ يهلك ، إلى انقضاء الدهر ، فبحُبِّ الرياسة :

١٨

هَلَاكُ الناس مُذْ كانوا إلى أن تأتي الساعة
بحُبِّ الأَمْرِ والنَهْيِ وحُبِّ السَّمْعِ والطَّاعَةِ
فأشـكل على العامّة أمرُ العالم الحقيقي والمدّعي المجادل والمنتحل

(٤) واجدهم — (٧) ما ، صححنا : من — (٩) كذا في ٢ ولعلها :
رعايهم أو ما يشبهها ؟ — وتوددوا — (١٩) صححنا : الحادى —

- للزور والباطل . ثم ترادف عليهم من هذه العِلل التي يعمى لها السبيل
الواضح والطريق* المنشأ على الجاهل المستضعف وذى الغنا المسترهف
ولست آمن — جعلنى الله فداك — أن تكون هذه الكتب التي أعنى
بتأليفها وأتأنتق في ترصيفها ، يتولى عرضها عليك من قد لبس لباس الزور في
انتحال وضع مثلها ، ونسب نفسه إلى القوة على نظائرها والمعرفة بما يقاربها
إن لم يكن أباها فابن عمها ، ويشيع بما لم يطعمه الله منها . ولعل بعض من
حواله أو بعض من يهزل به ويرتع في عقله ويلهو بلبه ويضعه على
طبطابة اللعب وفي أرجوحة العبث يوهمه الحسد له على ما يدعى من ذلك ،
ويتقدم إلى آخرين في إيهامهم إياه ذلك ، فيزيده فعلهم ضراوة بادعاء ما ليس
معه وهو منه عار ، فإذا رجع إلى الحقائق علم أن مثله كما قد قيل :
ومن يسكن البحرين يعظم طحاله ويغبط بما في البطن والبطن جائع
وقد قيل* الذئب يغبط وهو جائع ، فيلتوى في قراءتها ويقبض لسانه
عن بسط ما يحتاج أن ينشره منها ويقصر في تقخير حروفها ولا يملأ فمه منها
بل لا آمن أن يتجاوز ذلك إلى الطعن عليها بقول أو إشارة ، فيوهم
فساد معانيها ويؤمى إلى سقوط ألفاظها ، من غير أن يظهر* المعادة لها
والحسد لمؤلّفها والحمل عليها بقول يكون دليلا على ما يضر ، وهو أبلغ
ما يكون من قلب المستمع* وأنجمه فيه ، فيقع ذلك بخلدّه . وقد قيل : من
يسمع يحل . وليس يقابله أحد* برد ولا يوازيه بنزاع ، فيزداد نشاطا عند
ما يرى من خلاء الأمر . وقد قيل : كل مجرّ في الخلاء يسبق وكل مناظر

(٢) المشاء — (٦) من ، صحبنا : ما — (٨) طيطاب — فيوهمه —

(١٢) الذئب — (١٥) المغادلة — (١٧) واجعه — (١٨) بود —

متفرد بالنظر مسرور . وإنما يعرف جرى الخليل عند المسابقة وبراعة النظر
عند الخاصة

وقال لي بشر المريسي : عرض كتابي على المأمون في تحليل النبذ ،
وبحضرتة محمد بن أبي العباس الطوسي . فأنبى محمد للطعن عليه والمعارضة
للحجج التي فيه ، وأسهب في ذلك وخطب وأكثر وأطنب ، فغلق المأمون
واحتدم وهاج واضطرم ، * لاستحقار الطوسي وخلاء المجلس له . وكان
يحب أن يزعه وازع يكفه بحجة تسكته ، فلما لم ير أحداً بحضرته يدب
عن كتابي قال متمثلاً :

يا لك من قنبرة بمعمّر * خلا لك الجو فيبضي وأصفري
ونقرى ما شئت أن تنقرى

فما كان إلا ريث فراغه من التمثل بهذه الأبيات ، حتى استؤذن لي ،
فدخلت عليه . فقال : يا أبا عبد الرحمن ما تقول في النبذ ؟ فقلت : حلّ طلق
يا أمير المؤمنين ، فقال : فما تقول فيما أسكر كثيره ، قلت : لعن الله قليله إذا لم يسكر
كثيره . ثم قال : إن محمداً يخالفك . فأقبلت على ابن أبي العباس ، فقلت له :
ما تقول فيما قال أمير المؤمنين ؟ قال : لا خلاف بيني وبينك ، كلاماً يؤهم به
أهل المجلس ، حباً للتسلم مني والتخلص من مناظرتي ، لا على حقيقة التحليل
له . فاستغنمت ذلك منه ، وقلت له : فإلى لا أرى أثر قواه في عقلك ؟
فضحك المأمون ، فلما رأيت ضحكه أطنبت في معاني تحليل النبذ ، وابن أبي
العباس ساكت لا ينطق ، وكان قبل دخولي ناطقاً لا يسكت . فلما رأى

المأمون سكوته عند حضوري ، مع كثرة كلامه في ثلب كتابي وعيبيه
— كان — قبل دخولي ، قال متمثلاً :

٣ مَالَكَ لَا تَنْبِغُ يَا كَلْبَ الدَّوْمِ قَدْ كُنْتَ نَبَاحاً فَمَالِكَ الْيَوْمِ
ثم نظر إلى فقال : إِنَّ السُّكُتَ عَقُولَ قَوْمٍ وَرَاءَهَا عَنْدهُمْ حُجَجٌ لَهَا ،
فَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْضَى عَلَى كِتَابٍ إِلَّا إِذَا كَانَ لَهُ مَدَافِعُ عَنْهُ وَخَصَمٌ يَبَيِّنُ عَمَّا فِيهِ
٦ فَإِنْ أَبْنَاءُ النِّعَمِ وَأَوْلَادُ الْأَسَدِ مُحْسَدُونَ . ثم قال : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَارِئُ
كُلِّ حَاسِدٍ رَاهِنٍ ، وَقَدْ قِيلَ فِي مَثَلٍ مِنَ الْأَمْثَالِ : الْحَسَنُ مُحْسُودٌ ، وَفِي
مَثَلٍ آخَرَ : لَنْ تَعْدَمَ الْحَسَنَاءُ ذَاتِمَا ، وَقَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ :

٩ وَلَنْ تُصَادَفَ مَرْعَى مُمَرِّعاً أَبَداً إِلَّا وَجَدْتَ بِهِ آثَارَ مَا كُولِ
"يُقَالُ يَعَابُ فِي كُلِّ حَسَنٍ وَيُؤْكَلُ مِنْهُ فَيَعِيْبُهُ ذَلِكَ . وَقَالَ عَمْرُ بْنُ
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا أَحْدَثَ اللَّهُ لِعَبْدٍ نِعْمَةً إِلَّا وَجَدْتَ لَهُ عَلَيْهَا حَاسِداً ،
١٢ وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ أَقْوَمَ مِنَ الْقِدْحِ لَوَجَدْتَ لَهُ غَافِزاً . وَقَالَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : الْحَاسِدُ لَا يَمْلِكُ عِنَانَ حَسَدِهِ ، لِأَنَّهُ مَغْلُوبٌ عَلَى نَفْسِهِ . وَقَالَ
الْخَطَّابُ بْنُ نُمَيْرٍ السَّعْدِيُّ : الْحَاسِدُ مُجَنُونٌ يَحْسُدُ الْحَسَنَ وَالْقَبِيحَ . وَقَالَ
١٥ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ : الْحَسْدُ شِهَابٌ ، لَا يُبَالِي مَنْ أَصَابَ وَعَلَى مَنْ وَقَعَ
وَالْعَدَاوَةُ لَهَا عَقْلٌ تَسْوُسُ بِهِ نَفْسَهَا ، فَيَنْجُمُ قَرْنَهَا وَتُبْدِي صَفْحَتَهَا ، فِي
أَوْقَاتِ الْهَرَمِ ، وَإِلَّا فَإِنَّهَا كَامِنَةٌ تَنْتَظِرُ أَرْمَنَةَ الْفَرَسِ ، وَالْحَسْدُ مُسْلُوبٌ
١٨ الْمَعْقُولُ بَارِئُ الْضَمِيرِ فِي كُلِّ حِينٍ وَزَمَانٍ وَوَقْتٍ . وَمِنْ لُؤْمِ الْحَسَدِ أَنَّهُ مُوَكَّلٌ
بِالْأَدْنَى فَالْأَدْنَى وَالْأَخْصُ فَاَلْأَخْصُ ، وَالْعَدَاوَةُ وَإِنْ كَانَتْ تَقْبِيحُ الْحَسَنِ فَهِيَ

(٥) دافع د — (٦) كذا في د — (٧) كذا د ولعل في العبارة سقطاً

تأويله : بارئ كل <حسن> حاسد راهن — الحسن ، صحبنا : الحسد د —
(١٠) كذا ، وفي الجملة تحريف ، ولعل يعاب صحبنا : العاب

دون الحسد ، لأنَّ العدوَّ المبينَ قد يحول وليًّا منافقًا ، كما يحول الوليَّ المنافقَ
عدوًّا مبينًا ، والحاسدُ لا يزولُ عن طريقته إلا بزوال الحسود عليه عنده .
والعداوةُ تحدثُ لعلَّةٍ ، فإذا زالت العلةُ زالت معها ، والحسدُ تركيب لعله يحسد
عليه ، فهو لا يزول إلا بزواله

ومن هذا قال معاويةُ رحمه الله : يمكنني أن أَرْضِيَ النَّاسَ كُلَّهُمْ إِلَّا حاسِدَ
نِعْمَةٍ ، فإنه لا يُرضيه منها إلا زوالها . وأعداء النعمة إذا شُورَكو فيها ونالوا
منها ، تَزَحَّجُوا عن عداوتها وكانوا من أهلها المحاميين عنها والدافعين
عن حماها

ومن هذا قال المغيرة بن شعبه : النعمةُ التي يُعَاش فيها نعمة محروسة ،
ليس عليها نائِرٌ يفتالها ولا ذو حَسَدٍ يحتال في غيرها

وقال قتيبة بن مسلم : خيرُ الخِيرِ وأحصَنُهُ خيرُ عِيشٍ فيه . وكلُّ خيرٍ
كان يوضح بدلًا ؛ كان من المتالف ممنوعًا ومن الغَيْرِ آمِنًا

وحُسَادُ النعمة إن أعطوا منها وتبجحوا فيها ، ازدادوا عليها غِيظًا
وبها إغراء . والعداوةُ تخلُق وتَمَلُّ والحسدُ غَضٌّ جديدٌ حرامٌ إذا عطي
لا يبيد . فكلُّ حاسِدٍ عَدُوٌّ وليس كلُّ عَدُوٍّ بحاسد . وإنما حمل اليهود على
الكفر بحمْدِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، أنه
نبيٌّ صادقٌ ورسولٌ محقٌّ يَقْرَؤُونَ بعثته في توراتهم ويتدارسونه في بيتِ
مدراسهم — الحسدُ ، وحَجَزَ بينَ علمائهم والإيمان به ، ثم نتج لهم الحسدُ عداوته

(٢-١) كذا ، ولعلها المبارز ، مبارزا — (٣) لعله ، صححنا : العلة — كذا ،
ولعله ، لعله ما يحسد عليه — (١٢) كذا ، ولعله : يرضخ بدلًا — (١٣) ومحجود —
(١٤) كذا ، ولعلها : حرم أو أعطى — (١٨) مدراسهم

ومن الدليل على أنَّ الحسدَ آلمٌ وآذى وأوجعُ وأوضعُ من العداوة ، أنه
 مُغرَى بفعل الله عزَّ وجلَّ ، والعداوةُ عارية من ذلك لا تتصلُّ إذا اتصلت
 ٣ إلا بأفعال العباد ، ولا يُعَادَى على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم
 تسمع بأحدٍ عَادَى أحداً لأنه حسنُ الصورة جميلُ المحاسن فصيحُ اللسان
 حسنُ البيان ، وقد رأيتَ حاسداً هذه الطبقة وسمعتَ به ، وهم كثيرٌ تعرفهم
 ٦ بالخبر والمشاهدة . فهذا دليلٌ على أنَّ الحسدَ لا يكونُ إلا عن فساد الطبع
 وأعوجاج التركيب واضطراب السُّوس

والحسدُ أخو الكذب يَجْريان في مضمارٍ واحد ، فهما أليفان لا يفترقان
 ٩ وضخيمان لا يتباينان . والعداوةُ قد تَخْلُو من الكذب ، ألا ترى أنَّ أولياء
 الله قد عَادُوا أعداء الله ، إذ لم يستحلُّوا أن يكذبوا عليهم . والحسدُ لا يبرأ من
 البهت ، وكيف يبرأ منه وهو عموده الذي عليه يعتمد وأساسه الذي به البناء
 ١٢ يعقد . وأنشد :

كضرائر الحسنة قلن لوجهها كذباً وزوراً إنه لدميم

والحسدُ نارٌ وقوده الروح لا يبوخ أبداً ، ويفنى الوقود والحسدُ لا يبلى
 ١٥ إلا ببلى المحسود أو الحاسد . والعداوة جمر يوقده الغضب ويطفئه الرضا ،
 فهو مؤمل الرجوع مرجو الإنباه . والحسدُ جوهرٌ والعداوة اكتساب .
 وقال بعضهم الحسدُ أثى لأنه ذليل والعداوة ذكرٌ فحلُّ لأنها عزيزة والحسدُ
 ١٨ وإن كان موكلًا بالأدنى فالأدنى ، فإنه لم يعز منه إلا بعد ما لا بعد

فقد رأينا وشاهدنا مَنْ كان يسكنُ العراقَ وينتحلُّ العلم والأدب ، انتهى

إليه خبر مشارِكٍ له في الصناعة ، من أهل خراسان * وحمه باخ ، من اتساق
الرياسة له في بلده وجميل حاله ونبل محله عند أهل مصره وطاعة العامة
له * وترادف الناس عليه ، فطار قلبه فرقا وأخذته الأرباء وتنفس
الصعداء وانتفض انتفاض الملعس المطور ، فقال لي رجل من إخواني كان
عن يميني حين رأى ما رأى منه : بحق قال من قال : لم ير ظالما أشبه بظالم
من حاسدٍ نعمة ، فإن نفسه متصل وكربة دائم وفكرته لا تنام
وهو في أهل العلم أكثر وعليهم أغلب وبهم أشد لصوقا منه بغيرهم
من الملوك والسوقة . وكأن من ناله التقصير في صناعة العلم عن غايته القصوى ،
قد استشعر حسد كل ما يرد عليه ، من طريف أدب أو أنيق كلام أو بديع
معنى ، بل قد وقع بخلافه لضعفه وقر في روعه لحساسته ، أنه لا ينال أحد
منهم رياسة في صناعة ولا يتهيأ له سياسة أهلها ، إلا بالطن على نواصيرهم
والعيب لجلتهم والتحفيف لحقوقهم

قال لي مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر الذي يعرف بصريع الغواني :
خيل إلى نوحي الشعراء أنهم لا يقضى لهم بجودة الشعر ، إلا بهجائي والطن
في شعري ولسان يهجي به عرضي ، لا أنفك * متهما من غير جرم ، إلا ما سبق
إلى قلوبهم من وساوس الظنون والخواطر التي أوهمتهم أنه لا يسجل لهم بجودة
الشعر ، إلا إذا استعملوا في ما خيل إليهم

وأخبرني أشياخنا من أهل خراسان أن أبا الصلت الهروي كان عند الفضل
ابن سهل ذي الرياستين بمرو ، فقرأ عليه كتابا ألفه النضر بن شميل ، فطن
أبو الصلت فيه . وكان الفضل عارفاً بالنضر الشميلي واثقا بعلمه مائلا إليه .

(١) كذا ، ولعله : وقصة (٢) فترادف (٣) — (٨) غايه (٩) — (١٠) لحاسته (١١)

— (١٥) في الأصل : منها

فأقبل على أبي الصلت وقال له : إن يحيى بن خالد قال يوماً : إن كُتِبَ لَتُعْرَضَ
 على من يغلظُ فهمه عن معرفتها ويجسو ذهنه عنها ولا يبلغُ أقصى علمه
 ٣ أمانيتها — يعرض باسماعيل بن صبيح — فيطعن فيها ولا يدري ما يُقرأ عليه
 منها ، إلا أن نار الحسد تلهبه ، فيهدى هذيان المريض ويهجز همزان المعزى
 ثم لا يرضى أن يقف عند أول الطعن ويُمسك عنه ، حتى يستقصى على نفسه
 ٦ إظهار جهله عند أهل المعرفة باستيعابه الطعن على ما لم يبلغ درايته ولم يحط به
 علمه ، ثم يُنسيه جهله الطعن الذي تقدّم فيها ، ويحمّله نوّكه على استعمال
 معانيها وألفاظها ، في كتبه إلى إخوانه وأعوانه الذين شهدوه في أوان طعنه
 ٩ عليها وحين ثلّيه لها

فقد عرفت حقيقة ما قال يحيى بن خالد بالتجربة والابتلاء ، وإني ربّما
 ألّفت الكتاب الحكم المتقن ، في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب
 ١٢ والخارج والأحكام وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسي ، فيتواطأ على
 الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركّب فيهم ، وهم يعرفون براعته
 ونصاعته . وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً للملك معه
 ١٥ المقدرة على التقديم والتأخير والخط والرفع والترهيب ، فإنهم يهتاجون عند
 ذلك اهتياج الإبل المغتلمة . فإن أمكنتهم حيلة في إسقاط ذلك الكتاب عند
 السيّد الذي ألّف له ، فهو الذي قصدوه وأرادوه . فإن كان السيّد المؤلف فيه
 ١٨ الكتاب تحريراً نقاباً ونقريساً بليغاً وحاذقاً فطناً ، وأعجزتهم الحيلة ،
 سرقوا معاني ذلك الكتاب ، وألقوا من أعراضه وحواشيه كتاباً ، وأهدوه

(٣) يعرض ، صححنا : فعرض د — فيطعن ، صححنا : فطعن د — (٤) المعزى ، صححنا ، المعزى د — (١٥) لعلها ، كما يشير السياق < والترغيب > والترهيب

إلى مَلِكٍ آخر ، ومَتَّوا إليه به . وهم قد ذَمُّوه وثَلَبُوهُ ، لَمَّا رَأَوْهُ مَنْسُوباً إلى
وموسوماً بي

وربما أَلَفْتُ الكتابَ الذي هو دُونَهُ في معانيهِ وألفاظهِ ، فَأَتَرَجُمُهُ باسم
غيري ، وأَحِيلُهُ على من تَقَدَّمَني عَصْرُهُ ، مثل ابنِ المَقْفَعِ والخَلِيلِ وسَلَمٍ
صاحبِ بيتِ الحَكَمَةِ ويحيى بنِ خالدٍ والعَتَّابِي وَمَنْ أَشَبَّهُ هَؤُلَاءِ ، من
مُؤَلِّفِي الكُتُبِ . فَيَأْتِينِي أُولَئِكَ القَوْمُ بِأَعْيَانِهِم الطَّاعِنُونَ على الكتابِ
الذي كان أَحْكَمَ من هذا الكتابِ ، لاسْتِنْسَاخِ هذا الكتابِ وقراءته على ،
ويكتبونه بخطوطهم ويصَيِّرُونَهُ إِمَاماً * يَقْتَدُونَ به ، ويتدارسونهُ بينهم
ويتأدَّبُونَ به ، ويستعملون ألفاظهُ ومعانيهِ في كتبِهِم وخِطَابَاتِهِم ، وَيَرَوُّونَهُ
عَنِّي لغيرِهِم من طَلَّابِ ذلكَ الجَنَسِ . فَيُثَبَّتْ لَهُم به رِيَاسَةٌ ، يَأْتِمُّ بِهِم قَوْمٌ فِيهِ
لأنَّهُ لم يترجم باسمي ولم ينسب إلى تَأَلِيفِي

ولربما خرج الكتابُ من تَحْتِ يَدِي مُحَصَّفاً كأنَّهُ مَتْنُ حَجَرٍ أَمْلَسَ ،
بمعاني لطيفة محكمة وألفاظٍ شريفة فصيحة ، فأخافُ عليه طعنَ الحاسدين إن
أنا نسبْتُهُ إلى نفسي ، وأحسُدُ عليه مَنْ أَهْتَمُّ بنسبته إليه ، لجوْدَةِ نِظَامِهِ
وحسنِ كَلَامِهِ ، فَأَظْهَرُهُ مُبْهِمَا غُفْلاً ، في أَعْرَاضِ أَصُولِ الكُتُبِ التي لا يَعْرِفُ
وَضَّاعِهَا فَيَنْهَالُونَ * عَلَيْهِ انْهِيَالَ الرَّمْلِ وَيَسْتَبِقُونَ إلى قراءته استباقَ الخيلِ يومَ
الْحَلَبَةِ إلى غَايَتِهَا

وحسد الجاهل أهونُ شَوْكَةً * وَأَذَلُّ مِحْماً ، من حَسَدِ العارفِ الفَظِنِ .
لأنَّ الحاسِدَ الجاهلَ يَبْتَدِرُ إلى الطعنِ على الكتابِ في أوَّلِ وَهْلَةٍ يُقْرَأُ عَلَيْهِ ؛
من قَبْلِ اسْتِثْمَامِ قراءته وَرَقَةً واحدة . ثُمَّ لا يَرْضَى بِأَيْسَرِ الطعنِ وأخْفِهِ حتى

يبلغ منه إلى أشده وأغلظه ؛ من قبل أن يقف على فصوله وحروفه . وليس
يثدبه مفسراً مفصلاً ؛ ولكنه يُجمل ذلك ويقول : هذا خطأ من أوله إلى
آخره وباطل من ابتدائه إلى انقضائه . ويحسب أنه كلما ازداد إغراقاً وطعنًا
وإطناباً في الحمل على وضع الكتاب ؛ كان ذلك أقرب إلى القبول منه . وهو
لا يعلم أن المستمع إليه إذا ظهر منه على هذه المنزلة استخف به وبكته بالجهل ،
وعلم أنه قد حكم من غير استبراء وقضى بغير روية ؛ فسقط عنه فبطل .
والحاسد العارف الذي فيه تقية ومعه مسكة وبه طعم أوحيا ، إذا أراد أن
يغتال الكتاب ويحتال في استعماله ، تصفح أوراقه ووقف على حدوده
ومفاصله وردد فيه بصره وراجع فكره وأظهر عند السيد الذي هو بحضرته
وجلسائه من الثبوت والتأني ، حباله يقتنص بها قلوبهم وسبباً يستدعى به
ألبابهم وسأله يرتقى به إلى مراده منهم وبساطاً يفرش عليه مصارع الخدع ،
فيوهم به القصد إلى الحق والاجتباء له . فربما استدعى بهذه الخاتل والخدع
قلب السيد الحازم

فمن أعظم البالاي وأكبر المصائب على مؤلفي الكتب ، إذا كان العارض
لها على السيد الذي منه تُرجى أثمانها وعنده تنفق بضائع أهلها ، على هذه
الصفة التي وصفتها ، من الحسد والحذق بأسبابه والمعرفة بالوجود التي تشتم
الحسود وتهده وتضع منه ومن كتبه ، لا سيما إن كان مع استبطان الحسد
وأستعمال الدهاء والذكاء ، جليسا لازماً وتابعا لا يفارق ومحدثا لا يريم ،
وليست له رعة تحجزه عن الباطل ولا معه حذر يبعثه على الفكر في العواقب .
فإن هذا ربما وافق فترة السيد ، بطول تردد الكلام وكثرة تكراره عليه ،

(٣) ويحسب ، صحنا : وبحسبه د — اغراقا ، صحنا : غرقا د — (٧) كذا ،
ولعل حياذ صوابها حياء

من تأكيد خطابه ونصرته قوله وزيادته عنه واحتجاجه له فيؤثر في قلبه ويضجع رأيه . فليس للسيد الذي يحب أن يصير إليه الأمور على حقائقها وتصور له الأشياء على هيأتها ، حيلة في ذلك إلا حسم مادة هذا من أهل الحسد ، بالإعراض عنهم والاحتجاز دونهم

وربما بلغ من الحاسد جهد الحسد ، إذا لم يعمل بشهوته ولم تنفذ سهام لطائفه ، أن يُقرّ على نفسه بالخطأ ويعترف أن الطعن الذي كان منه في ٦ في الكتاب عن سهو وغفلة ، وأنه لم يكن بلغ منه في الاستقصاء ما أراد ، وكان مشغول الفكر مقسم الذهن ، فلما فرغ له ذهنه وانفرد له همه ، راجع وكان بدر منه عن وهم وخطأ ، لتظن به الرعة ، ويقال إنه لم يرجع عن ٩ قوله واعترف بالخطأ ، إلا من عقل وازع ودين خالص . وإنما ذلك حيلة منه ودهاء قدّمه أمام ما يريد أن يؤكد لنفسه ويوطد لها ، من قبول القول في سائر ما يرد عليه من الكتب ، عن غير موافقة على مواضع . ويجعل ١٢ ما قد تقدّم له من الرجوع عن قوله عند التبيين له خلاف ما قال ، أوثق أسباب عدالته وأحكم عرى نصافته

وكان يقال : من لطيف ما يستدعى به الصدق إظهار الشك في الخبر الذي ١٥ يشك فيه . وكان يقال : من غامض الرياء أن ترى بأنك لا ترى . ومن أبلغ الطعن على ما تريد الطعن عليه ، أن تطعن ثم تستغفر الله ، ثم تمهل فترة ، ثم تعود للطعن هو أعظم منه وأطم من الأول ، ليوثق بك فيه ، ١٨ ويقال : إن هذا لو كان عن حسد ما رجع عن الطعن الأول . وقد قيل : ذو الغيبة المشهور بها المنسوب إليها ، يقل ضرره ويضعف كيده ، لما ساغ

له في الناس وانتشر منه . فكان عندهم ظنيها متهماً ومطبوغاً عليها ،
 يستمعون منه على قضاء ذمام المجالسة والتلذذ به ، من غير قبول ولا اصطفاء
 له . وإنما البلية في غيبة حذاق المغتابين الذين يسمعون فيضحكون ولا يتكلمون .
 وأحذق منهم الذين يستمعون ويسكتون القائل ، ويدعون إليه بالصلاح للمقول
 فيه . فهم قد أسكتوا القائل المغتاب ، ودعوا للمقول فيه ، وأوكدوا قول
 القائل ، لأنه لو حلّ عندهم محلّ البراءة مما قيل له ، لجبه القائل ورُدع
 عن قوله

ومُظهر التوقي قليله عند العامة كثير ، والمتورّد المتبحر لا تكاد العامة
 تقبل منه . وقد قال بعض العلماء : إنَّ عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود
 كان من نبلاء المغتابين وحذاقهم حيث يقول :

مسا تراب الأرض منه خلقتما وفيها المعاد والمصير إلى الحشر
 ولا تعجبا أن تؤتيا وتُعظما فما حُشى الإنسان شرّاً من الكبر
 فلو شئت أدلى فيكما غير واحد علانية أو قال ذلك في سرّ
 فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكما ضحكك له حتى يلج فيستشري
 ومن هذا سرق العتّابي المعنى حيث يقول :

إن كنت لا تحذرُ شتمى لما تعرف من صفحى عن الجاهل
 فاخش سكوتى سامعاً ضاحكاً فيك لمشروع من القائل
 مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر السائل
 ومن دعا الناس إلى ذمّه ذمّه بالحق وبالباطل

وقال القاسم بن معن : كان أبو حنيفة رحمه الله يبلغ بالتبسم من الثورى
 ما لا يبلغ الثورى بالتصريح منه

- ٣ وسئل القاسم بن معن عن ابن أبي ليلى ، فقلب كفه وقال :
 من الناس من يخفى أبوه وجدّه وجدّ أبي ليلى لسكالبدر ظاهره
 فلم تثبت عليه به حجة في ذم له ولا مدح ، وقد بلغ ما أراد
 وسئل يوما عن علمه فقال : أوعوه وطبّا ، فإن كان محضاً أو مشوباً
 أظهره الوطب وما خضوه

- فإن قدح — جعلنى الله فداك — بالحسد قادح ، فيما أولّفه من كتابي
 لك وسبق إلى وهمك شكّ فيه ، أعلمتنى النكتة التى قدح فيها ، ثم قابله
 بجوابي ، فإنّي أرجو ألاّ يحتاج إلى حاكم عند تجاوى القولين بين يديك ، لعلّ
 الحق على الباطل ودموغه إيّاه

- ١٢ والحسد أذلّ نفساً من أن يُجائى أحداً ، والعداوة إنما قدّمت عليه لأنها
 عزيزة منيعة . ويقال : الحسد لا يبدو إلّا في العين وعلى اللسان المقصور
 عند المؤتلفين على والعداوة تبدو وتنجم قرونها وينبسط لسانها ،
 عند الموافقين له والخالفين عليه

- ١٥ وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شيبّة فقال : ذاك امرؤ سيط
 بالحسد وجبل عليه ، فليس له أخ في السرّ ولا عدو في العلانية
 وسئل العتّابي عن أهل بغداد فقال : حُسّاد ، إخوان العلانية وأعداء
 السريّة ، يعطونك الكلّ ويمنعونك القلّ

(١) بالتبسم ، صحّحنا : من التبسم

(٧) وما خضوه — (١٤) يياض في الأصل بقدر كلمة

ومما يدلّك على أنّ الحسد أخسّ وأغبن من العداوة أنّ الملل كلها ذمّته وعاقبته . ولا نعلم أنّ شاذّاً من الشواذّ وشارداً من الشرّاد ، فضلاً عن جيل من الأجيال ، أمر بالحسد ، كما قد قيل : عادٍ من عاداك ، وقارع بالعداوة أهلها ثم عظم شأن العداوة عندهم وجلّ قدرها لديهم ، حتى اختلفوا في سُبُلها ووجوه العمل فيها ، فمنهم من أمر بها على الحزم والعقل . وقال الشعبي لبشر بن مروان : لو وجهت إلى عمرو بن محمد بن عقيـل مولى آل الزبير ، وكان شتمه ، من يأتيك به سَجَباً وجَرّاً . فقال بشر : إني مستعمل في عدوّي قول القائل :

وعادٍ إذا عادت بالحزم والنهي تنل ظفراً بمن تريد وتغلب
فكان هذا من يرى المعاداة بالحزم ويغتالها بالعقل والتأني

وكان عروة بن المغيرة يقول : شرّ العداوة ما ستر بالمدارة وأشفاهها
للأنفس ما قرع بمثلها بادياً . وكان ينشد :

لا أتقى حَسَك الضغائن بالرُقى فعل الذليل ولو بقيت وحيداً
لكن أعدّ لها ضغائن مثلها حتى أداوى بالحقود حقوداً
كالخمر خير دوائها منها بها تشفى السقيم وتبرئ المنجوداً
فانتهى قوله إلى ابن شبرمة فقال : لله درّ عروة هذه أنفس العرب . فهو لاء
رأوا كشف المعاداة ولم يروا التأني

ومنهم من رأى المعاداة بعد الفرار منها والإعذار فيها ، فإن هي أبت
إلاّ المقارنة قارنوها بمثلها . قال شبيب بن شيبه : إذا رأيت الشرّ قد أقبل

إليك فتطامن له حتى يتخطاك ، ولا تهجه ، ولا تبحث عنه ، فإن أبى إلا
أن ينزل عليك فكن من الأرض ناراً ساطعة تتلقى . وأنشد :

إذا عاداك مُحْتَنِكٌ لبيب فعادِ النومَ واحترس البياتاً ٣
ولا تثر الربوض وخلّ عنها وإن ثارت فكن شبيحاً مواتاً
تحول إلى سواك ونح عنها فخير الشرِّ أسرع فواتاً
وإن مات عليك وخفت منها فواجهها مجاهرةً صـلاتاً ٦

ومنها من أمر بقبول الإنصاف وترك الحاسبة . قال عُبَيْدُ اللَّهِ بن عبد الله
ابن مسعود : إن الملامات والمذمات كلها قبيحة ، وأقبح الملامة والمذمة ما كانتا
في ترك نصفٍ أو شدة منافسةٍ في تعداد الذنوب . وأنشأ يقول : ٩

منافسة العدو أو الصديق تجرُّ إلى المذمة واللامه
إذا أعطاك نصفاً ذو ودادٍ وبعض النصف فانهز السلامه

ومنها من قال : لا ترض من عدوك إلا بالظلم ، ولا تقبل إنصافه ١٢
ونافسه . من ذلك قال العباس بن عبد المطلب :

أبا طالب لا تقبل النصف منهم ولو أنصفوا حتى تعق وتظالموا

ومنها من أمر بمعونة الدهر على العدو إذا حمل عليه . قال : حدثني ١٥
إبراهيم بن شعبة الخزومي ، قال : سمعت من حكى لي عن مصعب بن الزبير
قال : إذا رأيت يد الدهر قد لطمت عدوك فبادره برجلك ، فإن سلم من الدهر
لم يسلم منك . وأنشد : ١٨

إذا برك الزمان على عدو بنكته أعنت له الزمانا

قال العتابي : قلت *لطوق بن مالك : إن من شرط الدهر ومن صناعة
الزمان السلب ، فإذا حملت الأيام على عدوك ثقلاً وأمكنتك منه ، فزده
٢ ثقلاً إلى ثقله . قال : فقال لي طوق : من لم ينتهر من عدوه انتهر منه ،
وحالت الأيام التي كانت بيضاً عليه سوداً . وأنشد :

٦ لله درك ما ظننت بشائر
أحقدته ثم اضطجعت ولم ينم
إن تمكّن الأيام منك وعلها
ولئن سلمت لأتركك عارضاً
حرّان ليس على التراب براقداً
أسفاً عليك وكيف نوم الخاقداً
يوماً توفك بالصُواع الزائداً
بعدي لسكر مسالم ومعاذ

٩ ومنهم من كان يرى جبر كسر العدو وإقالة عثرته ونصرته عند
وثوب الدهر عليه . قال : حدثني ابن عبد الحميد ، قال ابن شبرمة : كانت
الحرب يوم صفين بين العرب محضة لا شوب فيها ، فكانت محاربتهم كراً
١٢ واعتناقاً ، وكانوا إذا مرّوا برجل جريح كانوا يقولون : خذله قومه
فانصروه وألقاه دهره بمضيعة فردّوه إلى أهله

وقال ابن شبرمة : ما زلنا نسمع أن المصيبات تنزع السجيات . قال :
وأنشدني بعض أهل العلم في هذا المعنى :

١٥ فلو بي بدائهم قبل من قد دعوتهم
إذ المرء ذو القربى وذو الجند أجحف
لفرجتها وحدي ولو بلغت جهدي
به سنة سلّت مصيبته جمعي
١٨ ومنهم من رأى الإفضال على عدوه وترك مجازاته ، وهذا كثير لا يحتاج
فيه إلى استقصاء شواهد

قال غيلان بن خرشنة الضبي ، وقال بعضهم بل الأحنف بن قيس :
لا يزال العربُ بخير ما لبست العمام وتقلدت السيوف وركبت الخيل ولم
تأخذها حمية الأوغاد . قيل : وما حمية الأوغاد ؟ قال : أن يروا الحلم
ذلاً والتواهب ضيماً

وقال الشعبي لرجل قال له : ألا تنتقم من فلان ؟ فقد عاداك ونصب
لك . فقال :

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب
وأشدني بعض العلماء يبتين ، وقال : إن الزهري كان كثيراً ما يتمثل بهما :
وإني لأعدائي على المقت والقتلى بنى الم منهم كاشح* وحسود
أذب وأرمي بالخصا من ورائهم وأبدأ بالحسنى لهم وأعود
وكان عبد الله بن عمرو إذا أنشد :

إني وإن كان ابن عمي كاشحاً لمراجهم من دونه وورائه
ومعيره نصرى وإن كان امرئاً متزحزحاً في أرضه وسمائه
وإن اكتسى ثوباً نسيماً لم أقل يا ليت أن عليّ حسن رداه
وإذا تحرق في غناه وقرته وإذا تصعلك كنت من قرناه
قال : هذا والله من شعر الأشراف . نفى عن نفسه الحسد واللؤم والانتقام عند
الإمكان والمسألة عند الحاجة

ومنهم من أمر بالسف في العداوة ، واستعمال الخرق فيها . حدثني نوح
ابن أحمد ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن ابن عباس ، قال : جاء النابغة الجعدي

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك من الشعر ما عفى الله عنه ؟ قال : نعم ، قال : أنشدني منه ، فأنشده :

٣ وإنا لقوم ما نعوّد خيلنا إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا
وتنكر يوم الروع ألوان خيلنا من الطعن حتى يحسب الجون أشقرا
وليس بمعروفٍ لنا أن نردها صحاحا ولا مستنكراً أن نُعفرا
٦ بلغنا السماء مجدنا وسملأؤنا وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرا
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى الجنة إن شاء الله . ثم رجع في
٩ قصيدته فقال :

ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حلِيم إذا ما أورد الأمر أصدر
ولا خير في حلمٍ إذا لم يكن له بوادٍ تحمى صفوه أن يُسكدر
١٢ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا فضّ الله فاك . فأتت عليه عشرون
ومائة سنة ، كلما سقطت له سن أثغرت أخرى مكانها ، لدعوة رسول الله
صلى الله عليه وسلم . فهذا أحسن ما روى في البادرة التي يُصان بها الحلم
١٥ وقال الشاعر الجاهلي :

صفحنا عن بني ذهل وقلنا القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجع ن حياً كالذي كانوا
١٨ فلم صرخ الشرّ وأمسى وهو غرثان
مشينا مشية الليث بدا والليث غضبان
بضرب فيه توهين وتضجيع وإذعان
٢١ وطعن كهم الزق وها والزق ملآن

وفي الشرِّ نجاة حيي لا ينجيك إحسان

حدثنا أبو مسهر ، عن أبيه ، عن خالد بن عمرو السكبي ، قال : كنا مع
أبي برزة الأسلمي في غزاة ، فكان مئارجل يمتار لنا الميرة ويقوم بجوائجنا ،
فإذا أقبل قلنا : جزاك الله خيراً ، فغضب لدعائنا ، فشكونا ذلك إلى أبي برزة ،
فقال أبو برزة : كنا نسمع أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر ، فاقبلوا له .
فكنا نقول له إذا أمانا بالحوائج : جزاك الله شراً وعسراً ، فيضحك لذلك
وأنشدني رجل عن بعض الأعراب :

أرى الحلم في بعض المواطن ذلة وفي بعضها عزاً يشرف فاعله
إذا أنت لم تدفع بحلمك جاهلاً سفيهاً ولم تقرن به من يجاهله
لبست له ثوب المذلة صاغراً فأصبح قد أودى بحقك باطله
فأبق على جهال قومك إنه لكل حكيم موطن هو جاهله
وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : استوصوا بالغواص خيراً ، فإنهم
يطفئون الحريق ويسدون البثوق
وقال أبو سلمى في الجاهلية :

لا بد للسودد من رماح ومن عداة يُتقى بالراح
ومن كلاب حمة النباح

وقال مسلم بن الوليد :

حلفت لئن لم تكفنى سفهاء خزاعة والحيان عوف وأسلم
لأرتجعن الوُد بيني وبينها بقافية تقرى العروق فتحسم
من اللاء لا يرجعن إلا شوارداً لهنّ بأفواه الرجال تهمهم
أصابوا حلماً فاستعدوا بجاهل إذا الحلم لم يمنعك فالجهل أحزم

ولم نستقص الأبواب كلها المعارضة في هذا الكتاب ، ولو استقصينا لطالت بنا الأيام وتراخت الليالي ، إلى بلوغ الغاية في تمام الكتاب . وإنما ذكرنا من كل باب عرضاً ما دل على معناه الذي إليه قصد

ولم نر الحسد أمر به أحد من العرب والعجم في حال من الأحوال ، ولا ندب إليه ونبه عليه . وقد نبه على العداوة ، وفصل بين أحوالها بما قد بيناه ، فظهر فضلها على الحسد بذلك

وكنفتُ امرءاً قليل الحساد ، حتى اعتصمت بعروتك واستمسكت بحبلك واستذرات في ظلك ، فتراكم على الحساد وازدهوا ، ورموني بسهامهم من كل أوبٍ وأفيق ، وتتابعوا على تتابع الدبر على مشتار العسل . واثن كثروا لقد كثر بهبوب ريحك إخواني ، وبنصرة أيامك وزهرة دولتك خلاني . وأنا كما قلت :

فأكثر حسادى وأكثر خلتي وكنت وحسادى قليل خلاني فلما بلغت هذا الفصل من تأليف هذا الكتاب ، دخل على عشرة نفر من الكتاب ، قد شملهم معروفك ورفع مراتبهم جميل نظرك ، فهم من طاعتك والمحبة لك على حسب ما أوليتهم من إحسانك وجزيل فوائدك . فأفاضوا في حديث من أحاديث الحسد ، فشعب لهم ذلك الحديث شعوبا افتنوا فيها ، والحديث ذو شجون . فما برحوا حتى أتتني رُقعة أناسية من الحساد ، فيها سهام الوعيد ومقدمات التهديد والتحذير والتخويف للطعن على ما أولف من الكتب ، إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يجري على . فدفعت رقعتهم إلى

مَنْ قَرِبَ إِلَىٰ مِنْهُمْ ، فَقَرَأَهَا ثُمَّ قَالَ : قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَبْطُلُم يَرومون
النَّيْلَ وَيَلْتَمِسُونَ الشَّرْكَةَ فِي الْمَعْرُوفِ . لَنَزْعُ الرُّوحَ بِالْكَلاَلِيبِ : أَهْوَنُ مِنْ
بَذْلِ مَعْرُوفٍ بِتَرْهِيْبٍ . وَأَنْشَأُ يَقُولُ :

٣

أَمَّا الْحَوَادِثُ مِنْ خَلِيٍّ لَكَ مِثْلَ جَنْدَلَةِ الْمَرَاجِمِ
قَدْ رَامَنِي الْأَعْدَاءُ قَبْلَكَ فَامْتَنَعْتَ مِنَ الْمَظَالِمِ

وَدَفَعَهَا إِلَىٰ مَنْ قَرِبَ مِنْهُ فَقَرَأَهَا ، وَقَالَ الثَّانِي : صَكَّةَ جَاهُودَ لِكُلِّ مُرْعِدٍ
حَسُودٍ يَسْتَمْطِرُ الْعُرْفَ بِالتَّهْدِيدِ ، خَلَّ الْوَعِيدُ يَذْهَبُ فِي الْبَيْدِ . وَأَنْشَأُ
يَقُولُ :

٩

أَبْرُقُ وَأُرْعِدُ يَا يَزِيدُ دَفْعًا وَعَيْدُكَ لِي بِضَائِرٍ

وَدَفَعَهَا إِلَى الثَّالِثِ فَقَرَأَهَا وَقَالَ : سَأَلُوا ظُلْمًا وَخَوْفُوا هُضْمًا ، لَقُوا حَرْبًا وَلَقِيتَ
سَلَامًا . وَأَنْشَأُ يَقُولُ :

١٢

زَعِمَ الْفَرَزْدَقُ أَنَّ سَيَقْتُلُ مَرْبَعًا أَبْشُرْ بِطُولِ سَلَامَةٍ يَا مَرْبِعَ

وَدَفَعَهَا إِلَى الرَّابِعِ فَقَرَأَهَا وَقَالَ : قَوْلُ الذَّلِيلِ وَبَوْلُهُ سَيَّانٍ . وَأَنْشَأُ يَقُولُ :

مَا ضَرَّ تَغْلِبَ وَأَثْلَ أَهْجُوتِهَا أُمُّ بُلْتٍ حَيْثُ تَفَاطَحَ الْبَحْرَانِ

وَدَفَعَهَا إِلَى الْخَامِسِ فَقَرَأَهَا وَقَالَ : نَهَيْقُ الْحِمَارِ وَدَمُ الْأَعْيَارِ ، جُبَّارُ جُبَّارٍ .
وَأَنْشَأُ يَقُولُ :

مَا أَبَالِي أَنْبَ بِالْحَزَنِ تَيْسٍ أُمُّ لِحَانِي بظَهْرِ غَيْبِ لَيْثِمٍ

وَدَفَعَهَا إِلَى السَّادِسِ فَقَرَأَهَا وَقَالَ : إِذَا عَلِقَتْكَ الْأَمْجَادُ فَلْيَمِنْ عَلَيْكَ الْحُسَادُ .
وَأَنْشَأُ يَقُولُ :

إِذَا أَهْلُ الْكِرَامَةِ أَكْرَمُونِي فَلَا أَخْشَى الْهَوَانَ مِنَ اللَّثَامِ

ودفعها إلى السابع فقرأها وقال : كيف يخاف الصرعة مَنْ هو في ذى المنعة .
وأنشأ يقول :

٣ كم تنبحون وما يغنى نباحكم ما يملك الكلبُ غير النبح من ضرر
ودفعها إلى العاشر فقرأها وقال : نوكى هلكى ، لم يعرفوا خبرك ولا دروا
أمرك . وأنشأ يقول :

٦ فلو علم الكلاب بنو الكلاب بحالك عند سيّدنا لذلّوا
وعندى صديق لى من السوقه له أدب ، فقال لى بعقب فراغهم مُسرّاً : إن
هؤلاء الكتاب قد أظهروا الاستخفاف بقول الحُساد ، وضربوا الأمثال
٩ فى هوانهم عليك ، وعرفوا أنك فى منعةٍ من غير أبى الحسن — أطال الله
بقاءه — ومعلّ لا يسامى ولا ينال ، وأنا أقول بالشفقة :

توقّ قوماً من الحُساد قد قصدوا لخطّ قدرك فى سرّ وفى علن
١٢ فقلت له : إني أقول بيتين هما جوابك وجواب الحُساد :

إنّ ابن يحيى عبيد الله أمّنى من الحوادث بعد الخوف من زمنى
فلست أخطر حُسادى وإن كثروا ما دُمْتُ مُمسك حبل من أبى الحسن
١٥ فلما رأى صديقى اقتفأى آثار الكتّاب ، باستهانتى بالحُساد عند اعتلاقي
حبائلك — أعزك الله — أنشأ متمثلاً يقول بشعر نصر بن سيار :

إني نشأت وحُسادى ذوو عددٍ يا ذا المعارج لا تنقص لهم عدداً
١٨ إن يحسدونى على ما قد بنيت لهم فمثل حسن بلائى جرّ لى الحساد
وليس العجب أن يكثرُوا ، وأنا أنعق بمحاسنك وأهتف بشكرك ، ولكن
العجب كيف لا تنفقت أكيادهم كدّاً . وكان بعضهم يقول : اللهم كثر حُساد

ولدى ، فإنهم لا يكثرُونَ إلا بكثرة النعمة . فإن كان والدى سبق منه هذا الدعاء ، فإن الإجابة كانت مخبوءة إلى زمان عزك ، فقد رأينا تباشيرها وبدأت لنا عند عنايتك غايتها

٢

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعل ولدى محسودين ولا تجعلهم مرحومين ، فإن يوم المحسود يوم عزه . ويوم الحاسد يوم ذله

٦

ويقال إنه لما مات الحجاج سمعوا جارية خلف جنازته وهي تقول :

اليوم يرحمنا مَنْ كان يحسدنا . واليوم ننتبع مَنْ كانوا لنا تبعاً

٩

ويقال إن زياد بن أبيه قال لحُرقة ابنة النعمان : أخبريني بحالك ، قالت : إن شئتُ أجملُ . وإن شئتُ فسرت ، فقال لها : أجملِي ، فقالت : ٩
بتنا نحسد وأصبحنا نرحم . فخطبها زياد — وكانت في دير لها — فكشفت عن رأسها ، فإذا رأس مخلوق ، فقالت : رأس عروس كما ترى يا زياد ؟ وأعطاهَا دنائير فأخذتها وقالت : جزتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا جزتك يد ١٢
استغنت بعد فقر

ولا نعلم الحسد جاء فيه شيء أكثر من حديث روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : لا حسد إلا في اثنين ، رجل أتاه الله حفظ القرآن فهو يقوم به ١٥
آناء الليل وآناء النهار ، ورجل أتاه الله مالاً فهو ينفقه في وجوه البر آناء الليل وآناء النهار . فهذا الحسد إنما هو في طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم

١٨

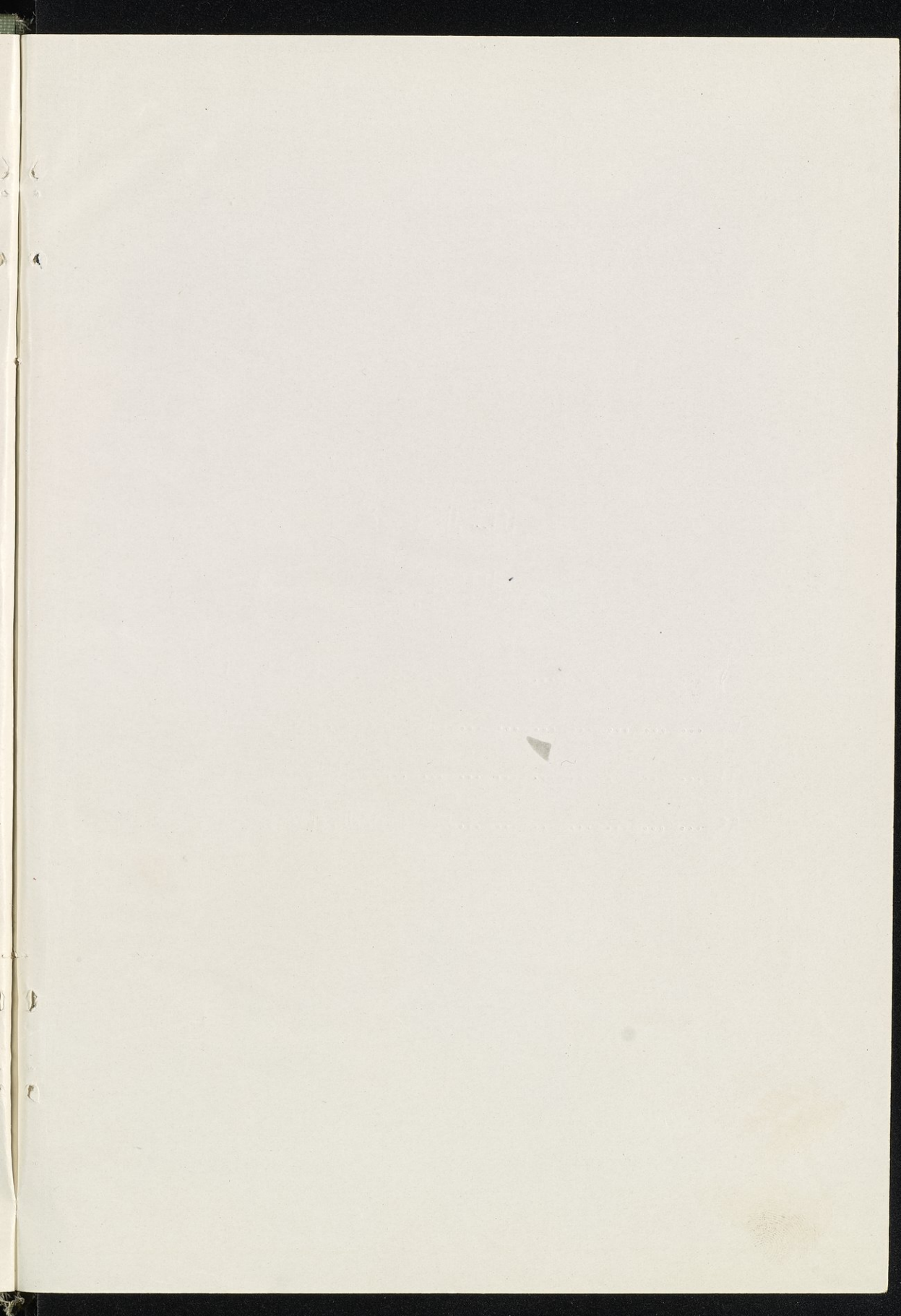
وقال بعض الأشراف :

احسُد على نيل المكارم والعُلَا . إذ لم تكن في حالة المحسود
 حسد الفتى في المكرمات لغيره كرم ولكن ليس بالمعدود ٣
 فهذا ما انتهى إلينا من أخبار الحسد . وزادك الله شرفاً وفضلاً وعلماً
 ومعرفة ، ولا زلت بالمسكان الذي يُهدى إليك الكتب ، ويتحف بنوادر
 العلوم وفرائد الآداب إنه قريب مجيب ٦

فهرس الرسائل التي يحويها هذا المجموع

صفحة

- ١ — رسالة المعاد والمعاش ٩
- ٢ — كتاب كتمان السر وحفظ اللسان ٣٧
- ٣ — رسالة في الجد والهزل ٦١
- ٤ — رسالة فصل ما بين العداوة والحسد ٩٩



تصحیحات

ص ٣٨ : وردت القطعة « وقيل من استوى » (سطر ١) إلى آخر سطر ٩ في نسخة
ب أيضا وفيها رواية أخرى للأبيات المذكورة في سطر ٤-٥ :
رَأَيْتَكَ أَمْسَ سُدَّتْ بَنَى مَعْدَ
وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الضَّعْفَ مِنْهُ
أما بقية التصحيحات التي نقترحها فهي :

صفحة	خطأ	صواب
٣٨ : ٨	تحي به	تُحَسِّنِي لَهُ (كذا ب)
٣٩ : ٥	بقدره الله	بقدره لله
٤١ : ١٢	الأشافي	الأشافي
٤٣ : ٩	المحدث	المحدث
٤٣ : ١٨	لم يخرججه	لم يخرججه
٥١ : ١٨	الطعن ... والتجسس	الطعن والتجسس
٥١ : ١٨	وعشق	وعشق
٥١ : ١٨	واستحلال	واستحلال
٥١ : ١٨	ظاهراً	ظاهراً ؟
٥٦ : ٨	كُنْهُؤُهُ	كُنْهُؤُهُ
٦٠ : ١	فكان العارض	فكان العارض
٦٠ : ١٠	والآخذ	والآخذ
٦٠ : ١١	< منه > لمن	من
٦٥ : ٢	العلاظ	العلاظ
٦٥ : ٥	الفظائع	الفظائع ؟
٦٧ : ١٣	غرمه	غرمه
٦٨ : ٤	اكترائه	اكترائه ؟
٧١ : ٧	وبعذره	وبعذره
٧٢ : ٥	الاعتزام	الاعتزام ؟
٧٥ : ١٥	يومي	يومي
٧٦ : ٤	سكينه	سكينه ؟
٨٠ : ١٧	لتعرض	لتعرض
٩٠ : ٥	بدلك	بدلك
٩١ : ٨	واصابة	واصابة
٩١ : ١٨	والتهاية	والتهاية
٩١ : ١٨	المسكنة	المسكنة
٩٢ : ١٠	وتباعده	وتباعده
٩٧ : ١	اخفى	أخفى
٩٧ : ٦	والضرب	والضرب

THE
OFFICE OF THE
SECRETARY OF THE
NAVY
WASHINGTON, D. C.

NAVY DEPARTMENT
NAVY DEPARTMENT
NAVY DEPARTMENT

NAVY DEPARTMENT
NAVY DEPARTMENT
NAVY DEPARTMENT

NAVY DEPARTMENT
NAVY DEPARTMENT
NAVY DEPARTMENT

NAVY DEPARTMENT
NAVY DEPARTMENT
NAVY DEPARTMENT

NAVY DEPARTMENT
NAVY DEPARTMENT
NAVY DEPARTMENT

NAVY DEPARTMENT
NAVY DEPARTMENT
NAVY DEPARTMENT

NAVY DEPARTMENT
NAVY DEPARTMENT
NAVY DEPARTMENT

NAVY DEPARTMENT
NAVY DEPARTMENT
NAVY DEPARTMENT

FEB 1 1868

DATE DUE

NOV 20 2008

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

FEB 4 1946

893.7519

SG

893.7519

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58871985

893.7J19 S6

Majmu rasail al-Jahi

RECAP